

دراسات في الهندوسية

تأليف

د. محمود محمد زرع

أستاذ العقيدة والأديان بجامعة الأزهر وأم القرى



دراسات في المندوسية

تأليف
الأستاذ الدكتور
محمود محمد مزروعى

أستاذ العقيدة والأديان بجامعة الأزهر وأم القرى





دراسات في الهندوسية

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى ١٤٢٨ هـ - ٢٠١٧ م

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشؤون الفنية

مزروعة، محمود محمد
دراسات في الهندوسية
تأليف محمود محمد مزروعة
القاهرة، دار اليسر ٢٠١٧ م.
٢٦٣ ص، ١٧ × ٢٤ سم.
تدمك ٤٨١، ٩٧٨٩٧٧٩٤٠
١ - الهندوسية.
٢ - الهندوسية - فلسفة.
أ - العنوان

٢٩٤,٥

دار اليسر للنشر والتوزيع غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه.

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية، أو إلكترونية، أو ميكانيكية، ويشمل ذلك: التصوير الفوتوغرافي، والتسجيل على أشرطة، أو أقراص مضغوطة، أو استخدام أية وسيلة نشر أخرى. بما في ذلك: حفظ المعلومات واسترجاعها. دون إذن خطي من الناشر.

٢٠ ش عبد العزيز عيسى، المنطقة التاسعة، الحي الثامن

مدينة نصر، القاهرة، جمهورية مصر العربية

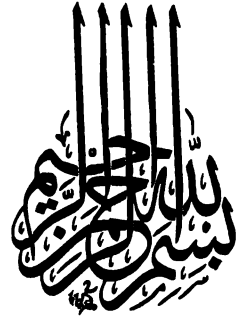
تليفون: ٠٢ ٢٤٧٠٩٢٦٩ - محمول: ٠١٠٦٢٢٧٦٢٠٨

فاكس: ٠٢ ٢٤٧١٤٨٠١ - خدمة عملاء: ٠١١١٨٠٠٦٠٦٠

www.dar-alyousr.com

[Email: alyousr@gmail.com](mailto:alyousr@gmail.com)

info@dar-alyousr.com



عضو اتحاد
الناشرين
المصريين



رقم الإيداع

٢٠١٧/١٤١٧٢

ترقيم دولي

978-977-794-048-1

دراسات في

الهندوسية

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على رحمة الله إلى العالمين،
وخير خلق الله أجمعين، وسيد الأولين والآخرين، سيدنا ونبينا محمد، وعلى
إخوانه النبيين المرسلين، وآله الطيبين الطاهرين، وأصحابه المهديين الهادين،
والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.
أما بعد؛

فإن دراسة الأديان من الدراسات الهامة التي عني بها الإنسان على مدى تاريخه
الطويل، وظروفه المختلفة، وإمكاناته المتواضعة، وذلك لأمر كثيرة أهمها:
الأمر الأول: أن التدين دافع فطري، وميل غريزي في الإنسان كمثّل دافع
الجوع والعطش، لا يمكن للإنسان أن يحيا بدون إشباع لذلك الدافع، كما أنه لا
يمكن أن يحيا دون طعام أو شراب، وذلك يفسر لنا ملكية عجيبة في حياة
البشرية جميعها:

المسلك الأول: التزام البشرية كلها على مدى تاريخها، وفي جميع البقاع
والأقاليم والأزمنة التي مرت بها بالتدين، بحيث لم يمر زمانه، ولم توجد بمكان
إلا وكان الإنسان في ذلك الزمان وذلك المكان متدينا ليس منها نوع ذلك التدين
أو موقعه بين الحق والباطل، بل المهم هو وجود الدافع نفسه، ثم في ضرورة
إشباعه، فالدافع موجود، وهو فطري غريزي، وضرورة إشباعه هي في ضرورة
إشباع الجوع بالطعام، والعطش بالماء أو هو أشد منهما، وما ينبغي هنا أن نقيم

وزناً لكون ماهية الإشباع ونوعه، وما إن كان صالحاً أو غير صالح، فإننا نهتم بضرورة إشباعه، ومن قبل ذلك بوجود وحتمية إشباعه، بل إن إشباع الدافع بما يخالف الوضع الطبيعي لإشباعه، لهو أقوى في الاستدلال على أصالة من إشباعه بما هو صالح له، لأن إشباعه بما لا يصلحه دليل على حتمية ذلك الإشباع، إلى حد أن المرء إذا لم يجد الصالح لإشباعه أشبعه بالشيء الفاسد، لأنه لا يملك إلا إشباعه. وذلك كالإنسان الذي لا يجد الماء الصالح لإشباع عطشه فإنه سيشرب الماء النجس أو الملوّث، وشربة الماء الملوّث دليل على حتمية الإشباع أقوى من شرب الماء الصالح، ولقد أحلّ الله -تعالى- أكل الميتة والدم ولحم الخنزير لإشباع الجوع لمن لم يجد غيره، فيأكل من هذه على قدر ما يمسك حياته ويشبع حاجته، ولا يزيد وإلا فهو باغ وعادٍ قال تعالى:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٧٣].

فالاتباع أمر حتمي ولو بغير الصالح لأمر الدافع حتمي وإشباعه لا مفر منه. وهذا ينتقل بنا إلى:

المسلك الثاني: ذلك المسلك الذي يقوم على أن البشرية تعتنق أديانا متعددة، بل ومتعارضة يناقض بعضها بعضا كل فريق يدين بدين يتعصب له ويزعم أن دينه هو الحق، وأن غيره باطل، ولأن هذه الأديان تضرب بجذورها في مشاعر الناس ووجدانهم، وأنها تحتل سويداء قلوبهم، فإنها تملكهم ولا يملكونها، وهي تحركهم من داخلهم ولا يحركونها، ومن ثم لا يملكون تغييرها

مهما بلغ ومن وضوح بطلانها، وهذا يضاف إلى ما سبق ذكر من أن التدين دفاع فطري غرزي أصيل، يولد الإنسان به، ولا يكتسب من البيئة، من هنا كان تغيير الدين عند المتدينين به أمراً غاية في الصعوبة - إن لم يكن مستحيلاً - إلا من رحمه الله، وقليل ما هم، بل أقل من القليل إذا ما أخذنا في الاعتبار تفشي الجهل، وشيوع العصبية والتمسك بالموروث حتى ولو كان واضح البطلان، هنا يكون الناس عبيداً لما يعتنقون، لذلك قال الله - تعالى - لرسوله ﷺ عن قومه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِعَايَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

وقال - سبحانه - عن المشركين في أمة سابقة:

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلوًّا﴾ [النمل: ١٤].

خلاصة ذلك أن الإنسان لا يمكن أن يحيى إلا متديناً، ولو حاول غير ذلك، بل لو بدا لنفسه أنه تخلص من التدين وأضحى ملحدًا خالصًا، فإنه يخدع نفسه، ويدعي غير الحقيقة، فهو لا يستطيع أن يحيى إلا متديناً كما لا يستطيع أن يحيى إلا طاعماً وشارباً. وسيأتي - بحوله تعالى - مزيد توضيح لهذه الحقيقة.

الأمر الثاني: أن التدين له خطره في حياة الإنسان في الدنيا والآخرة. ولا ينقصه هذه الحقيقة أو يضعف منها أن البعض يعيش ملحدًا محاربًا للدين، معاديا له، ظاناً أنه قد استطاع أن يتخلص من ذلك الدافع الفطري الهام والخطير في حياة الإنسان، فإن ذلك ظنّ باطل، ووهم كاذب، قصارى ما فعل هؤلاء

هؤلاء الملاحدة أنهم شوهوا الفطرة، ومسخوا خلقة الله، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير.

إن النهر حين تزخر بالمياه منابعه، وتفيض بها موارده، فإنه يندفع في مجراه الطَّبْعِي في قوة وحيوية ونشاط، فإذا ما أقمنا العراقيل والسدود أمامه، ووضعنا الصخور في مجراه، فإننا بذلك لا نلغيه من الوجود، ولا نقذف به في هوة العدم، وإنما ندفعه إلى الانحراف عن مجراه الطَّبْعِي المستقيم، إلى مجار أخرى مشوهة ومعوجة يصرّف فيها طاقته الجبارة وحمله القوي المندفع. إن انحرافه عن مجراه الطبيعي، واندفاعه إلى مجار أخرى ضارة ومشوهة، لم يكن إلّا لأننا منعناه مجراه الطبيعي، وحاولنا القضاء عليه، وهو غير مقضي عليه؛ لأنه خلق الله جزء من الطبيعة والفطرة.

إن هذا ما يحدث تمامًا لدافع التدين، وهو دافع فطري حتمي، وقد خلق الله تعالى طرق إشباعه السّوية، لكن هذا الدافع الفطري الذي هو صنعة الله في خلقه وإشباعه، قامت نظم من صنعة البشر تعادية وتحاربه، وتزعم أنها قادرة على إلغائه من الوجود، فوضعت العراقيل، وأقامت المعوقات أمام الإشباع الطبيعي لهذا الدافع الأصيل في فطرة الإنسان من هنا دفعت به إلى أن يعبر عن نفسه، ويشبع ذاته بطرق مشوهة ممسوخة.

إن الشعوب التي أوقعها سوء حظها تحت سلطان الشيوعية الماركسية الكافرة الملحدة، قد سُدَّ أمامها إشباع دافع التدين بصورة صحيحة، فكان لابد لهذا الدافع أن يشبع ذاته بطرق أخرى، من ثم راحت هذه الشعوب تضيي على

فلاسفة الشيعية من الإجلال والتقديس والعصمة ما كانت جديرة بأن تضيفه على الإله أو الآلهة لو أنها اعتنقت ديناً ولو كان باطلاً، وراحت تؤمن بزعمائها وتخلع عليهم ما لا يكون إلا من حق الأنبياء والمرسلين، واستبدلت الأناشيد والنصوص التي تمجد الوطن وزعمائه بتلك الأوراد والتراتيل التي كانت تقوم بها في الكنائس والأديرة ودور العبادة عندهم.

وذلك مسخ في الفطرة الإنسانية، والطبيعة البشرية، فليس مما ألف الناس قديماً أو حديثاً أن يعبد الإنسان بشراً أو إنساناً مثله، إلا إذا عدم الطريق المستقيم في التدين والتعبد، فإنه إشباعاً لدافع التدين عنده، وتلبية لغريزة وُلِدَ بها يَتَعَبَّدُ لإنسان مثله، ويدين - ربما - بشجر أو حجر، ومع ذلك تجد من هؤلاء الوثنيين أو المشركين من يوصف بأنه راجح العقل، كامل الفطنة، عميق الفهم، والسؤال: كيف يوصف إنسان بهذا، وهو فاسد الفطرة ممسوخ الطبع، إلى حد أنه يجعل من حجر وَجَدَه مُلْقَى في الطريق فنحته بيده، ثم نصبه تجاه وجهه، ثم خَرَّ ساجداً له؟

والجواب: هو ما ذكرناه إشباعاً لدافع التدين عنده، وهذا لا يفرق كثيراً - كما أشرنا قبل - عن الإنسان يعضه دافع الجوع بنابه، فقد لا يجد ما يشبع جوعه إلا طعام حرام فلا يملك إلا أن يأكله، أو يجد ماءً فاسداً آسناً فلا يجد مندوحة عن شربه إشباعاً لدافع فطري لا يفرق كثيراً عن دافع التدين حينما لا يجد الإنسان طريقاً مستقيماً يصله بالدين الحق، فلا يجد بُدّاً من أن تدين بالهندوسية

أو البوذية أو الجينية أو أية ديانة وثنية أخرى، ليس لأنها حَقٌّ، أو أنها طريق صحيح، لكن لأنها وسيلة للإشباع ولو كانت سمًّا زعافًا، أو ضلالًا مبینًا. أما بعد:

فهذه مقدمة ضرورية لدراسة الأديان الوضعية، التي تقوم على عبادة أشخاص أو حيوانات أو أشجار وأحجار، وهذه ضرورية حتى لا يأخذنا العجب فيشغلنا عما نحن فيه من دراسة وتمحيص، ثم من عظة وعبرة. والله من وراء القصد.

مَجْمُوعَةُ مَجْلَدَاتِ رَوْحَانَا

٨ شوال ١٤٣٨ هـ

٢ يوليو ٢٠١٧ م

البَابُ الْأَوَّلُ

نشأة الديانة الهندوسية والجذور الثقافية لها

الفصل الأول: تاريخ الديانة الهندوسية.

الفصل الثاني: الجذور الثقافية للشعوب الهندية.

1

2

الفصل الأول

تاريخ الديانة الهندوسية

المبحث الأول: نشأة الديانة الهندوسية

المبحث الثاني: ما قبل الهندوسية من عقائد

المبحث الثالث: عقائد الأجداد

المبحث الأول

نشأة الهندوسية

الهندوسية هي دين الجمهرة العظمى في بلاد الهند منذ ما قبل الميلاد بعدة قرون، وتسمى: (الهندوسية)، و(الهندوكية) نسبة إلى بلاد الهند، وتسمى - كذلك - (البراهمية) نسبة إلى (براهما) كبير الآلهة الثلاثة التي يتكون منها الثالوث المعبود في هذا الدين، كما سمي رجال الدين في الهندوسية: (براهمن) نسبة إلى ذلك الإله (براهما)، وكانت قديمًا تسمى: (دورما Dharma) وتسمى - كذلك - (سانتانا Santana)، لكن أمرها استقر أخيرًا ونهائيًا عند اسم: (الهندوسية)، وأحيانًا يقال: (الهندوكية).

والديانة الهندوسية تكونت نتيجة تطورات كثيرة، وعبر مراحل عديدة، نتيجة اختلاط وتلاقح وامتزاج عدد كبير من الأديان والأفكار والثقافات، بل والتقاليد والعادات التي كانت تشيع لدى الشعوب الثلاثة التي تكوّن منها الشعب الهندي في أوائل الألف الأولى قبل الميلاد.

ونعني بهذه الشعوب: ثلاثة من الشعوب كان كل منها متميزًا عن الآخرَيْن: سكان الهند قبل دخول الغزاة الطورانيين، ثم الغزاة الطورانيون، ثم الغزاة الآريون، فهؤلاء الثلاثة: سكان الهند، والطورانيون، والآريون، كل منهم كانت له دياناته، وعقائده، ومعبوداته، وطقوسه، وتقاليده وأعرافه، قبل أن يختلط

بالآخرين، فعندما غزا الطورانيون بلاد الهند واختلطوا بالهنود الأصليين تأثر كل من الشعبيين بعقائد وديانات ومقدسات الآخر، وحدث - مع مرور الزمن - نوع من التلاقح والاختلاط بين ديانات وعقائد هؤلاء وأولئك، ثم لما غزا الآريون بلاد الهند جاءوا معهم بدياناتهم ومعبوداتهم كما جاءوا كذلك بعاداتهم وتقاليدهم، وحدث مرة أخرى نوع من المواجهة والصدام بين ما جاء به الفاتحون من ديانات وطقوس وعادات وتقاليد، وبين ما كان مستقرًا لدى السكان الأصليين؛ الهنود والطورانيون، وبمرور الزمن حدث - مرة أخرى - اختلاط وامتزاج وتلاقح، بل حدث ما هو أكثر من ذلك، حيث تمخض هذه الصدام والمواجهة، ثم الاختلاط والامتزاج عن ديانة جديدة، انصهرت في بوتقتها عقائد وديانات وثقافات الشعوب الثلاثة، ونتج عن ذلك الانصهار دينٌ جديد هو: (الهندوسية) وقد تم ذلك - بشكل نهائي وواضح - حول القرن الثامن قبل الميلاد، فهذا القرن تجتمع آراء أكثر المؤرخين للهندوسية على أنه قرن ميلادها، يستوي في ذلك أن يكون ميلادها نحو أول القرن، أو وسطه، أو آخره، فذلك شأن لا يتأثر في وجوده بالعقود؛ زيادة، أو نقصًا.



المبحث الثاني

ما قبل المندوسية من عقائد

إن الهندي القديم - قبل الميلاد بآلاف السنين - كانت له عقائد متضاربة في الإله، حيث كانت الآلهة عنده كثيرة، وكانت تعبر عن مظاهر وظواهر الطبيعة، وكان لكل مظهر من مظاهر الطبيعة إله، ثم بمرور الزمن أصبح ثمة نوع من التميز بين الآلهة، بحيث صار هناك الإله الأكبر الذي هو الشمس، واسمه: (براجاباتي)، وهو عندهم خالق الخلق، وواهب الحياة للأحياء، ثم صار بجانبه آلهة أخرى أقل شأنًا، وأضعف تأثيرًا، وكان هناك - إلى جانب هذين النوعين - نوع ثالث هو: المقدسات بنوعها الخاص والعام.

وقد ظل الأمر كذلك حتى اجتاحت بلاد الهند غزوات الغزاة التي بدأها الطورانيون قبل الميلاد بثلاثة آلاف عام تقريبًا، وقد تغلب هؤلاء الغزاة على أهل الهند الأصليين، وتسيدوا عليهم، ثم بمرور الزمن حدث بينهم اختلاط، وامتزج الغزاة بالسكان الأصليين حتى أصبحوا كأنهم شعب واحد.

وقد وصل الامتزاج بين هذين الجنسيتين - الغزاة الطورانيين والهنود الأصليين - إلى حد أن بعض المؤرخين أنكر واقعة الغزو، ووجود غزاة أصلاً، وقرر أنه لم يحدث غزو، ولم يدخل الهند شعب آخر، ومن نتائج هذا الاختلاط والامتزاج بين الغزاة الأوائل وأهل البلاد أن وقع الصدام والاختلاف بين عقائد

الغزاة الفاتحين وعقائد أهل البلاد، ثم بمرور الوقت حدث اختلاط وامتزاج بين العقائد مثل ما حدث بين الشعيين، وأضحت العقائد واحدة تقريبًا، وهذا أدى إلى نوع من التساهل والتقارب بين الشعيين بحيث أضحي كل منهما يعبد آلهة الآخر بلا حرج، أو تأثم، ثم توحدت الآلهة عند الجميع.

ظل الأمر كذلك حتى منتصف الألف الثانية قبل الميلاد ١٥٠٠ ق.م. تقريبًا حيث قدم إلى البلاد غزاة جدد، وهم قبائل آرية يختلف المؤرخون في موطنها الذي قدمت منه، فيغلب عند بعض المؤرخين أن الشعوب الآرية قدمت من أوربا فذهب بعضها إلى (إيران) فغزاها، وذهب الآخرون إلى (الهند) فغزوها، ويرى بعض المؤرخين - ومنهم (جوستاف لوبون) - أن الشعوب الآرية هم سكان (إيران) الأصليون، وأنهم لم يأتوا من أوربا ليغزوا إيران، بل هم خرجوا من إيران فاجتاحوا البلاد التي وقعت في طريقهم حتى وصلوا إلى الهند، فانقسموا إلى فريقين، قبائل اتجهت إلى الهند فغزتها، وقبائل أخرى اتجهت إلى أوربا فحاربت سكانها واجتاحتها.

ونحن لا يشغلنا أن يكون الآريون جاءوا من أوربا فدخلوا إيران والهند، أو خرجوا من إيران فاجتاحوا الهند وأوربا، لكن الذي يهمنا أن هؤلاء الغزاة قد اجتتاحوا الهند حول منتصف الألف الثانية قبل الميلاد، ثم تغلبوا على أهلها بعد أن دامت الحروب بين الغزاة الفاتحين، وأهل البلاد الأصليين عشرات السنين، حيث تغلب الفاتحون الغزاة على أهل البلاد الأصليين، وكان الغزاة الآريون أشد بأسًا، وأقوى شكيمة، وأقسى قلوبًا على أهل البلاد الأصليين من الغزاة

السابقين عليهم- الطورانيين- حيث ميزوا أنفسهم عن أهل البلاد، وأخذوا المبادرة فقاموا بتنظيم البلاد، وترتيب شئونها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وقد استبعدوا أهل البلاد الأصليين منذ البداية، حيث كان هؤلاء- أهل البلاد- قد فروا من وجوه الغزاة الفاتحين، فاتجهوا إلى الغابات والأحراش ورؤوس الجبال، وهم في أثناء ذلك لا يفتأون يناوئون الغزاة الحروب المتفرقة هنا وهناك، وظل الأمر على ذلك زمناً.

حتى وجد الغزاة أنفسهم مضطرين إلى أن يضموا أهل البلاد الأصليين إلى مجتمعهم المميز، وأن يختلطوا بهم وكان أهل البلاد خليطاً من الهنود الأصليين، ومن الشعب الطوراني الذي غزا بلادهم قبل ذلك واختلط بهم، وصار معهم شعباً واحداً، ومن ثم حدث نوع من التلاقح والاختلاط بين أهل البلاد المكونين من الهنود والطورانيين، والغزاة الآريين حتى صار الأمر في النهاية بلداً واحداً هو الهند، يسكنه شعب واحد مكون- في أصله- من ثلاثة أجناس؛ الهنود الأصليون- أهل البلد- الذين كانوا يسمون: (الكول)، ثم الطورانيون -الغزاة الأوائل- ثم الآريون- الغزاة الأواخر- وإن كان هذا الاختلاط بين الأجناس الثلاثة لم يمنع أن تكون هناك فروق وامتيازات احتفظ بها الشعب الغازي الغالب دون الشعب المغلوب، وقد تمثل جل هذه الفروق والامتيازات فيما عرف بنظام (الطبقات) التي سوف ن فصلها- بحول الله تعالى- في مكانها من الكتاب.

والذي يهمنا هنا من هذا الذي ذكرناه ليس الاختلاط والامتزاج القائم بين

الأجناس الثلاثة، ولكن الذي يهمنا هو التلاقح والامتزاج بين الأديان والعقائد، ثم الثقافات والتقاليد، ذلك الاختلاط والتلاقح الذي حدث بين عقائد وديانات وتقاليد الشعوب الثلاثة، والذي نتج عنه الديانة الهندوسية كمنتج نهائي لهذا الاختلاط والامتزاج.

وطبعي أن تكون تلك الديانة التي نشأت عن التمازج والاختلاط بين ما عند شعبين، أو أكثر قد احتوى نسيجها على عادات وتقاليد وأعراف هذه الشعوب الثلاثة، أيًا كان موقع هذه التقاليد والأعراف من الصواب والخطأ، أو الحق والباطل، أو النفع والضرر؛ لأنه إذا كانت هذه الاعتبارات لم يؤخذ بها في اختيار الدين، وانتقاء العقائد؛ أفينظر أن يؤخذ بها في انتقاء العادات والتقاليد والأعراف.

وقد اتضح من كلامنا: أن نشأة الهندوسية لم تتم بين عشية وضحاها، ولا بين عقد وآخر، ولا قرن ولا آخر، ولكنها استغرقت مرحلتين كبيرتين حتى تبلورت في النهاية الهندوسية التي هي مزيج من ديانات وتقاليد الشعوب الثلاثة. ويحرص كثير من المؤرخين على التنبيه إلى أن الهندوسية دين، وهي - في نفس الوقت - تعبر عن عادات وتقاليد الشعوب الهندية، ويقولون - كذلك -: إن الهندوسية أسلوب في الحياة أكثر مما هي مجموعة من العقائد، وهذا كلام غير دقيق؛ لأن الهندوسية - كما بينّا عند الكلام على نشأتها - عبارة عن عدد كبير من الديانات والطقوس والعادات والتقاليد، امتزجت جميعها وتكوّن منها ما سمي (بالهندوسية)، فالهندوسية نفسها - إذن - دين يشتمل في نسيجه على عادات القوم وأعرافهم، وتعتبر الهندوسية هذه العادات والأعراف ضمن عقائدها

وشعائرها وطقوسها، وهذا يحسب للهندوسية لا عليها، ويعظم من شأنها، ولا يقلل؛ لأنها تشتمل على حياة الهندي في جملتها، إلى الحد الذي أضحت عادات وتقاليد الهندي ضمن دينه، فلا يأخذ شيئاً، أو يدع إلا وهو يتمثل دينه، فالهندوسية- إذن- هي عقائد وطقوس وعبادات وعادات وتقاليد الهندوسي كل ذلك في دينه ومن دينه.

ومع أننا نعرف أن الهندوسية ليس لها واضع، أو مؤلف، أو منشئ معين، وأنها قد نشأت نتيجة الامتزاج بين عقائد وديانات الشعوب الثلاثة: الهندو القدماء، ثم الطورانيون، ثم الآريون، وأن الشعوب الغازية- وبخاصة الآريون- كان لهم الحظ الأوفى في نشأة الهندوسية، وأن عقائد الآريين الفاتحين كانت هي الغالبة على الهندوسية باعتبارهم فاتحين متتصرين نقول: رغم ذلك فلعله من الحق والصواب أن نشير إلى العقائد والعبادات والآلهة التي كان يدين بها الهندو القدماء قبل أن يأتيهم الغزو، لأننا بهذا نتبين ما كانت عليه الهند والهندو من ديانات قبل أن يمحوها ويغيرها الغزاة من حيث إن هذه عقائد البلاد الأصلية والتي وقع عليها التغيير والتبديل.

لذلك سيكون العنوان التالي هو (عقائد الأجداد)، أي: عقائد الهند قبل الغزو، والله المستعان.



المبحث الثالث

عقائد الأجداد

كان الهنود القدامى الذين كانوا يعمرون هذه البلاد أصحاب أديان مختلفة، لهم آلهة معبودة، ومقدسات مطاعة، وكانت ديانة هؤلاء ومعبوداتهم كشأن جميع الأمم القديمة الوثنية تقوم على تأليه مظاهر الطبيعة، وتقديس ظواهرها، وكان شأنهم شأن القبائل الطوطمية، أو الوثنية، يجعلون من ظواهر الطبيعة آلهة تعبد، فالمطر، والرعد والبرق، والرياح والعواصف، والجبال، والنجوم، والشجر وكثير من الحيوانات المفترسة، أو الداجنة، كل هذه آلهة، أو له رمز معبود تعظيمًا لهذه الظواهر، طلبًا لخيرها، ودفعًا لشرها، وكان لكل شأن من شئون الحياة إله يعبد، حتى الجنس كان له إله يعبد ويعظم طلبًا للخصوبة والإنجاب.

كل هذه الآلهة خلقها الهندوس لأنفسهم معتمدين على العناصر الطَّبَعِيَّة، فجعلوا السماء أبًا وسموه: (فارونا)، وجعلوا الأرض أمًا وسموها: (برينيفي)، وكان المطر عندهم هو الإله (بارجانيا)، والريح هو (فايو)، والنار هي (أجني)، أما العاصفة فهي الإله (أنديرا)، والفجر (أوشاس)، والشمس هي الإله (سوريا)، أو (مترا)، أو الإله (فشنو)، ومجرى المياه في الحقول هو الإله (سيتا)، بينما النبات المقدس الذي يُسَكر عصيرُهُ كل الناس وكل الآلهة فهو الإله (سوما) وهو نبات العنب، أو شجرة الكرم^(١).

ولم يستمر الأمر على ذلك، ولكن تطورت كل هذه الأفكار الساذجة، وكان

(١) قصة الديانات، لسليمان مظهر (ص ٩١).

تطورها قائمًا على أمرين: على تداخلها وتقليل عددها باندماجها، أو إلغاء بعضها، والأمر الثاني هو تمثيلها في أصنام تُنحت وتعبَد على أنها هي ظواهر الطبيعة، أو أنها أرواح تتحكم في ظواهر الطبيعة، ومع التطور الجديد قلَّ عدد الآلهة، وكذلك تغيرت أسماء الموجود منها، وقد استقر الأمر في المرحلة الجديدة على أن الشمس هي أكبر الآلهة، وأنها هي التي تخلق وتحيي، وتهب المواليد الجدد، وينظر إليها على أنها رَبُّ الأرباب، أو إله الآلهة، وأنها واهبة الحياة لكل الأحياء من البشر والحيوان والحشرات والنبات، وقد أطلق عليها في هذه المرحلة المتأخرة من ديانات الهند اسم: (براجاباتي)، أو: (براياباتي).

وإلى هنا فالأمر في بلاد الهند كشأنه في بلاد كثيرة من العصر القديم؛ حيث تواتر لدى الشعوب القديمة تأليه الشمس، والنظر إليها على أنها (رب الأرباب)، وأنها واهب الحياة لجميع الأحياء على هذه الأرض، وكان الأمر كذلك عند قدماء المصريين الذين عبدوا الشمس على أنها الإله الأكبر وسموها: (أتون)، بل جاء من الفراعنة من جعلها الإله الواحد الأحد، ونسب نفسه إليها فسمى نفسه (إخنا أتون)، أو: (إخناتون).

ولكن الهنود القدامى قد احتفظوا بجانب إلههم الأكبر (براجاباتي)، أو الشمس بعدد غير محدود من الآلهة الأخرى، التي ما تزال تشغل جانبًا كبيرًا من عقائدهم، وتؤثر تأثيرًا قويًا في مشاعرهم ووجداناتهم.

وكانت هذه الآلهة مثل النجوم تختفي وينعدم تأثيرها عند طلوع الشمس، فكذا هذه الآلهة ينعدم تأثيرها، أو يضعف جدًا في جانب الإله الأكبر الذي هو الشمس إله الآلهة، أو (براجاباتي) فإذا ذكرت الشمس كانت هي الإله الأكبر الذي تذكر الآلهة الأخرى بجواره - إن ذكرت - على أنها الخادمة، أو المساعدة

المنفذة لرغبات الإله الأكبر، أو التي ينفذ الإله الأكبر رغباته وقراراته من خلالها فهي - إذن - معينة ومساعدة له.

استقر الأمر - إذن - عند الهنود القدامى على نوعين من الآلهة:

- ١ - الإله الأكبر (براجاباتي)، أو الشمس، إله الآلهة، مانح الحياة للأحياء جميعها.
 - ٢ - آلهة أخرى ترمز لبعض مظاهر الطبيعة، وهي أثر من آثار المراحل العقدية السابقة وتدل على تربع الشمس على عرش الألوهية في عقيدة الهنود، وهذه الآلهة يقل تأثيرها، أو ينعدم في جانب الإله الأكبر، لكن لكل منها تأثيره في مجال معين.
- لكن الأمر لا ينتهي عند هذا الحد بالنسبة لعقيدة الهندي، بل نجد ثمة نوعاً ثالثاً لدى الهندي يحتل من قلبه ووجدانه منزلة كبيرة، وتأثيره على مستوى الحدث اليومي في حياة الهندي كبير، ووجود هذا النوع الثالث هام وخطير بالنسبة للهندي لا يغني عنه واحد من نوعي الآلهة السابقين.

هذا النوع الثالث هو: (المقدسات) هذه المقدسات تشغل حيزاً كبيراً من وجدان الهندي، ولها دور هام في حياته.

وهذه المقدسات كثيرة لا تكاد تحصى لدى الهنود، وجُلُّ هذه المقدسات تمثل حالات وجدانية خاصة بكل فرد، فمن الهنود من يقدس شجرة بعينها، ومنهم من يقدس كومة من الحطب، أو القش، ومنهم من يقدس حيواناً، أو كائناً ما، وقد يختص التقديس لشيء ما بشخص واحد، أو أكثر، وقد يشترك أفراد قبيلة معينة في تقديس كائن معين؛ شجرة، أو حيوان يعتقدون حلول روح جدّهم فيه.

وهناك إلى جانب المقدسات الفردية، أو الخاصة بشخص، أو قبيلة، مقدسات عامة يشترك فيها الهنود جميعاً على اختلاف أديانهم ومذاهبهم - سوى المسلمين - وذلك مثل تقديسهم نهر (الجانج)، وتقديسهم البقرة.

وتقدّيسهم البقرة إنما هو شعار قومي هندي، وليس رمزاً لدين بعينه، أو طائفة بذاتها، ولكنه رمز قومي لدى الهنود جميعاً - عدا المسلمين بطبيعة الحال - لذلك لم يقتصر على أصحاب الديانة الهندوسية، أو البوذية، أو الجينية، بل هو تقدّيس عام؛ لأنه رمز للبلد وللقوم الذين يعمرونه، ولقد جاء تقدّيس البقرة منذ عهد سحيق نتيجة لأهميتها في حياة الهندي؛ فهي تحرث الأرض وتروي الزرع، وتجرب العربات التي تحمل الزرع من الحقل، وتحمل كل ما يريد نقله من الحقل إلى البيت، والعكس، وهي - كذلك - تحمله هو إلى حيث يريد، ثم هي تسقيه اللبن، وتطعمه الدسم طوال حياتها، فإذا ماتت جفف لحمها وعاش عليه السنة كلها، وانتفع بجلدها في نعاله ولباسه وبيته وغطائه، وانتفع بعظمها وقرونها في شئون أخرى كثيرة؛ لذلك قدّسها^(١).

وحين تقدم العمران، وجاء البديل - بل البدائل الكثيرة المريحة التي تغني عن البقرة - لم يتحول الهندي عن تقدّيسها؛ لأن تقدّيسها أضحي مع القرون والأحقاب سمة قومية، ورمزاً وعلامة مميزة للشخصية الهندية، وقد كان (غاندي) - أشهر شخصية هندية، وأعظم زعيم قومي في الهند الحديثة - يُغرق في تقدّيس البقرة، ويقول: ما تزال الهند بخير ما التزم الهندي بتقدّيس وإجلال البقرة، وله في تعظيم البقرة قصيدة مشهورة يقيم فيها مقارنة بين أمه البقرة، وأمّه الحقيقية، ويفضل فيها أمه البقرة التي تسقيه اللبن طوال حياته، وتحرث حقله،

(١) هناك أسطورة بين خنزير وملك تبين مكانة البقرة عند الهنود، ثم صلاة كتبها (المهاتما

غاندي) يبين فيها فلسفته في تأليه البقرة، يقارن فيها بين أمه البقرة، وأمّه الحقيقية، وسوف نذكر

الأميرين - بحوله تعالى.

وتروي زرعه، وتحمله وتحمل أغراضه، وحين تموت يأكل لحمها ويلبس جلدها، ويتتفع بعظمها، ولا تكلفه طوال حياتها في مقابل ذلك إلا الحشائش التي تنبتها الأرض، بينما أمّه الحقيقية ترضعه لبنها لسنة، أو تزيد، ثم يظل يخدمها كأنه عبد لها طوال حياته، يطعمها وَيُلْبِسُها، ويداوي أمراضها، فإذا ماتت تحمل نفقات حرق جثمانها، فأَيُّ الفريقين أحق بالتقديس والإجلال؟! إنها أمه البقرة بلا شك!

هذا النوع من المقدسات العامة صاحب الهندي قديمًا، وظل يعايشه ويضرب بجذوره في وجدانه حديثًا، حتى أصبح من مميزات الثقافة الهندية المميزة لبلاد الهند قديمًا وحديثًا.

هذان النوعان من الآلهة كبيرها وصغيرها، فكبيرها هو (براجاباتي)، وأما صغارها فكثيرة، منها: (أنديرا)، و(آجني)، و(سوما) وغيرها كثير يضاف إليها المقدسات ما هو عام منها وما هو خاص - هذه الأنواع هي التي كانت تحكم الجوانب الدينية في حياة الهندي قديمًا.

ونعني بكلمة (قديمًا): الفترة التي سبقت دخول الشعوب الطورانية والآرية بلاد الهند في الغزوات التي قاموا بها وتغلبوا فيها على الشعوب الهندية الأصلية في هذه البلاد حيث ترتب على دخول هذه الشعوب التورانية والآرية بلاد الهند، وتلاقح الديانات والعقائد عند الشعوب الأصلية مع الديانات والعقائد الدخيلة مع الغزاة ديانة جديدة، وعقائد متطورة، نبينها في موضعها - بحول الله تعالى.



الفصل الثاني

الجدور الثقافية للشعب الهندي

تمهيد.

المبحث الأول: السمات الثقافية للشعب الهندي

المبحث الثاني: المعبودات القديمة للشعوب الهندية

تَهْنِئَةٌ

من الأمور المقررة: أن لكل شعب من الشعوب ثقافته التي تميزه عن غيره من الشعوب الأخرى، وتحدد طبيعته الفكرية، كما تبين عاداته وتقاليده وأعرافه، ومن قبل ذلك كله؛ تبين عن عقائده ودياناته، وخلفيته الثقافية، ومن ثم تبين للباحثين خلفيته الفكرية، وطقوسه، وتكشف عن طبيعته العقلية، وتفسر سماته الخلقية والسلوكية.

ومن الأمور المقررة- كذلك:- أن شعباً من الشعوب قد يتقارب، أو يتشابه مع شعب آخر- أو أكثر- في الطبيعة العقلية والفكرية، وفي الخلفية الثقافية، والسمات السلوكية، قد يكون ثمة تقارب في قليل من هذه الجوانب، أو في كثير، لكن هذا التقارب مهما قوي واشتد فإنه لا يصل إلى التماثل الكامل بين شعب وآخر، بل يبقى لكل شعب من الشعوب ما يميزه عن جميع الشعوب الأخرى، وقد يتمثل ذلك في بعض ما يتميز به كل شعب من الشعوب من عادات وتقاليده وأعراف، تلك الأمور التي لا يتفق شعب فيها مع آخر تمام الاتفاق، حتى الشعوب التي انفصلت عن أصل واحد، أو انفصلت عن عرق مشترك، وذلك كمثال شعوب الدول العربية المسلمة، فهي أمة واحدة، ذات أصل واحد، وقد انصدعت عن عرق مشترك.

وليس من شك في أن ها- كذلك- ذات جذور ثقافية واحدة، وطبيعة فكرية

مشتركة، وأخلاق تتميز بها تلك الشعوب في غالبيتها العظمى التي تتخطى في جملتها- إذا ما نظرنا إلى الشعوب العربية كلها عصابة واحدة- تسعة أعشار الشعوب، أو تتخطى التسعين بالمائة، بحيث يصبح غير المسلمين من تلك الشعوب أقلية لا يحسب لها حساب، بل إن هذه الأقليات قد تأثرت بالأغلبية المسلمة في ثقافتها وسلوكها وأخلاقها، حتى كادت تتشابه مع المسلمين في كل شيء، إلا ما هو من صلب دينها عقيدة وشريعة.

نقول: إن هذه الشعوب رغم أن دينها واحد، وأصلها واحد، فهي تنتمي إلى أهم أصلين عريقين: الإسلام والعروبة، إلا أن بين كل شعب وآخر فروقاً في كثير من العادات والأعراف والتقاليد، إلى الحد الذي يوقع الإنسان في حيرة، فلا يدري كيف يتصرف بما يلائم ظرفاً طرأ له عند أخ عربي مسلم من شعب آخر.

أذكر أنني كنت بالسعودية، ورأيت جماعة من إخواننا السودانيين قد وضعوا بضعة صفوف من المقاعد في منفرج بين عمارتين يسكن فيها أساتذة الجامعة الأجانب- غير السعوديين-، وعرفت أن لديهم مناسبة وفاة، وأنهم جالسون للغزاء، فدخلت إليهم وزميل لي لنعزيهم، وعلى ما هي عادتنا بمصر مددت يدي أصافح أهل الميت وهم في مقدمة الجالسين، لكن واحداً منهم لم يمد يده لمصافحتي أنا وزميلي، فجلست أنا وزميلي نبحث عن سبب لرفضهم مصافحتنا، ثم عند الخروج من السرداق بعد أن جلسنا دقائق تكرر نفس المشهد مددت يدي لأصافح أهل الميت الذين نهضوا واقفين حين رأونا

خارجين، لكن أحدًا منهم لم يمد يده ليسلم علينا، وفي منتصف الصف تبرع واحد من الواقفين فمد يده وأمسك بيدي الممدودة للسلام، وقال لي: يا أخي في العزاء لا سلام ولا مصافحة، وإنما تمد يدك اليمنى فتلمس بها أعلى كتفي اليسرى، وهكذا فعلت أنا وزميلي مع بقية الواقفين، نلمس بأيدينا أكتافهم، وهم يفعلون معنا مثل ذلك.

هذا مثال عملي أردت به أن أبين أن ثمة فروقًا كثيرة في العادات والتقاليد بين الشعوب المتماثلة، أو المتشابهة في الجذور الثقافية، والأعراق الفكرية والجنسية، وأن التماثل التام في كل شيء حتى في العادات والأعراف أمر مستبعد حتى الاستحالة.

على أننا نلاحظ - من جانب آخر - أنه رغم الفروق بين الشعوب والأمم فيما ذكرنا من الجوانب الثقافية، والاتجاهات الفكرية، ومن قبل ذلك في القضايا العقدية والدينية، والجذور والخلفية التي تشكل هذا كله - فإن ثمة جوانبَ أساسيةً يشترك فيها الجنس البشري كله بكافة أممه وشعوبه، لا يختلف فيها، أو يتخلف عنها شعب، أو أمة، حتى هذه القبائل التي تعيش في الغابات والأحراش، والسبب في ذلك: أن هذه الأمور المشتركة بين جميع الشعوب والأمم، إنما تلحق هذه الشعوب والأمم باعتبارها جنسًا بشريًا، أي: باعتبار بشريتها، وليس باعتبارها شعبًا محددًا، أو أمة معينة، فما يلحق الجنس البشري باعتباره جنسًا بشريًا لا يختلف عند شعب، أو أمة، أو حتى قبيلة تعيش في

الأدغال؛ ذلكم أنه يلحقها باعتبار أخص صفاتها التي تميزها عن بقية الموجودات، كذلك يلحقها بالزم صفاتها التي تجمع أفراد الجنس البشري بتلك الصفات الجامعة المانعة، ومن هذه الأمور التي لا تخلو عنها البشرية:

١- التفكير وإعمال العقل، فجميع المخلوقات التي تعيش على ظهر الأرض - سوى الإنسان - تحيا بغريزتها، ولا تُعمل عقلها، لأمر بسيط، وهو أنها لا عقل لها، وإنما تحيا بغريزتها التي خلقها الله تعالى بها، أما الإنسان فيحيا مُعملاً عقله وفكره.

٢- الإبداع والتغيير والتجديد، أو ما يعبر عنه بـ (التطوير) شريطة أن يكون إلى أعلى؛ حيث هناك من الباحثين من يرى أن كلمة (تطور) تعنى: التغيير إلى الأعلى، أو إلى الأدنى، أي: إلى التقدم والترقي، أو إلى التخلف والتدني. والإبداع عند الجنس البشري دون غيره من المخلوقات واضح من التغيير والتطور الكبير والعجيب الذي يحدث بين جيل والذي يليه، فضلاً عن تطور الحياة في وسائلها وطرقها، والتغير الشديد في الأمور المعيشية، مروراً بالعلاقات الاجتماعية.

ويكفى أن نضرب مثلاً واحداً يبين الفرق بين الإنسان وغيره من المخلوقات على ظهر الأرض، فإن جميع المخلوقات الأخرى تعيش بنفس الطريقة التي كان عليها أجدادها منذ مئات الآلاف من السنين، فالأسد يزأر بنفس الطريقة التي كان يزأر بها أجداده منذ آلاف السنين، ومثل ذلك أكله

وشربه وسائر أموره الحياتية، وكذلك الحصان يَصْهَل كأجداده، ويعيش كما كانوا منذ مئات الآلاف من السنين، ومثل ذلك جميع الحيوانات والطيور والحشرات لم يتغير منها شيء، ومثل ذلك لا تختلف حياة الحيوان باختلاف الأقاليم، أي: أنه لا تؤثر فيه الأزمنة ولا الأمكنة، فالحمار بمصر ينهق كما ينهق الحمار الأمريكي والحمار الإنجليزي تمامًا، ويعيش كذلك، أما الإنسان فلا يتشابه جيل بالذي يليه، بل كل جيل يأتي بأسلوب في الحياة مختلف عن سابقه في قليل، أو في كثير، وتتراكم هذه الفروق حتى تمثل فروقًا جذرية بيننا وبين سابقينا حتى كأننا لا ننتمي إليهم ولا ينتمون إلينا، وحتى ننظر إلى بعض سلوكياتهم فنعجب كيف كانوا يتصرفون كذلك!

هذا ما أردناه من مصطلح الإبداع والتطور.

٣- الاعتقاد والانتماء والولاء، أو النفور والبراء، ونعني بالاعتقاد: جانب التدين وما يتصل به من أمور لازمة له معبرة عنه، وذلك مثل أسس الاعتقاد، وأحكام المعاملات، وجانب الاعتقاد يمثل أقوى وأوضح جوانب الولاء لمن، أو ما يعتقد فيه، وهو في نفس الوقت يمثل جانب البراء لما يعارض ذلك الاعتقاد، أو يناقضه.

كذلك يتمثل جانب الانتماء والولاء لكل ما يمثل للإنسان قيمة من القيم الهامة في حياته مثل الوطن، والأسرة، والمصلحين.

هذه أهم الأمور التي تلحق الجنس البشري باعتباره جنسًا بشريًا، إلى أمور

أخرى لا داعي لذكرها خشية الإطالة من جانب، ومن جانب آخر أنها ليست أساسية في موضوعنا، بل هي مقدمة وتمهيد لما نريد ذكره وبيان من الخصائص والمميزات التي ينفرد بها الشعب، أو الشعوب الهندية، والتي لا توجد مجتمعة في غيرها من الشعوب الأخرى، بمعنى: أننا قد نجد خصيصة من هذه الخصائص عند غير الشعوب الهندية، لكننا لا يمكن أن نجدها مجتمعة إلا عند سكان الهند، أو من كان من سكانها، ثم انتقل، أو هاجر إلى بلاد أخرى، أو من تأثر بالثقافة الهندية، فأخذ عن الهنود تلك الخصائص التي هي من مميزاتهم وسماتهم، فأضحى مثلهم، وإن لم يكن منهم.



المبحث الأول

السمات الثقافية للشعب الهندي

يتميز الشعب الهندي بخصائص ثقافية معينة لا تجتمع لدى شعب آخر من شعوب الأرض، وقد قلنا: لا تجتمع، وقلنا قبل ذلك: لا توجد مجتمعة، وتعني العبارتان أنه: قد توجد خصيصة من هذه الخصائص لدى شعب آخر، ولا بأس بذلك، وليس هذا بناقض لما نقول، فإن خصائص ومميزات الثقافة الهندية ليست في وجود خصيصة واحدة من الخصائص التي سنذكرها - بحوله تعالى - بل إن مميزات الثقافة الهندية تتمثل في اجتماع هذه الخصائص جميعها معاً، بحيث إذا تخلفت واحدة من هذه الخصائص عن ثقافة ما خرجت هذه الثقافة عن مميزات الثقافة الهندية.

وهذه الخصائص التي تميز الثقافة الهندية أهمها خمس خصائص نلخصها فيما يلي:

الأولى: عقيدة التناسخ:

وعقيدة التناسخ عند الهنود ليست عقيدة دينية فقط، بل هي حقيقة من الحقائق الأساسية التي ينبني عليها الفكر الهندي، وتقوم عليها الثقافة الهندية وقد يهمننا أن ننبه إلى أن عقيدة التناسخ لا تقف عند حدود الدين الهندوسي فحسب، ورغم أديان الهند على كثرتها، وتعارضها، أو تناقضها؛ فإن عقيدة

التناسخ جزء أساسي من نسيج هذه الأديان جميعها - سوى الإسلام بطبيعة الحال - نقول بأن عقيدة التناسخ - رغم ذلك - ليست عقيدة دينية فحسب، بل هي ثقافة وتقليد هندي يتوارثه هؤلاء الناس بصرف النظر عن الدين الذي يدينون به، بل لو فرضنا ووجد هندي ملحد لا يؤمن بأي من الأديان الهندية، لكان هذا الهندي الملحد معتقداً في التناسخ مؤمناً به إيماناً راسخاً، ملتزماً بكل ما يوجبه عليه التزامه بتلك العقيدة.

والتناسخ يعني: أن النفوس خالدة لا تفنى، وأما الأجساد فيقع بها الموت والفناء، فالنفوس باقية خالدة، والأجساد فانية متجددة، والأجساد تمثل بالنسبة إلى النفوس ألبسة، أو أقمصّة، أو جلابيب، تلبس النفس جسماً وتظل به تزاوّل الحياة من خلاله، حتى إذا ضعف الجسم، أو بلي، ثم مات، فإن النفس تخرج منه لتلبس جسداً جديداً تظل فيه حتى يهرم ويفنى فتنتقل إلى جسم جديد، وهكذا.

وكيفية ذلك - كما يتصورها هؤلاء التناسخية -: أن النفس تظل بالجسم حتى يفنى، فإذا فني خرجت النفس منه وانطلقت إلى امرأة حامل فدخلت بطنها، وتلبست جسد الجنين الذي تحمله، وتظل النفس به حتى يوضع، ثم يشب ويكبر، ثم يهرم ويموت، فتعيد النفس الكرّة الأولى كرة ثانية، وهكذا أبد الأبد إلى أن تصل إلى مرحلة من الصلاح والتقوى تؤهلها للانطلاق، أو النجاة، أو النرفانا - كما في الهندوسية، والجينية، والبوذية، فتنتقل، أو تنجو من التناسخ، أو تكرر المولد، كما سيأتي بيانه.

وهذه العقيدة - عقيدة التناسخ - لها أسماء كثيرة لدى أصحابها والباحثين فيها، فتسمى عند بعض الطوائف والفرق: (التقمص)، وذلك من قولهم: إن النفس تتقمص جسداً بعد جسد، وقد سميت بذلك تشبيها للجسد بالقميص الذي يلبسه الإنسان، فإذا ما بَلَغَ لبس الإنسان قميصاً آخر، ويسمى التناسخ أيضاً: (تكرار المولد)، بمعنى أن النفس يتكرر مولدها مرة بعد مرة مع الأجساد التي تلبسها، فهي تولد مرات كثيرة - كما بينا - ويُسمَّى التناسخ - أيضاً -: (تجوال الروح)؛ وذلك لأن الروح، أو النفس تتجول، أي: تتحرك، فتخرج من جسم إلى جسم آخر، وتخلع جسداً قد هُرم وفني لتدخل جسداً آخر وتظل معه من دور الطفولة حتى يهرم ويفنى، ثم تنتقل إلى غيره، وهكذا تكون الروح، أو النفس في تجوال دائم.

وعقيدة التناسخ لها دور خطير ومحوري في أديان الهند، سوف نبينه - بحوله تعالى - عند حديثنا عن هذه الأديان، وسنعرف أن هذا الدور قد يختلف من دين إلى دين آخر.

لكن التناسخ أيضاً عقيدة لها دورها الخطير عند غير المتدينين، وإن كانوا قلة لا تكاد تذكر في بلاد الهند التي أشرنا قبلاً إلى أنها بلاد يشيع فيها التدين حتى لا يكاد يوجد فيها إلحاد إلا عند فئات نادرة وشاذة.

وعقيدة التناسخ عقيدة مُعدية، مثل الوباء المغدي، فهي تنتقل من المصاب بها، أو المعتقد بها، إلى غيره؛ أي: إلى الذين لا يؤمنون بها، فيصابون بها،

ويعتقدونها بيسر وسهولة لا تكادان تتوافران لعقيدة أخرى، وقد أصيب بها بعض المسلمين، أو الذين كانوا مسلمين قبل أن يصابوا بهذا المرض المكفر المخرج من الملة الذي هو: التناسخ، وعندما أصيبوا بعقيدة التناسخ وآمنوا بها فسقوا عن الملة، وكفروا بالله ورسوله، ومن هؤلاء (أحمد بن حابط) من المتكلمين، ومن أشهر من اعتنق عقيدة التناسخ من الذين كانوا مسلمين: (الرازي الفيلسوف) الذي كان يدعو لهذه العقيدة، ويُنظّر لها، ومن أقواله في هذا: أنه لو لم يكن ذبح الحيوان لتخليص الأنفس البشرية من أجساد الحيوانات المذبوحة ما أحل الله ذبحها، والرجل كان يؤمن بتناسخ الأنفس البشرية في أجساد الحيوان بمعنى أن بعض الأنفس البشرية تدخل أجساد بعض الحيوانات عقابًا لها على سوء فعلها في الأجساد السابقة. وتلك عقيدة توجد لدى بعض الأديان الهندية - كما سنبين ذلك بحوله سبحانه عند الكلام عنها - والرجل يرى أن بعض الأنفس البشرية دخلت أجساد بعض الحيوانات عقوبة لها، وقد استوفت عقوبتها، وتحتاج أن تخرج من أجساد الحيوان لتعود إلى أجساد البشر من أجل ذلك أحل الله ذبح الحيوان، وذلك لتخليص هذه الأنفس من هذه الأجساد، ويرى أنه لولا ذلك لما أحل الله ذبح حيوان أبدًا، لما في الذبح من تعذيب لا يسمح به إلا لحكمة، والحكمة هي ما ذكرها - في زعمه.

وعقيدة التناسخ لا يختلف أحد من الدارسين والعلماء على أن أصلها هم الهنود، وأنهم أول من اشتهرت عندهم؛ فهي من خصائص الثقافة الهندية، ومن

جذور وأسس العقائد عند الشعب الهندي، لكن كثيرًا من الطوائف والفرق قد اعتنقتها وآمنت بها، وأشهر هؤلاء طائفتان:

الطائفة الأولى: تمثلها جماعات انتسبت إلى الإسلام لكنها كافرة به، أحدثت فيه ما ليس منه، بل أحدثت فيه ما يناقضه، وذلك قصدًا منها إلى هدمه والقضاء عليه تحت دعوى أنهم مسلمون.

ومن أهم العقائد التي أحدثتها هذه الطوائف، أو الجماعات في أديانها التي اخترعتها زاعمة أنها هي الإسلام: عقيدة التناسخ، وقد آمنت هذه الطوائف بعقيدة التناسخ كما هي عند الهنود، ثم أدخل بعضهم على هذه العقيدة بعض التغييرات التي لم تكن عند أصحابها الأصليين، وأشهر هذه الطوائف هم الدروز، والنصيريون، وكذلك القرامطة.

الطائفة الثانية: وهي الطائفة الأكبر والأخطر، وتمثل هذه الطائفة البوذيون والزّرادشتيّون، وغيرهم من أصحاب الديانات الآسيوية في اليابان، والصين، والتبت وغيرها، فهؤلاء لم ينقلوا عقيدة التناسخ إلى أديان من اختراعهم، بل نقلوا الديانات الهندية نفسها بما فيها عقيدة التناسخ، فهؤلاء لم يلتاثوا بعقيدة التناسخ وحدها، بل أخذوا عن الهنود دياناتهم، وأخذوا مع الديانات أهم عقائدهم: التناسخ.

الثانية: الحياة شرور وآلام:

يرى الإنسان الهندي قديمًا وحديثًا، وفي جميع عصوره، وأطواره الحياتية-

طفلاً وشاباً وشيخاً- أن الحياة شرور وآلام، ليس فيها إلا الألم والتعاسة والشقاء، وأن الآلام والشرور في هذه الحياة تتميز بخصائص، أهمها:

١- أن الآلام والشرور والتعاسة والشقاء التي يعانيها الإنسان في هذه الحياة ليست خاصة بفرد، أو جماعة، أو أمة، بل هي عامة شاملة، كذلك فهي ليست خاصة بزمان معين، أو مكان محدد، وإنما هي عامة شاملة لجميع الأزمنة، وكافة الأمكنة، كما أنها شاملة لكل الناس، وجميع الأجناس، وكذلك يعتنق هذه العقيدة المتدينون والملاحدة جميعاً.

٢- أن الآلام والشرور، وأنواع العذاب والشقاء في هذه الحياة ليس لها أسباب معينة، ولا علل محددة، بحيث يمكن أن نعالج أنسب لتغلب تلك الأسباب، ونتغلب أو نتلافى تلك العلل، ولكن منشأ تلك الآلام والشرور والشقاء إنما هي الحياة نفسها، فهي ترجع إلى ذات الحياة وطبيعتها. لذلك فلا يطمع إنسان أن يعالج هذه الشرور والآلام، أو يتخلص منها؛ لأنها- كما ذكرنا- ترجع إلى طبيعة الحياة، ومن ثم فلا أمل في التخلص منها، أو التغلب عليها؛ لأنها من طبيعة الحياة نفسها، فبين الحياة والآلام والشرور تلازم لا انفكاك منه، ومن ثم فلا خلاص من هذه الشرور والآلام إلا بالخلاص من الحياة نفسها.

٣- ما ذكرناه عن الآلام والشرور، والتعاسة والشقاء التي هي من طبيعة الحياة هو شيء لازم للحياة، ولا سبيل إلى الفكاك منه ما دام الإنسان مرتبطاً

بالحياة، موجودًا بين الأحياء.

لكن هذا لا يعني أن الناس جميعًا في هذه الحياة يعانون من آلامها وشقائها على مستوى واحد، أو أنهم متساوون في الإحساس بهذه الآلام والشقاء، فإن الإنسان وإن لم يستطع التخلص من آلام الحياة وشقائها؛ فإنه مستطيع التحايل على تلك الآلام وهذه الشرور بتخفيف آثارها، وذلك بالصبر عليها، واستعمال وسائل التخفيف من وقعها، وقد يصل الإنسان في هذا التخفيف إلى حد عدم الإحساس بها، أو المعاناة منها.

٤ - أهم وسائل التخفيف من آلام الحياة وشرورها أن يتلقاها الإنسان بأحد أمرين، أو بهما معًا:

الأول: أن يتلقاها بالصبر والتحمل، انطلاقًا من أن هذه طبيعة الحياة نفسها، وأنه لا حياة بدون آلام وشقاء، وأن الحكمة أن نقبل الحياة ونحياها على ما هي عليه، ثم إن الصبر من شأنه أن يخفف من وقع هذه الآلام، ويهون من الإحساس بها.

ثانيًا: أن يتخطى الإنسان مستوى الصبر ومحاولة التحمل، إلى مستوى الرضا والقبول، بل مستوى الرغبة والحصول، فإن الرضا قد يتحول مع الوقت والتكرار إلى عادة، والعادة إلى رغبة، وهكذا يصبح شقاء الحياة وشرها وآلامها في دائرة الرغبة والترقب، وهي درجة فوق درجة الصبر والرضا.

٥ - يعتقد الهندي أن ما في الحياة من آلام وشرور إنما هو الجانب الإيجابي

فيها، وأما لحظات الراحة والهدوء، أو ما يسميه الناس سعادة إنما هو جانب سلبي، بمعنى أن الإنسان يعاني الشقاء والآلام فعلاً، أما الشعور بالراحة والسعادة فيتمثل في التعود على الشقاء والألم حيث تصبح من الأمور المعتادة فيخف وقعها نوعاً، أو يتمثل في أن الحياة تخفف من شقائها هونا فيشعر المرء بالراحة والسعادة، فالراحة والسعادة ناتجة عن انقطاع الشقاء والألم هونا ما.

٦- أنه لا خلاص من الشقاء والآلام بشكل نهائي - دون حاجة إلى تكلف الرضا والصبر - إلا بالخلاص من الحياة نفسها، وإنما يتم ذلك عن طريق وسائل معينة تحقق للإنسان الانطلاق، أو النجاة من الحياة نهائياً، وهذه الوسائل تختلف من دين إلى آخر من الأديان التي يعتنقها الهندي - كما سنبين ذلك في موضعه بحوله سبحانه - لكن رأس هذه الوسائل التي تخلص الإنسان من شقاء الحياة وآلامها، وتؤهله - كذلك - للنجاة من تكرار المولد، إنما هي حالة الهدوء والطمأنينة والسكينة التي تترتب على انقطاع العذاب والشقاء، وقد يظن المرء أن هذه السعادة من طبيعة الحياة، وإنما هي عائدة إلى انقطاع الشقاء، وهدوء الآلام الذي يعقبه نشاطها من جديد.

الثالثة: السلوك السلبي في الحياة، أو حياة الدعة والهدوء واللامبالاة:

نتيجة لما بينناه في الفقرة السابقة، فقد أضحى من طبيعة الحياة التي يعيشها

الهندي أنها حياة دعة وهدوء، وطمأنينة وسكون، وهذا النوع من الحياة لا يمكن أن يتحقق إلا إذا اخْتَطَّ الهندي لنفسه منهج حياة يقوم على السلوك السلبي تجاه كل ما تمتلئ به الحياة من إنسان وحيوان وحشرات ونبات، وتعاسة وشقاء.

والمراد بالحياة القائمة على السلوك السلبي؛ أن الهندي يعيش حالة لا يصدر عنه تجاه الأحياء من حوله أي شيء على الإطلاق، فهو قابل لكل ما يأتي إليه من الآخر، يستوي أن يكون ذلك الآخر إنساناً، أو حيواناً، أو حشرة، أو نباتاً، فهو قابل، وليس فاعلاً، وهو في حالة القبول هذه محكوم بحالة الرضا والصبر، بل بحالة الطلب والشوق؛ إذ إنه من كثرة التعود على قبول المشقة والألم تصبح عادة وإلفاً، ويصبح الاستقرار بدونها صعباً.

على أن ثمة ملاحظات على هذه الحالة الثالثة نبين أهمها:

- ١ - أن الشعب الهندي بجميع طوائفه لا يستقيم فيما ذكرنا على حال متماثلة، فليس هو على مستوى واحد فيما يتصل بحياة الدعة والهدوء، ومنهج السلبية فيما يأخذ، أو يدع من شئون الحياة، بل هو في ذلك على أحوال مختلفة.
- ٢ - فمنه طائفة تعيش حالة السكون والسلبية، إلى حد عجيب وغريب، وهؤلاء يعيش الواحد منهم على حفنة من الأرز، أو كسرة من الخبز يومه كله، وتراه راضياً بهذا كل الرضا، وليس في اعتماده على القدر الضئيل من الطعام طوال يوم وربما أكثر من يوم أمر عجيب، ولا شيء خارق؛ لأنه يعيش مستنداً إلى

جذع شجرة، أو في ظل صخرة لا يتحرك من مكانه، فهو لا يبذل أي قدر من الطاقة؛ لذلك فهو لا يحتاجها، وكيفيه أقل شيء، ولو حبة أرز - كما يزعمون.

٣- ومن هؤلاء طائفة تعيش عيشة النساك، يأوون إلى الغابات وأطراف الحواضر، لا يسألون الناس شيئاً، ويعيشون على ما يأتيهم عَرَضاً، وهؤلاء مثال للسلبية والسكينة لا يصدّق، بعض هؤلاء يضع على فمه (كمامة) خشية أن يتلع بعض الحشرات الهائمة في الهواء أثناء تنفسه فيؤذيها، أو يقضي عليها، وبعض هؤلاء يحرص على أن يكون بيده مكنسة يكنس بها الأرض أمام خطواته خشية أن يطأ نملة، أو حشرة لا تُرى، فيؤذيها، أو يقتلها، إلى هذا الحد بلغ أمر السلبية عند هذه الطوائف من الشعب الهندي.

٤- لكن هناك طوائف أخرى غير هؤلاء تعيش كما يعيش الإنسان العادي في البلاد الأخرى، بل قد تجد منهم القتلة وقطاع الطرق، والذين بلغت فيهم قسوة القلوب، وغلظة الطباع حدّاً يناقض جميع ما ذكرنا عن حياة السكون والهدوء والسلبية، وهذا صحيح وواقع ومُشاهد، لكن ذلك في الشعب الهندي له أسبابه المعروفة التي منها:

أ- أنها ردود أفعال للأحداث الحياتية التي تمر بهم، والتي تشيع في المجتمع، فتدفع بهم إلى التجاوب معها بما يلائمها.

ب- أن هذا نتاج للاختلاط بالشعوب الأخرى، وبخاصة الاستعمار والمستعمرون الإنجليز الذين غيروا نمط الحياة عند الهندي، ودفعوه

دفعًا إلى تقليدهم في كل شيء، وتحديدًا في سلوكياتهم الفاسدة الفاسقة، وفي الإغراق في الجانب المادي، وتحصيل المال من حله وحرامه.

ج- أن الذي نراه عند عامة الهنود من إقبال على الحياة، وشغف بها، وإغراق في متعتها، إنما هي قشور ظاهرية تُخفي حقيقة طباع ذلك الشعب الذي ما أن يصدّم واحد منه بحدث معين في حياته حتى يفيق من غفوته المادية، ويعود إلى طبيعته في السلبية والرضا والدعة والسكون.

٥- يكشف لنا عن حياة هذا الشعب الحقيقية، ويبين عن طباعه الصحيحة أمور: الأول: كما ذكرنا قبلًا، حين يصاب المرء في الهند بحدث جلل، أو مصيبة كبيرة، فإنه يرجع إلى حالة الهدوء والاستسلام والسكينة والسلبية، وهي طباعه الخاصة الحقيقية، انقشع عنها ما رانَ عليها من قشور المدنية والمادية، وظهرت الحقيقة فيها ناصعة.

الثاني: حين يتقدم المرء في السن، ويهرم، أو يشيخ، فإنه يتذكر حالة التناسخ، وانتقال نفسه إلى جسد آخر، فيبدأ الكثيرون من الهنود يعدّون أنفسهم لهذا الحدث الخطير في مسيرتهم الحياتية، ويفكر كل منهم في نوعية الجسد الجديد الذي ستتقل إليه نفسه، وفي كيفية الحياة التي سيعيشها بعد ذلك، وهنا يميل إلى حياة الهدوء والطمأنينة والسلبية والهدوء.

الثالث: كثيرًا ما نسمع لدى الشعوب عن بعض أفراد غامروا في الحياة، وضربوا في جميع نواحيها بسهم وافر، وانغمسوا في مادياتها إلى أبعد مدى، ثم

جاءت لحظة نكصوا على أعقابهم، وتركوا الحياة بما فيها، وعادوا إلى حياة الزهد والكفاف، أو حياة الاستقامة والهدوء، وقد يكون ذلك في الشعوب والأمم من الأحداث الشاذة، أو النادرة، لكنها عند الشعب الهندي تزيد على ما عند الشعوب الأخرى أضعافاً كثيرة، بسبب طبيعة ذلك الشعب.

الرابع: لو أننا تركنا حياة المدينة والذين يعيشون بها، وانكفأنا إلى الرّيف، أو سكان القرى والمدن الصغيرة لوجدنا الحياة الهادئة الساكنة التي أشرنا إلى طرف منها، ولوجدنا الناس هناك يعيشون عيشة الطمأنينة والهدوء.

الخامس: بلاد الهند مليئة بالغابات والأحراش، حتى لا يكاد المرء يجد مقدار متر، أو بضعة أمتار يخلو من الأشجار، سوى المدن والقرى المسكونة.

لكن الذي تختص به بلاد الهند أن غاباتها على كثرتها مليئة بأولئك الفقراء والمساكين الذين يعيشون في هذه الغابات يستند كل منهم إلى جذع شجرة كبيرة قديمة- والهنود يقدسون الأشجار القديمة الضخمة، ويرون فيها سرّاً إلهيّاً، كلهم يفعل ذلك سوى المسلمين- والهندي يجلس بجوار الشجرة الكبيرة معتقداً أن فيها البركة والخير، وهم يطلقون على هذه الأشجار اسم: (دَرْبَارِي عَالِيَة) و(دَرْبَارِي) تعنى: مقام ومنزلة، وكل شجرة منها هي عندهم: (مقام عالٍ)، وهم يتبركون بهذه الأشجار، ويلوذون بها من شدة الفقر، ولهم أسماء باللغة الأوردية، منها: (غَرِيب)، و: غريب بالأوردية تعنى: (فقير) شديد الفقر، ومنها: (درْفِيش) وهي تعنى: (صوفي) وهي نفس الكلمة الشائعة عندنا لكن

بالواو: (درويش) وجمعها دراویش.

الشاهد هنا أن هؤلاء يمثلون طبيعة الهندي التي تميل دائماً إلى الدعة والهدوء والسكينة، ولا ينبغي أن نقلل من شأن هؤلاء بزعم أنه قد يوجد مثلهم في البلاد الأخرى؛ لأن الهند في ذلك لا يُجاريها بلد آخر، بل ولا يقترب منها، فإن هؤلاء يعدون في الهند بمئات الآلاف، أو بالملايين وهم يمثلون طبقة مميزة عن الآخرين. وهكذا يتبين لنا مما تقدم أن حياة الهدوء والدعة وانتهاج السلبية هي من خصائص الشعب الهندي على اختلاف مشاربه، وتعدد دياناته التي يدين بها، لا يُستثنى من ذلك سوى المسلمين الذين لا يصدق عليهم شيء مما ذكرنا من خصائص الثقافة الهندية، حيث قد حررهم الإسلام من هذه الخصائص التي ترجع في أصولها، وتمتد جذورها إلى العقائد الوثنية التي تتناقض مع دين الله الحق، الإسلام.

الرابعة: سهولة الاعتقاد في الغيبات والانقياد لها دون تفكير:

وهذه من أوضح خصائص الطبيعة الهندية، والتي جبل عليها الهنود جميعاً، لا يشذ عنها إلا ما يقع تحت القاعدة المشهورة: لكل قاعدة شواذ. أما عامة الشعب فقد طبع على الاعتقاد في الأمور المغيبة، حقيقية كانت، أم تقوم على الخرافات والأساطير، أما الحقيقة فتكاد لا تعثر على طرف منها في عقائد القوم التي تقوم على الأساطير والخرافات، والتي تدور جميعها على عبادة الأوثان والأصنام، فكل عقائد القوم - إذن - تقوم على الوثنيات والصنميات وما هو من قبيلها.

واعتقادهم في الأوثان، وعبادتهم وتَدَيُّنهم بها جعل جميع قضايا الغيب التي يؤمنون بها باطلة ضالّة لا حقيقة لها، لكنها - رغم ضلالها - قد وطنتهم على الاعتقاد في أي غيب يعرض لهم، ولو كان من قبيل المحالات، وجعل من اليسير عندهم اعتناق أي دين باطل يعرض لهم، والافتناع بأية فكرة تُعرض عليهم، ومن ثم كثرت عندهم الأوثان، وتعددت الأديان إلى حد جعل من الصعب إحصاءها، وجعل القارئ تقع عينه على مثل هذه العبارة: (إن الهنود لديهم عشرات بل مئات الأديان)، وهذه العبارة رغم وضوح بطلانها، بل واستحالة تحقيقها؛ إلا أنها تعكس تلك الحقيقة التي أشرنا إليها، وهي سهولة اعتقاد الهنود في الغيبات، وسهولة انقيادهم لأية عقيدة تعرض لهم.

الخامسة: كثرة الأديان، وتداخلها، والخلط بينها:

وهذا العامل ليس جديداً تماماً، بل هو نتيجةٌ طبيعيةٌ للعامل السابق الذي يُبين أن الهندي يُقبل على اعتناق العقائد التي تعرض له، ويؤمن بها بسهولة ويسر، وقد يؤدي به ذلك إلى كثير من الخلط والتناقض، دون أن يشعر هو بذلك، أو يجد في ذلك غضاضة، ولعل من الأوفق أن نشير هنا إلى بعض ما يترتب على ذلك من أمور قد تكون غريبة عند البعض، أو مستحيلة، لكنها ليست كذلك عند الهندي، وأهمها:

- ١ - كثرة التناقضات والضلالات، ووضوح الفساد والخلل في الدين الذي يعتنقه الهندي ما دام ديناً وثنيّاً، وكل أديان الهنود وثنية، عدا من اعتنق منهم الإسلام.

وهذا يعني: أن الهندي قد يعتنق ديناً واحداً، مثل الهندوسية، ولكن هذا الدين تجده مليئاً بالتناقضات، غاصاً بالمحالات البديهية، ومع ذلك يعتنقه الهندي بإخلاص شديد، ولا يجد في ذلك غضاظة، أو مشكلة، ولا يحرك فيه ذلك شيئاً من التساؤل، أو الاعتراض.

٢- كثرة الخلافات بين الهندود بعضهم مع بعض في الدين الذي يؤمنون به؛ فالدين قد يكون واحداً كالبودية، أو الهندوسية، ويكون أتباع الدين كثيرين يعدون بمئات الملايين، لكنهم جميعاً لا يجتمعون في دينهم إلا على العقائد الأساسية، أما ما عداها فنجد كثيراً من الخلافات بين أتباع هذا الدين الواحد.

حيث يتوجه الكثيرون بعبادتهم إلى آلهة ومقدسات تختلف عما عليه إخوانهم في الدين، فالهندوسي قد يعجبه - على سبيل المثال - تمثال لبوذا وقد يشعر بخطر وأهميته فيتوجه إليه بالعبادة ويضمه إلى معبوداته في الهندوسية، كذلك قد يشعر بميل شديد نحو تمثال لجينا فيعبده، وهكذا تتعدد لدى الهندي الآلهة سواء في دينه الذي يدين به، أو في دين آخر يقبل على عبادة آلهته دون أي حرج مع الاحتفاظ بآلهته في دينه الأصلي.

٣- الآلهة والمقدسات:

اتضح مما قدمنا أن الهندي قد يؤمن بدين واحد، لكنه لا يرتبط بحدود ثابتة فيما يتصل بهذا الدين، بل يقف فيه عند العقائد الأساسية، كما يقف الهندوسي عند الإيمان بالآله الأكبر (براهما)، أو بالآلهة الثلاثة: (براهما - سيفا - فشنو)،

لكن الهندوسي فيما عدا ذلك يسير أسيرًا لمشاعره وأحاسيسه الداخلية، فقد يشعر بميل إلى آلهة أخرى لدى أديان أخرى فيؤمن بها ويتوجه إليها بالعبادة، ومن هنا يصبح أصحاب الدين الواحد مختلفين من حيث المعبودات، يعبد بعضهم آلهة لا يعبدها الآخرون.

لكن الأمر لا يقف عند هذا الحد، بل يتعداه إلى نوع آخر من المعبودات التي يتقرب إليها الهندي، وهى ما يطلقون عليه عند مؤرخي الأديان مصطلح (المقدسات)، فالمقدسات أشياء ليست بآلهة، ولكنها ذات منزلة قريبة من منزلة الآلهة، لكنها لا تعد منها، بل هي أقل شأنًا من الآلهة، ومن ثم فهي لا تُعبد، ولكن يتقرب إليها الناس بنوع من التقديس والتعظيم، ويلتمسون منها البركة، ويرتبون على تعظيمها حصول الكثير من الخير والبركة والمنفعة.

وفي كثير من الأحيان تختلط الأمور عند الهندي فلا يفرق بين بعض المقدسات والآلهة فيتعبد لبعض المقدسات كما يتعبد لبعض الآلهة.

والمقدسات عند الهندي نوعان:

الأول: مقدسات عامة:

وتلك يشترك في تقديسها الشعب الهندي كله، على اختلاف دياناته وعقائده، حتى الملحدون- وهم شواذٌ في هذه البلاد- والمثال على ذلك: (البقرة)، فهي مقدسة لدى الهنود بكافة طوائفهم ودياناتهم لا يشذ عن ذلك حتى الملاحدة، والمثال على ذلك أيضًا: (نهر الجانج) المقدس عند الهنود، والذي ينثرون به رماد موتاهم بعد عملية حرق أجسادهم.

فتلك مقدسات عامة يُجلُّها ويقَدِّسها عامة الشعب، ويتبركون بها، ويلتمسون منها جلب الخير، ودفع الشر، والمثال الواقعي الصارخ على هذا، والذي لا ينساه الناس: أن (أنديرا غاندي) رئيسة وزراء الهند لسنين طويلة، والمرأة القوية بالهند، كان قد حكم عليها بالسجن ثلاثة أشهر لأموار ارتكبتها. حين خرجت من السَّجن واستقبلها عشرات الآلاف من أعضاء حزبها- حزب الشعب- الذي كانت ترأسه لا ينسى الناس أن أول شيء فعلته أن ذهبت إلى إحدى زرائب البقر التي يحتفظون فيها بأبوال البقر في خَزَّانات خاصة لمن يريد أن يشرب، أو ينثر على نفسه، أو يحمل معه إلى بيته من هذه الأبوال. ذهبت أقوى امرأة بالهند كلها، وحولها الجموع الغفيرة إلى إحدى هذه الزرائب، ثم أخذت من أبوال البقر وشربت حتى تضرَّعت؛ أي: تحركت أضلاعها من كثرة ما شربت، ثم نثرت من هذا الماء على جسدها، وغسلت رأسها ووجهها، وكذلك اقتدى بها كبار رجال ونساء حزبها حتى نفذ الماء النفيس فلم يجد الباقون ما يشفى غلتهم.

الثاني: مقدسات خاصة:

وهذا النوع من المقدسات يتحقق في أشياء لا تكاد تحصى، وهي مقدسات فردية خاصة- كما ذكرنا قبلاً- وهذا يعني أنها ترجع إلى الأشخاص، وليس إلى الجماعة، فكل شخص له من المقدسات الخاصة به ما ليس للآخر، والسبب في هذا أن هذه المقدسات الفردية ترجع إلى ظروف كل شخص على حدة، فقد يرى أحد الأشخاص أن الشجرة التي أمام بيته تمده بثمارها فيأكل هو وأولاده،

وهي تظله وتظل بيته من حر الشمس، وتمده - كذلك - بالأغصان الجافة التي يستعملها وقودًا لناره، ثم هي تمد حيواناته بأوراقها وأغصانها تتغذي عليها، وقد بقيت سنين طويلة على ذلك وما تزال، من هنا تصبح هذه الشجرة مقدسة معظمة عند الرجل وأهله، وقد يعتقد بحلول بعض الأرواح فيها، فيزداد تقديسه إياها ويعظمها، ويقدم لها كافة صور التعظيم والتقديس، وقد يحيط جذعها بسور من الطين، ويعلق على أغصانها أنواعًا من الأقمشة زاهية الألوان. وقد يقدس الهندي كومة من القش أمام بيته، أو بئرًا تمده بالمياه إلى غير ذلك من أشياء كثيرة لا تكاد تحصى، يرجع تقديس الهندي إياها إلى ظرف خاص، أو حدث بعينه، أو أمر له اعتباره عنده، وقد ضربنا مثالًا بالشجرة تحديدًا؛ لأنها الأكثر انتشارًا من المقدسات عند الهنود عامة، وبخاصة الأشجار الكبيرة الضخمة المعمرة، فأنت لا تمر بمكان في بلاد الهند لا يستثنى من ذلك باكستان وبنجلاديش - البلدان المسلمان - إلا وتجد تلك الأشجار الكبيرة يجلس بجوارها بعض الفقراء يرتزق مما يقدمه الناس لهذه الشجرة المقدسة التي يطلق عليها عندهم اسم: (درباري عالية)، أي: مقام عالٍ، وكما بينا أن المقدسات كثيرة، ويختص كل فرد بمقدسه، أو مقدساته الخاصة غير أن الشجرة القديمة المعمرة هي أشهرها وأعمها.

٤ - التمييز بين الآلهة والمقدسات:

قد بينّا أن المقدسات كثيرة، وحتى لا يختلط الأمر بين المقدسات والآلهة المعبودة، وبخاصة ما كان من المقدسات عامًّا، أو ما كان خاصًّا لكن يحتل

مكانة هامة، وينتشر لدى قطاع كبير من الشعب.

نقول: حتى لا يختلط الأمر بين المقدسات والآلهة، فقد اهتم رجال الدين الهنود من عهد قديم، وفرقوا بين ما هو إله، وما هو مقدس، والآلهة التي استقرت عليها آراؤهم هي الثلاث الشهير عندهم: (براهما- سيفا- فشنو)، فهذه هي الآلهة.

أ- براهما: وهو الإله الخالق، ويسمى: (برام أتما Bramatma)؛ أي: الذات السامية المقدسة المعبودة، وسوف يأتي الكلام وافيًا عنه- بحول الله.

ب- سيفا، أو شيفا: وهو الإله المدمر، وسيأتي الحديث عنه- بحول الله.

ج- فشنو، أو وشنو: وهو الإله الحافظ، وستكلم عنه فيما يلي- بحوله تعالى- ومنذ عهد بعيد استقرت عقائد الهنود- الهندوس أولاً، ثم بقية أصحاب الديانات الأخرى بعد ذلك- على هذه التفرقة، فالآلهة تعبد وتحتل مكانة أسمى وأعلى من المقدسات الأخرى، والآلهة محددة، ومتعينة، ومعروفة، ومتفق عليها، وللآلهة رجال دين يقومون على خدمة معابدها، ويبينون للناس طرقوس التعامل معها، والتقرب إليها.

أما المقدسات عامة وخاصة فليس لها شيء من ذلك سوى أن لها مكانة مميزة عند أصحابها، كما أن الآلهة كذلك مقدسة، لكن تقديسها يعلو ويسمو عن تقديس تلك المقدسات.

يبقى أن نبين أن هذه التفرقة بين المقدسات والآلهة قد استقرت عند اتباع الديانة الهندوسية، باعتبارها الديانة الأقدم في الهند، ثم تابع الهندوس في هذا

التقسيم البوذيون، والجينيون، وغيرهم ممن أتت دياناتهم بعد الهندوسية وانبثقت منها، وتابعتها في الثقافة الهندية العامة، وإن خالفها في الديانة وما تقوم عليه من آلهة.

٥- خلاصة القول أن الهند بلاد يغلب على أهلها العاطفة الدينية، ويندر فيها الإلحاد؛ لذلك كثرت فيها الأديان وتعددت.

وهي بلاد يغلب على أهلها طابع الوهم والخيال، ويسهل إيقاعهم تحت الإيحاء، لذلك غلب عليهم الخضوع لما يسمى بالقوى الغيبية التي لا تمت إلى الحقيقة بصلة، بل هي قوى أبدعتها الأساطير والخرافات التي تؤله قوى الطبيعة، وتقّس الكثير من الحيوانات المؤثرة في حياة الإنسان مثل البقر، والنمور، والحيات، وحتى القردة والجرذان.

لذلك اشتهر الهنود بالتدين من قديم، وقد مروا في تدينهم بما مرت به كثير من الشعوب التي انحرفت عن عبادة الله الحق إلى عبادة الطبيعة بعناصرها المختلفة، من شمس، وقمر، ورياح، وعواصف، وأمطار، كما عبدوا النار والسماء والأرض والماء والجنس، وقد جعلوا لكل مظهر من هذه المظاهر الطبيعية إلهًا، أو صنمًا، أو طوطما يمثله ويجسده.



المبحث الثاني

المعبودات القديمة للشعوب الهندية

قد سبق وذكرنا بعض الآلهة التي عبدها الهنود قديمًا قبل دخول الآريين إلى الهند ويحسن أن نذكر هنا ثبًا بأهم الآلهة التي كان الهنود يدينون بها ويعبدونها قبل أن يدخل الآريون بلاد الهند غازين، ويتغلبوا عليها، ثم يغيروا من عقائدها، ذلك التغير الذي تمخض عن الديانة الهندوسية بآلهتها وأربابها المعروفين.

وأهم الآلهة التي كان يعبدها الهنود - قبل الغزو - مع بيان ما يمثله كل منها من ظواهر الطبيعة ما يلي:

١ - فارونا، أو: وارونا^(١):

وهو إله السماء، أو هو السماء نفسها، وقد جعلوا السماء (أبًا)، وجعلوا الأرض أمًا، وقد أخذوا ذلك من كون السماء تلقح الأرض بالمطر، فتلد الأرض النبات والثمار.

٢ - برينيفي:

وهو إله الأرض، أو هو الأرض، وقد ينطقونه: (برينيوى).

٣ - بارجانيا:

إله المطر، والمياه، والأنهار، والفيضانات وما أكثر وقوعها بالهند!

(١) اللسان الهندي يخلط بين الفاء والواو، فينطق الفاء واوًا، وقد يعكس، فيقول عن الإله (فشنو): (وشنو)، ويقول عن: (وارونا): (فارونا)، والعكس، ويقول عن (Seven) في الإنجليزية: (Sewen).

٤- أوشاس، أو: أوشا:

إله الفجر، أو إله الشروق، وقد عبر به عن النهار، أو عن الصباح تحديداً.

٥- أجنى، أو: أغنى:

إله النار، وقد يعبر به عن شدة القيظ في الصيف.

٦- أنديرا:

إله الرعد، وهو الذي يسبب الأمطار حيث كانوا يعتقدون أن الرعد هو سبب المطر، وقد أصبح لهذا الإله فيما بعد شأنٌ عظيم فوق الآلهة الأخرى، عدا إله الشمس، ونسبة إلى هذا الإله سميت (انديرا غاندي) أشهر رئيسة وزراء بالهند، وكانت أقوى امرأة في القارة، أو شبه القارة.

٧- رودرا:

إله العواصف، والأعاصير، والزوابع.

٨- سيتا:

هو الإله الذي يتولى ريّ الزرع بالمياه، فهو مُجري المياه في الحقول.

٩- سوما:

إله النبات والثمر المقدس الذي يسكر عصيره كل الناس، ويسكر كذلك الآلهة، وهو شجرة الكرم، أو العنب.

١٠- فايو، أو وايو، أو: واتو^(١):

إله الرياح، ويتضح لنا أن إله الرياح هو غير إله العواصف والزوابع، فإن إله

(١)، (٢) بينا أن الهنود يخلطون بين حرفي: الواو والفاء؛ لذلك يقولون: فايو، أو: وايو، ويقولون: وشنو، أو فشنو، فالحرفان ينوب أحدهما عن الآخر في لغة الهند القديمة، وكذلك في الأوردية، وهي لغتهم الحديثة.

الرياح إله خير وصلاح ومنفعة، أما إله الأعاصير والعواصف المسمى: (رودرا) فهو إله تخريب وتدمير، وتنتشر عبادته والتقرب إليه خوفاً منه، ودفعاً لشره.

١١ - براجاباتى أو: سوريا، أو: ساوترى، أو: بوشان، أو وشنو، أو فشنو:

والمراد بكل هذه الأسماء هي: الشمس، فكل هذه الأسماء عند الهنود قديماً إنما هي لإله واحد هو: الشمس، وقد بينا قبل ذلك أن الشمس بعد تطور وتقدم نوعي أصبحت لدى الهنود في عهد قديم نسبياً هي كبيرة الآلهة، وأضحى هي مانحة الحياة والخلق، وقد أطلق الهنود عليها هذه الأسماء باعتبارات متعددة تبعاً لتعدد وظائف الشمس، وأوضح هذه الوظائف التي أسندوها إلى الشمس ما يلي، مع ذكر الاسم الخاص بتلك الوظيفة، فهي:

١٢ - ساوترى:

ويراد بهذا الشمس باعتبارها مصدرًا للنشاط والانتعاش.

١٣ - بوشان:

وهي الشمس باعتبارها مؤثرة في نمو المزروعات من الحشائش والأشجار والنباتات.

١٤ - مترا:

وهو اسم الشمس باعتبارها ساكنة السماء، أو ابنة السماء، فهي ابنة: (فارونا).

١٥ - سوريه، أو سوريا:

وهو اسم الشمس الذي يعبر به عنها لذاتها دون تخصيص وظيفة بعينها.

١٦ - براجاباتى:

وهو اسم الشمس لجميع وظائفها، والمعبر عنها بذاتها، فهو شبيه باسم:

(سوريا) الذي يذكر الشمس باعتبارها معبودة لذاتها.

١٧- وشنو، أو فشنو: وهو إله النائب عن الشمس.

وهذا الإله كان وجوده ضروريًا في الفكر الهندي؛ نظرًا لأن الشمس تغيب ليلاً، ولأن وظائفها ضرورية وخطيرة، فقد أصبحت الضرورة ملحة لوجود إله آخر ينوب عنها ليلاً في حال غيابها، أو غروبها، ومن ثم كان (وشنو) النائب عنها. وسوف يأتي فنعرف أن (فشنو) هذا قد أصبح بعد مرور وقت طويل، وتطور في الفكر الديني الهندي، أصبح إلهاً قائماً بذاته، وأصبح يعبد مستقلاً، بل إنه أصبح أحد الثلاثي المشهور الذي استقرت عليه العقيدة الإلهية في الهندوسية، وهؤلاء الثلاثة هم: (براهما - فشنو - سيفا)، وهذا الثلاثي هو الإله المعبود في الهندوسية، وسيأتي الحديث عنه تفصيلاً - بحوله تعالى - عند الحديث عن الذات الإلهية في الهندوسية.



البَابُ الثَّانِي

عقائد الديانة الهندوسية، ومصادرها المقدسة والتبعية

الفصل الأول: عقائد الديانة الهندوسية، ومصادرها المقدسة

الفصل الثاني: المصادر التبعية لعقائد الديانة الهندوسية

الفصل الأول

عقائد الديانة الهندوسية، ومصادرها المقدسة

المبحث الأول: عقيدة الألوهية في الديانة الهندوسية

المبحث الثاني: الذوات المقدسة في الديانة الهندوسية

المبحث الثالث: الهندوسية بين التوحيد، والتثليث، ووحدة الوجود

○ المطلب الأول: الهندوسية تقول بالتوحيد

○ المطلب الثاني: الهندوسية تقول بالتثليث

○ المطلب الثالث: الهندوسية تقول بوحدة الوجود

○ المطلب الرابع: وحدة الوجود في الهندوسية الحديثة

المبحث الرابع: عقيدة الألوهية في واقع الهندوس

المبحث الخامس: عقيدة الألوهية عند الهندوسي العامي

المبحث السادس: نشأة الكون في الديانة الهندوسية

المبحث السابع: الفوارق التطبيقية في الديانة الهندوسية

المبحث الثامن: عقيدة التناسخ في الديانة الهندوسية

المبحث التاسع: عقيدة الكارما (الجزاء) في الديانة الهندوسية

المبحث العاشر: الانطلاق للاتحاد ببراهما في الديانة الهندوسية

المبحث الحادي عشر: المصادر المقدسة في الديانة الهندوسية

○ تمهيد

○ المطلب الأول: الفيدات (Vidas)

○ المطلب الثاني: قوانين مانو

المبحث الأول

عقيدة الألوهية في الديانة الهندوسية

الذات الإلهية هي الركيزة الأساسية في أي دين من الأديان، صحيحًا كان ذلك الدين أو فاسدًا، حقًا أو باطلًا، فالإيمان بالذات الإلهية هو الأساس الأول في الدين عند جميع المتدينين؛ ولذلك كانت هذه العقيدة هي القاسم المشترك بين الأديان جميعًا، حقها وباطلها على سواء.

والهندوسية ليست بدعًا في هذا، فهي دين من الأديان التي يكثر أتباعها، ويتشرون في بقاع كثيرة من بقاع القارة الكبرى آسيا، وإذا كانت الهندوسية ليست بدعًا في الاعتقاد، أو الإيمان بذات إلهية خاصة بها؛ فإنها - يقينًا - بدع وعجب في تلك الذات التي تؤمن بها، بل وفي تكييفها لتلك الذات، وفي جميع ما تعتقده فيها.

والهندوسية تتراوح عقيدتها في الذات الإلهية التي تؤمن بها بين ثلاثة أحوال تعبر جميعها عن الذات الإلهية في الهندوسية، فهي - إذن - ذات إلهية. لكنها تظهر في عقائد المنتسبين إليها وهم الهندوس بثلاثة مظاهر، أو أحوال، وهذه الأحوال ليست ترجع إلى الذات الإلهية في حقيقتها، لكنها ترجع إلى المعتقد، أو الهندوسي المؤمن بهذه الذات، فهو الذي تتعاوره تلك الحالات في اعتقاده بالذات الإلهية حسب ما يعرض له هو من أحوال، وليس ما يعرض للذات

الإلهية، وهذه الحالات الثلاثة هي:

الحالة الأولى: أن الإله، أو الذات الإلهية ليس شخصًا محددًا، وليس ذاتًا تدرك مثل الذوات، بل هو غير محدد، هو أصل الموجودات كلها، بل هو مُنشئ الوجود وأصله، والوجود كله، والكائنات جميعها تستمد منه وجودها واستمرارها، والهندوسية من شدة تجريدتها للإله، وتقديسها إياه، ومحاولة جعله رمزًا غير محدد إنها بسبب هذا تكاد تجعل هذا الإله مجرد فكرة، أو معنى من المعاني المجردة التي يصعب حصرها في ذات محددة.

الحالة الثانية: أن الإله في الهندوسية هو ذات محددة مشخصة مدركة بالعقل، مصورة في تمثال، موضوع في معبد، وهذا الإله: (براهما Brahma)، هو خالق العالم وموجد الكائنات، ومنه تأتي كل الموجودات، وتنشق كل النفوس، وإليه - في النهاية - يعود كل شيء، وهو في هذه الحالة الثانية يخاطب كشخص موجود محدد، وذات مشخصة، وله صلوات تقدم إليه، وأذكار تتلى من أجله، وهو في هذه الحالة الثانية محدد مشخص، مدرك بذاته وشخصه، وإدراكه بالعقل في كل الأحوال.

الحالة الثالثة: أن الإله هو واحد من ثلاثة آلهة يمثلون الثالوث المقدس في الهندوسية، فالألوهية في الهندوسية تقوم على ثلاثة آلهة، والمعبود فيها ثالوث مقدس مكون من:

١ - براهما - الإله الخالق.

٢- سيفا، أو (شيفا) - الإله المهلك، أو المدمر.

٣- فشنو، أو (وشنو) - الإله الحافظ.

والهندوسية في توضيح هذا الثلاث وبيان حقيقته لها تخطات وتناقضات، وهم يوضحون هذه العقيدة الثلاثية ويشرحونها بطريقتين متعارضتين كل واحدة تعارض الأخرى، وهاتان الطريقتان هما:

الطريقة الأولى:

يزعمون فيها أن الإله واحد، وليس ثلاثة، وأن الثلاثة ليسوا آلهة ثلاثة، بل هي وظائف ثلاث للإله واحد، أو أسماء ثلاثة لمسمى واحد، فالإله هو:

١- براهما - من حيث هو موجود وخالق.

٢- فشنو - من حيث هو حافظ.

٣- سيفا - من حيث هو مهلك ومدمر.

والحقيقة هنا: أن الإله واحد، وليس ثلاثة، وأن الإله الواحد له وظائف وأعمال متعددة وقد أطلق عليه عابدوه المؤمنون به ثلاثة أسماء يختص كل اسم بوظيفة من وظائفه، أو عمل من أعماله الكبيرة والخطيرة بالنسبة للموجودات، وهي: الإيجاد - والحفظ - والإهلاك، ولم يضع له عابدوه أسماء تدل على أعماله الأخرى كالإغناء والإفقار، والأمراض والشفاء، أو غير ذلك لما أنها أقل شأنًا من هذه الأعمال الثلاثة، والثلاثة أعلاها وأخطرها، إضافة إلى أن الأمور كلها تعود إلى هذه الثلاثة.

الطريقة الثانية:

يقررون فيها أن الآلهة ثلاثة، وأن الأمر ليس متعلقاً بوظائف لإله واحد، بل بثلاثة آلهة لكل إله عملٌ منوطٌ به القيام به، والحرص عليه، فهم ثلاثة آلهة كل إله قائم بذاته، منفصل عن الآخرين مستغرق في عمله الذي يختص به دون الآخرين، فبراهما عمله الخلق والإيجاد لا غير، وفشنو عمله الحفظ والعناية بما أوجده براهما لا غير، وسيفا عمله الإهلاك والتدمير لما أوجده براهما، ولا عمل له غير ذلك، وهذه محصلة الطريقة الثانية التي نرى أنها أوضح، وأكثر قبولاً من الطريقة السابقة عليها؛ لأن القول بالتثليث أشهر وأظهر وأوضح من القول بالوحدانية، وما يطيف بها من تأويلات لا تثبت عند التحقيق.

على أن ثمة قصصاً وأساطير تؤكد هذا المعنى الثاني، أو الطريقة الثانية، وهي التي تثبت التثليث في عقيدة الهندوسية، ومنها تلك الأسطورة التي وردت في (الفيدا)، أو (الويدا) كِتَابِهِم المقدس، والتي تقول: «إن براهما خلق الوجود، ثم خلق الموجودات وتركها تتناسل وتتزايد، ولم يكن قد قَدَّرَ عليها الموت، من ثم تكاثرت الموجودات بشكل ضاقت عنها الأرض، وفكر براهما في حل، وكان الحل يتمثل في أنه خلق إلهاً آخر عمله أن يهلك ويدمر الموجودات ليتسع الوجود ويستوعب ما بقي منها، فلما أوجد براهما الإله سيفا وجعل وظيفته تدمير وإهلاك الموجودات؛ عمل سيفا بكل قوته على إهلاك الموجودات، حتى كاد يقضي على جميع الكائنات التي خلقها براهما ولا يُبقي منها على

شيء، هنا فكر الخالق براهما في حل لهذه المشكلة التي نتجت عن خلق سيفا والتي تمثلت في إهلاكه كل شيء حتى أوشك أن يقضى على الكائنات، وقد وجد الإله براهما الحل في أن يخلق إلهاً آخر مهمته مقاومة عمل سيفا، والحفاظ على الموجودات، وبذلك اعتدل الميزان، وتكافأ عمل الإلهين: سيفا، وفشنو، حيث يهلك الأول، ويحفظ الثاني، واستقام الأمر».

وهذه الأسطورة تدل بوضوح شديد على أمور:

الأول: أن عقيدة الألوهية في الهندوسية تقوم على ثلاثة آلهة، ليس واحداً ولا اثنين، بل ثلاثة هم: براهما وهو الخالق، ثم سيفا، وهو المهلك، ثم فشنو، أو وشنو، وهو الحافظ.

الثاني: أن الأول وهو (براهما) كان وحده، ثم أوجد الاثنين؛ الثاني: سيفا، والثالث: فشنو، فهما مخلوقان له، ومن صنعه وخلقه، فهما ليسا على مستواه، ولا هما مثله.

الثالث: أن براهما قد خلق كلا منهما لوظيفة بعينها، وسخره لها، وربطه بها، ووقفه عليها، فلا يملك واحد منهما أن يتخطى تلك الوظيفة المحددة، ولا أن يخرج على مقتضاها زيادة، أو نقصاً، أو تغييراً.

والسؤال هنا: هل يعتبر الاثنان مثيلين لبراهما، مناطحين له في الألوهية، بحيث يمكن أن نتغاضى عن كونهما مخلوقين له، وكونه خالقاً لهما؟ وبذلك تكون الألوهية في الهندوسية قائمة على ثلاثة آلهة، ويمكن أن يقال: إن الثلاثة

متساوون في الألوهية والمنزلة والتأثير، أو بمعنى آخر: إن الثلاثة منهم كبير هو الأول- براهما- والاثنان الآخران أقل منه رتبة ومنزلة، لكنهما يساويانه في صفة الألوهية، وكذلك في صفة التأثير، بل ربما يزيدان عنه في التأثير على البشر، مما يجعل البشر أكثر اهتمامًا بهما، وتقديسًا لهما، ليس لأنهما أعظم من الأول- براهما- بل لأن صلتهما بالبشر أوضح وأشهر، وتأثيرهما على البشر- كذلك- أكبر وأظهر.

هذا هو الشق الأول من السؤال، أما الشق الثاني منه فهو: هل يعتبر الاثنان مثل كل المخلوقات التي خلقها براهما، فهما ليسا مثيلين له في الألوهية، بل هما مثيلان لجميع المخلوقات التي خلقها براهما، فمزلتهما عنده منزلة المخلوقات وإن تميزا عنده بمنزلة أعلى وأسمى من جميع المخلوقات، وقضية التميز هذه لا ينبني عليها شيء، من حيث إن كل المخلوقات ليست على مستوى واحد عند الخالق- براهما- بل هناك تمايزات كثيرة، وتفاضلات عديدة بين أنواع الموجودات، ولم يترتب على أي تميز من هذه مهما بلغ قوة وشهرة أن انتقل بصاحبه من مرتبة المخلوقات إلى مرتبة الألوهية.

والجواب على هذين السؤالين، أو على السؤال ذي الشقين لا نأخذه اجتهادًا، ولا استنباطًا بحيث يمثل وجهة نظر، ولكننا نأخذه من واقع الأمر عند الهندوسيين أتباع الهندوسية، ومعلوم- بداهة- أن واقع أمرهم مع قضايا دينهم وأهمها الألوهية لا يقوم على فلسفة، أو اجتهاد، أو وجهة نظر، ولكنه يقوم على

تقليد أخذه الأبناء عن الآباء، وقضايا الدين قد أمنت الاجتهاد والتفلسف حين تخطت مستوى التفكير العقلي، إلى مستوى العاطفة والشعور الوجداني، فأضحت هي التي تحرك صاحبها، وتتحكم فيه، وتُسَيِّرُه، وليس هو الذي يتحكم فيها، أو يملك من أمرها.

وحين نصل إلى هذا نقرر: أن واقع الأمر عند الهندوس أن قضية الألوهية عندهم تقوم على أمور، أهمها:

١- أن (براهما) هو الإله الأصل، والأكبر، والخالق، والموجد كل شيء سواه، وأنه الأقدم، وأنه كان ولم يكن معه شيء.

٢- أن (براهما) خلق الوجود كله، وأنه خلق النور في الظلام، والماء في العماء، أو الخلاء، ثم خلق العالم على الهيئة التي تذكرها أساطير الفيدا- وسنشير إلى ذلك في محله- بحوله تعالى.

٣- أن (براهما) هو الذي خلق الإلهين الآخرين: (سيفا وفشنو)، فهما لم يكونا، ثم كانا، بمشيئة وخلق براهما.

٤- أن الهندوس يؤمنون بآلهة ثلاثة: براهما الخالق- وسيفا المهلك- وفشنو الحافظ.

٥- الثلاثة عندهم ليسوا على مستوى واحد، فبراهما أكبرهم وأعظمهم وهو خالقهم وموجدهم، والاثنان الآخران مخلوقان له، فهو أعظم منها وأسمى وأقدس.

٦- من جانب آخر، وهو جانب العلاقة والتأثير، نجد أن الهندوس يقيمون علاقاتهم الوثيقة، وعباداتهم وقرابينهم للإلهين: (سيفا، وفشنو) أكثر وأوضح مما يفعلون لبراهما، ذلكم أن علاقة الإلهين وأثرهما في الهندوس أقوى وأوضح من علاقة براهما بهم، ومن الواضح أن الناس يقيمون علاقاتهم مع الإله، أو الآلهة على مستوى النفع والضرر، وعلى قدر ما يملك الإله للناس من نفع يصلهم به، أو ضرر ينجيهم منه.

٧- لذلك نجد أن واقع الهندوس بالنسبة للذات، أو الذوات الإلهية يتضح بشكل مفصل فيما يأتي:

آلهة الهندوس:

أولاً: براهما^(١):

الإله الأكبر، الخالق، المدبر للوجود كله، سواء بنفسه، أو بغيره، وهو الأكثر قداسة وتعظيمًا، تصل قداسته عند عابديه إلى حد أن ينكروا شخصه، ويعتبرونه رمزًا للألوهية، وهو سر الوجود، الروح السارية في الوجود كله، ولأنه رمز وليس مشخصًا فإنهم يتجنبون وصفه بالصفات الإيجابية، على اعتبار أنها تؤدي إلى التحديد والحصر والتشخيص؛ لذلك يسمونه (أتما ATMA) وهي كلمة

(١) وإليه تنسب الديانة، فيقال: الديانة البراهمية، وينسب رجال الدين الهندوس، فيسمون:

(البراهمن).

سَنَسِيكْرِيْتِيَة قديمة تعني: (الروح السارية في الوجود)، أو (الروح غير المرئية المحركة للوجود)، وهم يعنون بإطلاقها على (براهما): أنه الروح السارية في الوجود، المدبرة والمحركة والخالقة للوجود، التي لا ترى ولا تدرك؛ لذلك يكثر أن يطلقوا على (براهما): (برام آتما BRAM ATMA).

وبراهما هو الإله الرحيم الودود العطوف الذي يلجأ إليه الهندوسي عند الشدة، والهندوسي عندما يلجأ إلى براهما فإنه يلجأ إليه كما يلجأ الولد إلى والده؛ لأنه يشعر أنه جزء منه، أو بعض عنه، وأن براهما مسئول عنه، وذلك راجع إلى عقيدة الهندوسية التي تقرر:

أن العالم جزء من براهما، وأنه قد خلق العالم جزءاً، أو بعضاً منه، كما يتضح ذلك من أسطورة خلق العالم التي تقرر أن براهما خلق الماء، ووضع فيه بيضة أخرج منها العالم، وأن هذه البيضة لم يكن فيها إلا صورة براهما نفسه، وهي التي تحولت إلى العالم فيما بعد، وسوف نفصل الكلام عن هذه الأسطورة عند الكلام على عقيدة الهندوس في خلق العالم - بحوله تعالى - كما تقرر الهندوسية أن النفوس البشرية هي جزء من براهما خرجت منه، وتعود في النهاية إليه عند (الانطلاق).

وهذه العقيدة هي نفسها التي توضح لنا أن الهندوسية تقوم على (وحدة الوجود) حيث إن براهما كان وحده، ثم خلق العالم من بيضة كان هو نفسه فيها، ثم خلق النفوس من نفسه، وحين تنتهي دورة كل نفس وتنطلق تذهب

فتتحد به من هنا كانت وحدة الوجود عقيدة الهندوسية التي تسيطر على مشاعر الهندوسي تجاه آلهته جميعًا، وتحديدًا تجاه كبيرهم (براهما).

وتصور الديانة الهندوسية الصلة بين براهما والنفوس البشرية التي تصدر عنه، ثم تعود إليه وتتحد به؛ بالمحيط الذي يمتلئ بالماء، وحين تسلط الشمس على المحيط يتحول بعض مائه إلى بخار، ويصعد إلى أعلى، ثم يتكثف في السماء سحبًا، ثم يهطل على المحيط مطرًا، فيعود الماء الذي تبخر منه قبل ذلك إليه، فيقولون: أخذ الماء دورته في الحياة، خرج من المحيط وساح في الوجود الأرضي ما قُدِّر له أن يسيح، ثم عاد إلى المحيط فاتحد به آخر المطاف. يقولون: كذلك النفوس البشرية تخرج من براهما، وتعيش دوراتها في الحياة، ثم تعود فتتحد بأصلها براهما، وهكذا الوجود كله ينفصل عن براهما، ويدور في الوجود على قدر ما يدور، ثم يعود فيتحد ببراهما، فبراهما هو أصل الوجود، وهو سرُّه ومدبره، والوجود كله منه وإليه، سواء كان متصلًا به، أو منفصلًا عنه، وهذه هي عقيدة وحدة الوجود.

ورغم أن براهما هو الإله الخالق المدبِّر، وأنه خالق الوجود، وخالق الإلهين: (فشنو، وسيفا)، إلا أن الهندوس ينصرفون عن عبادته، ولا يُعنى بعبادته إلا القليلون، كذلك فإن المعابد الخاصة به فقط لا يزيد عددها الآن على خمسة عشر معبدًا في بلاد الهند كلها، بينما معابد الإلهين الآخرين سيفا وفشنو تعدُّ بالعشرات، وقد يقال - في تعليل انصراف الناس عنه: إنه بعد أن خلق العالم

وكل أمر فنائه إلى سيفاً، وأمر حفظه إلى فشنو؛ قد اعتزل وتنحى عن الاشتغال بالعالم، واكتفى بعزلته؛ لذلك كثيراً ما يرسمونه راكباً (أوزة برية بيضاء) رمزاً لوحده ووحشته، وأحياناً يرسمونه شخصية ملكية عظيمة ذات أربعة رؤوس، جالساً يقرأ في أسفار الفيدا- كتاب الهندوسية المقدس - وحتى مع ندرة المعابد التي أقيمت لتكريمه فإن الناس منصرفون عنها، فلا يؤمُّها إلا القليل.

ثانياً: سيفاً:

الإله المهلك، المدمر، المهذّب، القاتل لم يكن موجوداً، لكن براهما الخالق، قد خلقه ليخفف من تراحم المخلوقات وكثرتها التي أعجزت العالم الأرضي عن استيعابها تقول أسطورة الخلق في الفيدا: «إن براهما قد خلق الخلق من بشر وحيوان وحشرات، ولم يخلق ما يميتهم، فتكاثروا سريعاً، يتوالدون ولا يموتون، حتى ضاق الوجود الأرضي عنهم، وكاد يقتل بعضهم بعضاً، ففكر براهما في حلٍّ يخفف من ازدحامهم، ويقلل من كثرتهم. من ثم خلق الإله سيفاً وجعل عمله هو إهلاك الموجودات وتدميرها حتى يخف تراحمهم، وتتسع الأرض لهم؛ لذلك كان سيفاً هو المهلك والمدمر، وكان من وسائله إشاعة الأمراض، ونشر الأوبئة، وإشعال الحروب، والزلازل، والبراكين والفيضانات، وكل ما هو مؤد إلى القتل والموت والهلاك:

والناس من أجل ذلك يقدسونه ويعظمونه، ويلبسونه الملابس الجميلة، ويقلدونه القلائد في عنقه، والأقراط في أذنيه من أحسن ما يملكون على قدر

طاقاتهم دفعًا لضرره، وانتقاءً لشهره، وهم يصنعون له التماثيل التي تظهره قوى البنية، رياضيَّ الجسم، مخيف الهيئة، تحيط به الثعابين والحيات، يتقلد قلائد من الجماجم، وله أيادٍ كثيرةٌ، ورؤوس متعددة، وتماثيله ليست على شاكلة واحدة، بل يشكل فيها الفنّان الهندي حسب خلفية الرعب والفرع من هذا الإله المدمر».

ومن العجيب: أن الهندوس يطلقون عليه اسم: (سيفا)، أو (شيفا) وهو اسم يعني في السنسكريتية القديمة: (العطوف، والرحيم)، فأين هي الرحمة والعطف عند إله التدمير والموت هذا؟ إنه الخوف والرعبة منه تدفع الهندوس إلى التقرب منه، والتخفيف من أفعاله القاسية عن طريق منح اسمًا عطوفًا، لعل ذلك يخفف من قسوته.

والإله الهندوسي (سيفا) له شهرة كبيرة عند من يدينون له، إلى حد أنهم يطلقون عليه اسم (الإله الكبير)، والشأن في هذا الإله عند الهندوس عجيب وغريب، فبعض المفكرين الهندوس يرون فيه رمزًا لأمر عجيبة، منها:

أ- أنه إله التجديد والإحياء و(البركة المتخفية)، وقد ذهبوا إلى ذلك مستدلين بأنه إنما يدمر ويهلك لكي يخلق الشيء جديدًا أليس هلاك النباتات وتدميرها إيدانًا ومقدمةً لإيجاد أنواع جديدة خضراء يانعة، ثم أليس الموت، وبخاصة عند المؤمنين بالتناسخ إيدانًا بانتقال النفس إلى جسد جديد قوي فتحي بعد هلاك الذي شاخ وضعف؟

ب- أنه الإله الراعي والمعين لطبقة الزاهدين المتصوفين، ومن يسميهم

الهندوس: القديسين، وكثيرًا ما يصوره عبّاده الهندوس في صورة الزهاد المتصوفة، فيصنعون تمثاله في على هيئة المتأمل المستغرق في التفكير، وقد عقص شعره على طريقة المتصوفين الزاهدين أما التفسير الرمزي لهذا كله فهو أن (سيفا) يدمّر الأشياء التي شاخت وضعفت ليخلقها من جديد على هيئة أحسن وأفضل، هذا من جانب الواقع المادي، أما من جانب الخيال الصوفي؛ فإن الصوفي يدمّر جسمه، أو يقتل ذاته المادية، كي يطلق العنان ويفسح الطريق لذاته العليا، أو يقتل الجسد ليحرر النفس لتنتلق، أو تتقمص جسدًا جديدًا فتيًا. إن عبادة الإله سيفا فكرة فلسفية حافلة بالقوة، القوة التي تُدبّر الكون، التي تخلق وتدمّر، وما الخلق والتدمير إلا مظهران لتغيير مطرد، لا في غضب وحقد وكرهية، بل بحكم طبيعته ووظيفته، فالبيضة تُدمّر وتفتت كي يخرج منها الكتكوت، والطفل لا يولد إلا بعد فناء جرثومته في أطوارها المتعددة، ولا يصير الطفل رجلًا إلا بعد القضاء على أطوار الطفولة وضعفها، وهكذا يكون الشأن مع سيفا، لا يقتل إلا لخلق، ولا يدمّر إلا لينشئ من جديد ما هو أفضل.

ج- لكن هذه التصورات الشاعرية التي يغلب أن تكون نتيجة النزعة المسالمة لدى الشعوب الهندية، تكاد تخرج سيفا عن طبيعته، وتعكس تمامًا الوظيفة التي خلقه براهما من أجلها، وهي - كما تحكى مصادر الهندوسية - تدمير الموجودات التي تكاثرت حتى ضاقت عنها الأرض، وذلك ليقل الموجود منها فتتسع للموجودات التي عليها، والتي سوف تأتي تباعًا بلا توقف.

هذا الكلام- إذن- عن سيفا هو من نسج خيال الهندوس الهنود، وهو راجع إلى نزعيتين:

النزعة الأولى: الطبيعة السلبية والمسالمة لدى الهنود، والتي تصل في سلبيتها إلى حد قبول القسوة والتدمير والقتل، وإضفاء صفة النفع والخير عليها ليسهل عليهم قبولها والرضا بها، وما دام الأمر فوق طاقتهم ولا يملكون تجاهه ما يدفعونه به، أو يقاومونه، فليقبلوه- إذن- وليضفوا عليه من الصفات والسمات ما يُيسّر عليهم قبوله والرضا به.

النزعة الثانية: خوفهم من سيفا، وفزعهم منه، ذلك الخوف والفرع الذي يسيطر عليهم، والذي يدفعهم إلى التقرب إليه، والتحبُّب له، وتَسْوِغ أفعاله، بل وإضفاء طابع النفع والفائدة والمصلحة عليها؛ وذلك ترضيةً له من جانب، وتَسْوِغاً لضعفهم أمام أفعاله بهم، واستسلامهم له.

وببقى- بعد ذلك- واقع الحال: أن وظيفة سيفا هي التدمير والقتل، وذلك بوسائل عديدة، منها شُنُّ الحروب بين الأمم، وإذكاء العداوة، والزلازل، والبراكين، والفيضانات، والأوبئة، إلى غير ذلك من وسائل التدمير والإهلاك التي لا تكاد تحصى.

كالي (شاكتي): وإلى جانب (سيفا) إله التدمير والإهلاك، هناك زوجته (شَاكْتِي)، والتي تشتهر عند الهندوس باسم (كالي)، والتي يعتقد الهندوس أن قوة الآلهة قد تجسدت فيها فأضحت صاحبة قوة رهيبة مفرعة، وهي لا تستمد

قوتها من زوجها (سيفا)، بل لها قوتها المستقلة، وهي قوة تقوم علي القسوة والشدة والتدمير والإهلاك، وهي لا تهدأ إلا حين يحيطها الهندوس بالعبادة والتقديس والقرابين، وهي حين تهدأ تبدو في صورة سيدة جميلة تمنح الحب والتسامح والعطف، أما حين تغضب فإنها ترقص في وحشية، وتتصرف في قسوة، وتهتز فوق شيطان، وتصب غضبها على أعدائها، وأتباعها يصورونها بفم فاجر، ولسان متدلّ، تزدان بالأفاعي، وأقراطها رجال موتى، وعقدها مكون من جماجم، ووجهها وثدياها ملطخة بالدماء، ولها أربعة أياد؛ اثنتان تحملان سيفا ورأساً مقطوعاً، واثنتان ممدودتان رحمة وحماية.

هذه (كالي) التي تسمى: شاكتي وهي زوجة سيفا التي تحتل عند البعض من الهندوس مكانة مقدسة قد تكون أعظم من مكانة زوجها.

رمز سيفا: لكل إله من الإلهين: سيفا وفشنو رمز خاص به يرسمه أتباعه على أعضاء أجسامهم تقريباً إلى الإله الذي يتعبدون له، ويفضلون عبادته، يرسمونه على أجسامهم ليدلوا على أنهم من اتباع الإله صاحب الرمز، وقد يقيمون على التزام بعبادة ذلك الإله مدة طويلة، وقد يغيرون من توجهاتهم، فيعبدون الإله الآخر، ومن ثم يمحوون رمز وعلامة عبادته، ويضعون على أجسامهم رمز عبادة الإله الآخر.

أما سيفا؛ فرمز عبادته عند أتباعه: أن يرسم السيفي المخلص ثلاثة خطوط أفقية على جبهته برماد من روث البقر، ويحرص على أن تكون واضحة يراها

الجميع، وبذلك يتجاذب ويتقارب هو ومن على شاكلته من عباد (سيفا).

ثالثاً: فِشنو: الإله الحافظ، المحب، العطوف، شافي الأمراض، الحارس

على القيم:

والإله فشنو ينطق الهندوس اسمه بالواو بدلاً من الفاء فيقولون: وشنو، ونذكر هنا بالأسطورة التي أشرنا إليها عند حديثنا على سيفا تلك الأسطورة التي تذكرها كتب الهندوسية المقدسة عن الخلق، فتقول: إن براهيمما خلق الكائنات، ولم يكن قد خلق الموت، فتكاثرت الكائنات حتى ضاق عنها الوجود الأرضي. عند ذلك خلق سيفا لكي يدمر بعض الموجودات حتى يتسع الوجود للكائنات، لكن سيفا أعمل التدمير والإهلاك في الموجودات جميعها حتى كاد أن يقضى عليها؛ لذلك - كما تقول الأسطورة - خلق براهيمما إلهاً آخر ليقاوم أعمال سيفا في التدمير والإهلاك، ويحفظ الموجودات هذا الإله الذي خلقه براهيمما ليحفظ الموجودات، وليقاوم تأثير سيفا المدمر؛ هو الإله فشنو، أو وشنو.

فالإله فشنو خلقه براهيمما لمهمة هي نقيض المهمة التي خلق سيفا من أجلها، فالإله فشنو خلق ليحفظ الموجودات من الموت ووسائله، فهو الحافظ من المرض، وهو الشافي إن وقع المرض، وهو المقاوم للأوبئة، والمخفف من آثار الحوادث، والمنافع ضد وقوع الحروب، وإن وقعت خفف من آثارها، وعمل على إنهاؤها.

و(فشنو) هو الحافظ على القيم، وهو الأنموذج الكامل للحب والعطف

والرحمة التي يشيعها هو بين اتباعه، يشفي الصم والعمى، ويعين المرضى والعجزة، وهو يسكن السماء، يرقب من عليائه العالم الأرضي، فإذا وجد شيئاً يهدد القيم، أو يشيع الحروب والدمار، أو يهدد الخير والنفع استعمل كامل نفوذه ليدراً الخطر، ويمنع الشر، ويشيع الخير، وهو لكي يحرس الأرض، ويرعى الخير فيها، فإنه - من أجل ذلك - يتجسد ويتقمص أشياء كثيرة ليزاول من خلالها أعماله في دفع الشر وجلب الخير.

تجسّدات فشنو: من العادات المتبعة لدى الهندوس أنهم يخلعون على آلهتهم صفات، أو يلصقون بهم قصصاً وأعمالاً يصعب القيام بها باعتبارهم آلهة، ومن ثم ابتدع الهنود قضية (التقمص)، أو (التجسّد)، والتي يتحول بها الإله إلى شخص، أو كائن آخر يستطيع أن يزاول جميع الأعمال المنوطة به، وهو في شخصه الجديد الذي تجسّد فيه؛ لذلك صار للآلهة عندهم تجسّدات، أي: أشخاص، أو كائنات يتجسّد فيها الإله ليزاول من خلالها أعماله، وبدهي أن كل تجسد يكون في الهيئة التي تصلح لأداء العمل الذي يريده الإله، وقد تجسد فشنو في صور كثيرة، منها:

أ- تجسد في صورة سمكة كبيرة أنقذت الإنسان الأول من الغرق، حين غطى الطوفان وجه الأرض كلها، وكاد الإنسان يغرق، فأنقذه فشنو وهو متجسد على هيئة سمكة.

ب- تجسد مرة في هيئة دبّ ضخم رفع بانيابه الأرض التي كانت قد غاصت

في قاع البحار.

ج- تجسد مرة في هيئة أسد مَزَق بأنيبه شيطاناً كان يريد الاعتداء على بعض أحبائه.

هناك- إذن- تجسّدات كثيرة، أو كائنات كثيرة تجسد فيها فشنو ليقوم بأعماله، لكن أهم شخصية إلهية تجسد فيها فشنو هي شخصية الإله: كريشنا: كريشنا- إذن- هو نفسه الإله فشنو، لكن في شخصية أخرى تجسد فيها فشنو.

راما: كذلك يتجسد فشنو في شخصية أخرى هي شخصية راما، أو الإله راما. وهذه الثلاثة: (فشنو، كريشنا، راما) هم جميعاً إله واحد هم: فشنو، لكن تحت أسماء: (كريشنا) و(راما)، وقد اشتهرت تجسّداته في هاتين الشخصيتين إلى حد أن بعض هاتين الشخصيتين أشهر لدى الهندوس من شخصية (فشنو)، فاسم (كريشنا) أشهر من فشنو كثيراً عند عامة الهندوس. لأكشيمي (سيتا):

(لاكشيمي، وسيتا) هما اسمان لامرأة واحدة هي زوجة (فشنو)، أو (كريشنا). و(لاكشيمي) التي هي سيتا يسمونها إلهة الحظ السعيد، أو: رَبَّةُ الجمال والخط السعيد تزوجها (كريشنا) الذي هو (فشنو)، ولكن الشيطان حَسَدُهُ عليها، من ثم قام باختطافها، وبحث عنها زوجها (كريشنا) لكنه عجز عن العثور عليها؛ لذلك استعان بملك القرد، وقام الملك القرد بالتجسس على الشيطان

من فوق رؤوس الأشجار حتى عثر على المكان الذي يخبئ الشيطان فيه سيتا أُو: لاكشيمي عند ذاك أشعل راماً حرباً شعواء ضد الشيطان حتى قتله، وأعاد زوجته (سيتا)، وبعد أن اجتازت سيتا تجربة النار المحرقة، وأثبتت طهارتها وأن الشيطان لم يمسسها، ضمها زوجها إليه وعاشا سعيدين.

رمز فشنو:

ذكرنا أن لكل إله لدى الهندوس رمزاً يَضَعُه عبّاده وأتباعه ليعلنوا تبعيتهم لذلك الإله، أو لغيره، وقد بينّا أن علامة سيفاً، أو رمزه هو: ثلاثة خطوط أفقية من روث البقر على الجبهة، أما فشنو؛ فرمزه لدى أتباعه أن يرسم على جبهته شوكة ذات أسنان ثلاثة بالطين الأحمر.

فشنو أسبق من الهندوسية:

ومن الأمور التي ينبغي معرفتها بالنسبة للإله فشنو، أنه كان معبوداً لدى الهندود قبل أن يستقر الأمر للديانة الهندوسية، أي: أن الهندود كانوا يعبدونه قبل نشأة الهندوسية، وقبل أن يوضع ضمن الثلاثي المعبود عندهم.

ومن المعلوم: أن الشعب الهندي كانت له معبودات وديانات مختلفة قبل دخول الغزاة الطورانيين، ثم الآريين، وقبل أن تمتزج ديانات الشعوب الثلاثة، ثم تتوحد في الديانة الهندوسية قبل ذلك كان للشعب الهندي ديانات ومعبودات كثيرة، وكان من هذه المعبودات الإله فشنو، فكيف كان وضعه في الديانة القديمة للهندود؟ وما كان عمله؟

قبل نشأة الهندوسية في بدايات الألف الثانية قبل الميلاد كان الشعب الهندي يعبد آلهة كثيرة لا تكاد تحصى، وكان أكبر هذه الآلهة هي: الشمس، وكان اسمها: براجباتي، أو براياباتي، وكان للشمس عند الهنود اسمان اسم باعتبارها معبودة لذاتها، وهذا الاسم هو: سوريا، وكان لها اسم آخر باعتبارها معبودة لوظائفها الكثيرة التي تؤديها، وهذا الاسم هو: براجباتي، فهذا الاسم هو الشامل لجميع وظائف الشمس، التي منها: الخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة، ولكن الشمس تغيب ليلاً، ولأن وظائفها ضرورية وخطيرة، فقد أصبحت الضرورة ملحة وملجئة لوجود إله آخر ينوب عن الشمس، ويقوم بعملها حال غيابها ليلاً، حتى لا يُترك الوجود بغير إله طوال الليل، وكان ذلك الإله الذي جعله الهنود القدامى نائباً عن الشمس هو: فشنو الذي كان عمله في غياب الشمس هو حفظ الموجودات، والقيام بحراستها ورعايتها طوال غياب الشمس ليلاً، حتى تطلع في الصباح وتتولى عملها بنفسها.

ويبدو أن الذين قاموا بوضع الديانة الهندوسية بعد ذلك قد أعجبهم الإله القديم نائب الشمس فشنو، وأعجبتهم وظيفته في رعاية وحفظ الموجودات في غياب الشمس، فاحتفظوا به في الدين الجديد الذي أنشأوه الهندوسية واحتفظوا له كذلك بالوظيفة نفسها، وهي: رعاية وحفظ الكائنات.



المبحث الثاني

الذوات المقدسة في الديانة الهندوسية

تكلّمنا - فيما سبق - عن عقيدة الألوهية في الديانة الهندوسية، وبينّا أنّها - على المستوى العام - تتمثل في الآلهة الثلاثة: براهما - سيفا - فشنو، وقد فصلنا القول - بحول الله تعالى - عن كل منها بما يوضحها، ويوضح موقف الهندوسي منها. لكن الأمر - بالنسبة للهندوسي - لا يقف عند حد الآلهة المعبودة، ولكن يتخطاه إلى ما يسمى لدى الهندوس بـ (المقدسات).

والمقدسات تُعرّف بأنّها: ذوات، أو أشياء ليست بآلهة، ولكنها ذات منزلة قريبة من منزلة الآلهة، وهي أقلّ شأنًا منها، يتقرب إليها الناس بنوع من التقديس والإجلال والتعظيم طلبًا لرضاها، ملتسمين منها جَلْبُ البركات والنفع، ودفع الشرِّ والضرِّ. والناس يرتّبون على تقديسها والحصول على رضاها الكثير من الخير والبركة والمنفعة.

وقد يختلط الأمر عند الهندوسي، فلا يفرق بين بعض المقدسات والآلهة، فيتعبد لهذه كما يتعبد لتلك، ويطلب من المقدسات عين ما يطلب من الآلهة، بل قد يتعدى الأمر ذلك، فتكون بعض المقدسات أقرب إلى قلبه ووجدانه من بعض الآلهة، وإن كان ذلك لا ينزل بمكانة الإله، ولا يرفع مكانة المقدس، لكن الأمر كله يدور في إطار الحس والوجدان.

وتظلّ الفروق بين الآلهة والمقدسات محصورةً في بعض الأمور التي أهمّها ثلاثة:

١- أن الآلهة محصورة ومتعينة، ففي إطار الدين الواحد ليس هناك إله، أو آلهة تخص البعض دون البعض، بل جميع المتدينين بدين واحد يتعبدون لإله، أو آلهة محصورة متعينة.

٢- أن الآلهة لها معابد يتعبد فيها أتباعها، ويقصدها جميع من يدينون لها، أما المقدسات فليس لها معابد، قصارى ما هناك أن يقف المعتقد فيها على مكانها أو قريباً منها مقدساً ومعظماً إياها.

٣- أن الآلهة لها رجال دين يوجهون أتباعها ويعرفونهم كيفية التعبد لها والتقرب منها، كما يوضحون للعابد طقوس العبادة التي كثيراً ما يجهلها الهندوس، وإن عرفها البعض في الجملة فإن تفاصيلها تظل بيد البراهمة، أو رجال الدين الذين ينظرون دائماً لتفاصيل الطقوس العبادية على أنها سرٌّ لا يجوز إباحته إلا بالقدر الذي يوجب الظرف الحاضر فقط.

والمقدسات عند الهنود نوعان:

انواع الأول: مقدسات عامة:

وهذا النوع من المقدسات يكاد يكون محصوراً ومتعیناً، ولا يقع عليه خلاف كبير بين الهنود، وهذه المقدسات العامة ليست خاصة بأصحاب الديانة الهندوسية، بل هي عامة لكافة أفراد الشعب الهندي، وجميع طوائفه، فتقديسها لا يرجع إلى الهندوسية، أو البوذية، أو السيخية، أو غير ذلك من أديان تنتشر في بلاد الهند، ولا يخرج على هذا العموم إلا الهنود المسلمون، فالمسلمون وحدهم في الهند هم الذين يخرجون على كل ما ألفه الهنود من عادات وأعراف يستوي في ذلك ما كان دينياً، أو اجتماعياً، مع ملاحظة أنه يصعب كثيراً إلى حد

الاستحالة أحيانا أن تفرق بين ما هو ديني وما هو اجتماعي في المجتمعات الهندية. يهمننا هنا أن المقدسات لدى الهنود تشمل جميع الشعب الهندي لا يشذ عن ذلك سوى المسلمين، وأن جميع الفئات تدين بالمقدسات، وبخاصة ما كان منها عامًّا يشترك في تقديسه الجميع، حتى الهنود الملاحدة الذين لا يدينون بدين، رغم أنهم بين الشعب الهندي قلة شاذة، حيث بينا أن من طبيعة الهندي أنه يميل إلى التدين أكثر من غيره من الأجناس، لكن رغم ندرة الملاحدة بين الهنود، فإنهم يدينون بالتقديس للأشياء التي دخل تقديسها نسيج الشعب الهندي فأضحى من طبيعته وجبلته.

والمثال على المقدسات العامة لدى الهنود: (البقرة) ذلك الحيوان المسالم؛ فهي مقدسة لدى الهنود جميعًا، وبكافة طوائفهم لا يشذ عن ذلك حتى الملاحدة، والمثال على ذلك أيضًا: (نهر الجانج) الذي يقده الهنود جميعًا، حيث يتطهرون من ذنوبهم بالاغتسال في مياهه، وفي نهاية الأمر ينثرون فيه رماد موتاهم بعد إحراق جثثهم، معتقدين أن نثر رماد الموتى في مياهه يطهرهم من آثامهم، وبالتالي يؤهلهم للانطلاق وينجيهم من تكرار المولد.

فتلك المقدسات العامة يجعلها ويقدها ويعظمها الشعب الهندي بجميع طوائفه، ملتصين منها دفع الشر، وجلب الخير، والمثال الواقعي الصارخ على هذا، والذي لا ينساه الناس - غير الهنود -: أن (أنديرا غاندي) رئيسة حكومة الهند لسنوات طويلة، والمرأة القوية في تاريخ الهند، كان قد حكم عليها بالسجن بضعة أشهر لأمر ارتكبتها وهي رئيسة للوزراء، وحين انتهت مدة عقوبتها وخرجت من السجن استقبلها عشرات الآلاف من أعضاء حزبه -

حزب الشعب الهندي الذي كانت ترأسه - لا ينسى الناس أن أول شيء فعلته هذه المرأة أن توجهت وخلفها الحشود الهائلة إلى إحدى (زرائب) البقر التي يحتفظون فيها بأبوال البقر في خزانات خاصة لمن يريد أن يشرب وينثر على نفسه - تبركًا واستشفاء - أو يحمل معه إلى بيته من هذه الأبوال. ذهبت هذه المرأة القوية وحولها الجموع الغفيرة إلى إحدى زرائب البقر، ثم أخذت من أبوالها وشربت حتى تضلّعت - تحركت أضلاعها من كثرة ما شربت - ثم نثرت على رأسها وجسمها من أبوال البقر، وكان كبار مستقبلها يساعدها فيثرون عليها من هذه الأبوال، ثم غسلت رأسها ووجهها، وكذلك اقتدى بها كبار رجال ونساء حزبيها وفعلوا ما فعلت، حتى نفذ الماء النفيس، فلم يجد الباقيون ما يشفي غلّتهم، فيزيد بركتهم، ويشفي غلّتهم.

هذا عن البقر وتقديسه إلى حد التبرك بشرب بوله، والاغتسال به، ولسنا ندري كيف انتكست الفطرة الإنسانية عند هؤلاء إلى حدّ أن يتجرعوا هذا النجس والخبث في بطونهم، ويضمّمخوا به أبدانهم، ويعطروا به رؤوسهم ووجوههم؟

أما عن نهر الجانج المقدس؛ فهو المقبرة الرئيسية لأجساد الهنود حيث يذرون به رماد أجسادهم بعد حرقها عند الموت، وقد قُتلت أنديرا غاندي هذه المرأة على يد أحد حُرّاسها الذي كان من السيخ، أفرغ فيها مدفعه الرشاش انتقامًا منها لاعتدائها على معبد السيخ المقدّس الذي يُعرف بالمعبد الذهبي بمدينة (أمريتسر)، وقد قام ابنها وخليفته على رئاسة الحزب بحرق جثمانها، ثم قام ومن معه من كبار أعضاء الحزب بآخر إجراء لها في هذه الحياة، حيث جمعوا رمادها المتخلف عن حرقها، ثم نثروه في ماء نهر الجانج المقدس.

البقرة أقدس المقدسات العامة عند الهنود:

قبل أن نترك الحديث عن المقدسات العامة التي يدين بها الهنود جميعًا - عدا المسلمين منهم - ينبغي أن نسجل هنا شيئًا من الأساطير التي تُروى حول تقديس البقرة وتعظيمها، وبيان المكانة الرفيعة التي تشغلها في قلوب الهنود، إلى حد أنهم يعتبرونها أهم، بل هي عندهم أفضل من أهم الحقيقية، وهذه الأساطير التي نروى إحداها ليست منحولة عليهم، ولا هي من المأثورات الشعبية التي لا أصل لها، ولكنها مذكورة في مصادر الديانة الهندوسية المقدسة، بل إنها أقدم من الديانة الهندوسية نفسها، حيث ذكرت هذه الأسطورة ومثيلاتها في بعض أقسام (الويدا) التي تكونت بعض أقسامها قبل نشأة الهندوسية نعني بذلك: (سامان ويدا)، وهي قسم من أربعة أقسام تتكون منها الويدا التي هي كتاب الهندوسية المقدس، وسوف نقتبس من الويدا أسطورة تبين مكانة البقرة عند الهنود، ثم دعاءً وصلاة إلى البقرة، يقصدون بها التقرب إلى البقرة، واستنزال بركاتها وخيراتها، ثم نختم ذلك بكلامٍ للزعيم الديني والروحي للهند كلها بجميع فئاتها وأديانها - عدا المسلمين منهم - يبين مكانة البقرة ويفضلها على أمه التي ولدته، هناك - إذن - ثلاث فقرات:

الفقرة الأولى: أسطورة ترويحها بعض كتب (الويدا)، والأسطورة جرت بين (خنزير) و(ملك) تقول الأسطورة: «وقف الملك بين يدي البقرة يصلى وينحني لها، إجلالًا وتقديسًا، فتقدم منه الخنزير، وقال له: أيها الملك؛ متى ستعبدني كما تعبد البقرة؟ فثار الملك وغضب ونهر الخنزير قائلاً له: اخرج أيها الخنزير

الأحمق، وإلا قتلتك، فبكي الخنزير وانتحب، وقال للملك: نعم؛ أنا أعرف أنك تحب لحمي فقط، فأنا أموت لأقدم لك لحمي الذي تحبه، ومع هذا فأنت تعبد البقرة ولا تعبدني، أجاب الملك: إنك أحمق - أيها الخنزير - إنني آخذ لحملك بعد موتك؛ أي: بعد أن تصير على حالة لا تملك فيها أن تمنح، أو تمنع، أو تضر، أو تنفع، وحين آكل لحملك سرعان ما ينتهي ولا يبقى له أثر، أما البقرة فهي تقدم لي طعامي طائعة وهي حية، وتظل كذلك تقدم لي طعامي يومًا بعد يوم بلا نهاية، إنها رمز الإيثار؛ لذلك فأنا أعبدها».

الفقرة الثانية: وإذا كانت هذه الأسطورة حول تقديس البقرة قد وردت في بعض الكتب المقدسة القديمة، فقد يظن أن الأمر قد تغير، وأن تقديس البقرة وتعظيمها قد ناله شيء من التطور، وأن الهنود مع تقدم الزمان، وغلبة الحضارة الغربية على الهند، قد قل تقديس البقرة عندهم، لكن الفقرة الثانية التي نقدمها تبين أن مكانة البقرة رسخت في الوجدان الهندي رسوخًا لا يتأثر بالتقدم الحضاري، بل ولا حتى بالمستوى الثقافي للفرد الهندي مهما بلغ ذلك المستوى.

وحتى نوضح ما قلناه ثبت هنا مقالًا لرجل من أعلام الفكر الهندي الحديث، هو (المهاتما غاندي)، حيث يذكر في مقال له عن (أمة البقرة) كتبه في مجلة (بافانس جورنال - Bhavan's Journal) التي تصدر في بومباي - نوفمبر ١٩٦٣م - يقول المهاتما غاندي: «إن حماية البقرة وتقديسها الذي فرضته الهند على العالم، هو هدية الهند إلى العالم، وهو إحساس برباط الأخوة بين الإنسان

والحيوان^(١)، والفكر الهندي يعتقد أن البقرة أم للإنسان، وهي كذلك في الحقيقة، إن البقرة هي خير رفيق للمواطن الهندي، وهي خير حماية له. إنني عندما أرى بقرة لا أعُدُّني رأيت حيواناً؛ لأنني أعبد البقرة وسأدافع عن عبادتها أمام العالم أجمع.

إن أُمي البقرة تفضل أُمي الحقيقية من عدة وجوه:

فالأم الحقيقية ترضعنا اللبن مدة عام، أو عامين، وتطلب منا خدمات طول العمر نظير هذا. أما أُمنا البقرة فإنها تمنحنا اللبن دائماً، ولا تطلب منا شيئاً مقابل ذلك سوى الطعام العادي.

وعندما تمرض أُمنا الحقيقية تكلفنا نفقات باهظة، ولكن أُمنا البقرة لا تمرض غالباً، وإذا مرضت لا تكلفنا شيئاً ذا بال.

وعندما تموت أُمنا الحقيقية تتكلف جنازتها مبالغ طائلة، أما عندما تموت أُمنا البقرة فإنها تعود علينا بالنفع كما كانت تفعل وهي حية، لأننا ننتفع بكل جزء من جسمها، حتى العظم والجلد والقرون.

أنا لا أقول هذا لأقلل من قيمة الأم الحقيقية، ولكن لأبين السبب الذي دعاني لعبادة البقرة. إن ملايين الهنود يتجهون للبقرة بالعبادة والإجلال، وأنا أعدُّ نفسي واحداً من هؤلاء الملايين^(٢).

(١) هنا معنى دقيق يكمن في فلسفة التناسخ في الهندوسية نبينه في محله - بحوله تعالى.

(٢) انظر: دراسات في الأديان القديمة، د عبد الغفار عزيز وآخرون، أديان العالم، حبيب سعيد، أديان الهند، د أحمد شلبي، تحقيق ما للهند من مقولة، أبو الريحان البيروني.

الفقرة الثالثة: وهي ابتهاال وتمجيد للبقرة، وهنا نذكر شيئاً من ابتهاالاتهم وصلواتهم ودعائهم لأهمهم البقرة، يتبين عنه مدى ما يُكنوّن للبقرة من تقديس وتعظيم وإجلال، وهذا الدعاء والابتهاال شيء من كثير تمتلئ به كتبهم يعلنون به حبهم وتقديسهم وتعظيمهم لأهمهم البقرة، وأنهم مقيمون عليه، قد التَصَقَّ بهم، والتصقوا به، حتى صار هو وهم شيئاً واحداً، فتقديس البقرة يعني: الهنود، والهنود يعني: تقديس البقرة.

وهذا هو الدعاء، أو الصلاة للبقرة يقول:

«أيتها البقرة المقدسة لك التمجيد والدعاء في كل مظهر تظهري به:

أنثى تُدرّين اللبن في الفجر، وعند الغسق.

أو عجلاً صغيراً.

أو ثوراً كبيراً.

فلنعدّ لك مكاناً واسعاً نظيفاً يليق بك.

وماءً نقيّاً تشربينه.

وطعاماً كثيراً يشبعك.

لعلك تنعمين بيننا بالسعادة».

النوع الثاني: مقدسات خاصة:

وهذا النوع من المقدسات يمثل حالاتٍ وجدانيةً خاصةً بفرد، أو مجموعة من الأفراد، فالتقديس هنا لا يمثل شعوراً عاماً لدى الشعب الهندي، ولكنه شعور خاص بين فرد والشيء المقدس، فكل شخص له من المقدسات ما ليس للآخر؛ لأن هذا النوع يرجع - كما ذكرنا - إلى مشاعر ووجدانات خاصة بكل

فرد، فالمقدسات الخاصة - إذن - تحددها مشاعر الأشخاص وظروفهم، وعلى سبيل المثال:

قد يرى أحد الأشخاص أن الشجرة التي أمام بيته تمده بشمارها فيأكل هو وأولاده منها، ثم هي تظله وتظل بيته وتحميه من حر الشمس، ثم هي تمده كذلك بالأغصان والأوراق الخضراء التي يغذي بها حيواناته، ثم هي تمده بأغصانها الجافة التي يستعملها وقودًا لناره إضافةً إلى أنها تمثل ملهىً لأطفاله يتسلقون أفرعها، ويتأرجحون عليها، وهي تظل على ذلك سنين طويلة، تمده بكل ما ذكرنا ولا تكلفه شيئًا. من هنا تصبح هذه الشجرة مقدسة معظمة عند الرجل وأهله، وقد يعتقد بحلول بعض الأرواح فيها التي قد يكون منها بعض أجداده، أو أحبائه، فيزداد تعظيمًا لها وتقديسًا، فيقدم لها كافة صور التعظيم من دعاء وابتهاال وصلوات، ويخاطبها كما يخاطب المرء سيده، أو عظيمًا عنده، وقد يحيط جذعها بسياج من الأحجار، وقد يعلق على أغصانها أنواعًا من الأقمشة زاهية الألوان.

وقد يقدر الهندي كومةً من القش أمام بيته يستعملها لأغراضه، أو بئرًا تمده بالمياه إلى غير ذلك من أشياء كثيرة لا تكاد تحصى، يرجع تقديس الهندي إياها إلى ظرف خاص به، أو حدث بعينه، أو أمرٍ له اعتباره عنده، وقد ضربنا مثالًا بالشجرة تحديدًا لأنها الأكثر انتشارًا بين المقدسات الخاصة عند الهنود، وبخاصة الأشجار الكبيرة المعمرة، فالمرء لا يمر بمكان في بلاد الهند - لا يستثنى من ذلك بنجلاديش وباكستان البُلدان المسلمان - إلا وتجد تلك الأشجار الكبيرة التي يحيط جذعها سياج من الأحجار، ويرفرف على أغصانها

أقمشة كثيرة متعددة الألوان الزاهية، ويجلس بجوارها بعض الفقراء يرتزقون مما يقدمه الناس من هبات وصدقات لهذه الشجرة المقدسة التي يطلق عليها عندهم - في الهند وباكستان وبنجلاديش - اسم (درباري عَالِيَة)، أي: (مقام عالٍ)، مع ملاحظة أنهم لا ينطقون العين كشان الأجاب، بل ينطقونها ألفاء، فيقولون: «درباري آلية».

وكما بينا، فالمقدسات الخاصة كثيرة، ومتعددة ومتنوعة بشكل لا يكاد يحصى، لكن الشجرة الكبيرة المعمرة هي أشهرها وأعمها إلى حد أنها تكاد تكون من المقدسات العامة لكثرة انتشارها وشيوعها.

هذه هي المقدسات بنوعيتها: العام، والخاص، وهي توضع بجانب الآلهة الثلاثة الذين تكلمنا عنهم قبلاً، وقد بينّا أن المقدسات تأتي بعد الآلهة في المرتبة، وإن كانت المقدسات في أحيان كثيرة تكون ألصق بأتباعها من الآلهة؛ لقربها وبساطتها.

يبقى في نهاية حديثنا عن المقدسات - عامة وخاصة - حقيقة لا ينبغي أن نغفلها، ونعني بها: مكانة البقرة في قلوب وعقول الهنود، ونقول: الهنود، ولا نقول: الهندوس؛ لأن مكانة البقرة وقداستها - كما ذكرنا قبلاً - لا تقف عند الهندوس ولا يتعاطاها الهندي باعتباره هندوسياً، ولكن البقرة رمز مقدس للهند جميعها بجميع أقاليمها، وجميع طوائفها الدينية، حتى الملاحدة الذين لا يؤمنون بالهندوسية، وربما لا يؤمنون بغيرها من الأديان، هؤلاء يدينون بتقديس وتعظيم واحترام البقرة، مثل ما يفعل الهندوسي، وربما أكثر!

فالبقرة تراث شعبي هندي قديم، وتقديسها التقديس الذي يقرب من

العبادة، ويكاد ينقلها من عُدوة التقديس إلى عدوة التآليه، أمر معروف ومشهور، فهي قضية تراثية شعبية تضرب بجذورها في وجدان الشعب الهندي بجميع طوائفه، واختلاف انتماءاته، لا يشذ عن ذلك إلا المسلمون من الهنود الذين يؤمنون بالله الواحد الأحد، ولا يدينون بالوثنية، ولا يقصدون شيئاً من الخلق، ولا يعبدون إلا الله رب العالمين، وهم مع ذلك لديهم من الرحمة بالحيوان عامة - ومنه البقر - ما تتضاءل معه جميع ما يفعل الهنود بالبقر الأعجم الذي لا يعقل ولا يعي وما يفعل هؤلاء الوثنيون له من تقديس وتعظيم، وإلا فماذا تعقل البقرة من تعليق الزينات على جسمها، وربط صفائر الزهور حول رأسها، وسكب الزيوت والعمور على بدنها، وتعليق العقود حول عنقها، ودق الدفوف والمعازف أمامها إنها بقرة، ولو أنطقها الله سبحانه لقلت: ماذا يفعل هؤلاء الأغبياء المعاتيه؟!

إن الذي نريد أن ننبه إليه أن تقديس البقرة شعار قومي، وثقافة عنصرية لا تقف عند حدود الديانة الهندوسية، والدليل على ذلك أن بعض الديانات الوضعية الوثنية قامت في الهند، ومن أهم ما تهدف إليه هو معارضة الديانة الهندوسية، وهذه الأديان من أهمها (البوذية)، و(الجينية)، ومع معارضة هاتين الديانتين للهندوسية، وخروجهما عليها في كل شيء تقريباً؛ إلا أنهما تدينان بتقديس البقرة تقديساً يكاد يفوق الهندوسية.

وتقديس البقرة في الهند يثير كثيراً من العجب والحيرة، حين يقدر شعب يعاني من الفقر والجوع والحرمان، بل لعله في رأس القائمة بين الشعوب الأشد فقرًا وجوعًا في العالم، ومع ذلك يترك مئات الملايين من الأبقار - تلك

الحيوانات التي تمثل المصدر الأول لللحوم في العالم - تعيش عيشةً مرفهةً مكرمةً، وعندما يحين حينها يمتنع عن أكلها، أو الانتفاع بشيء منها، بل يقوم بدفنها حين تموت مع طقوس الاحترام والتقديس، يحدث هذا عند شعب تعصف به المجاعات، ولديه ما يقارب ثلث عدد سكانه من البقر، فالبقر في الهند يقدر بأربعمائة مليون بقرة!!

وتقديس البقرة يبقيه ويقوّيه ويحافظ عليه تلك الأساطير التي تُحكى في كتبهم المقدسة، والتي تقرر أن البقرة أقدس الحيوانات، بل أقدس الموجودات - سوى الآلهة - وأن كلَّ جزء من جسمها تسكنه الآلهة، فكل جزء منها: رأسًا، أو جذعًا، أو رجلًا، حتى ذيلها، كل جزء يسكنه إله خاص به، وكل ما يخرج من جسدها من الفضلات مقدس مبارك، وبولها من أقدس أنواع السوائل، وهو يطهر كل شيء يلمسه، ويشفي كل عضو يُغسل به؛ لذلك يستعمل عوام الهند فضلات البقرة عقاقير طبية، وبخاصة إذا ما اقترنت بمباركة رجال الدين البراهمة.

ومن أعجب العقائد لدى الشعب الهندي: أن الهندي إذا ما وافته المنية، وحضرته الوفاة، فإنه يمسك بذيل بقرة مربوطة إلى سريره، وذلك من شأنه أن يهوّن عليه سكرات الموت، ويجعله يعبر الحياة الحاضرة إلى الحياة المقبلة عبورًا سهلاً مريحًا، وإذا كانت الغرفة التي ينام فيها لا تتسع لوجود بقرة فيها؛ فإنه يمسك بحبل مربوط في ذيل بقرة خارج غرفته؛ ليضمن له ذلك العبور السهل.

وهذه العقائد التي ذكرناها - وغيرها كثير - قد يمكن أن نتقبلها إذا ما اتصف بها واعتقدها الجمهور العامي الجاهل، أو حتى أنصاف المثقفين، لكنك يقيناً

يزداد عجبك حين ترى أن هذه العقائد الغريبة يعتنقها ويتعصب لها كبار المثقفين، بل أكبر الزعماء الدينيين، والمسؤولين السياسيين بالهند الحديثة، وليس أكبر ولا أشهر من (المهاتما غاندي) الذي أشرنا إليه قبلاً، بل وسجلنا بعض ما قاله عن البقرة التي نعتها بـ (أمه البقرة) وفضلها على أمه الحقيقية التي حملته كرها ووضعته كرهاً، وعانت ما عانت، فضّل عليها البقرة في قصيدة ذكرنا بعضها قبلاً.

ونذكر له هنا أيضاً بعض ما قال معبراً عن وجهة نظره التي هي - في الواقع - معبرة عن وجهات أنظار المثقفين حيث يقول: «إن حماية البقرة في نظري من أعجب المظاهر في التطور الإنساني؛ وذلك لأنها تحمل الإنسان إلى ما هو أبعد من نوعه، والبقرة تمثل في نظري عالم ما دون الإنسان كله، وعن طريق تقديس البقرة يجعل الإنسان نفسه واحداً مع كل حيوانات الأرض، فهي أم لملايين من الجنس البشري الهندي، هي عنوان الإشفاق والرفق، وحمايتها تعني: حماية الخلائق البكماء كلها»^(١).

إن هذه القصيدة التي تَغْنَى بها (غاندي) في تمجيد وتقديس أمه البقرة، والتي حاول فيها أن يبين لنا الفلسفة الكامنة وراء تقديس البقرة لدى الهنود قصيدة مقبولة، ووجهة نظره الفلسفية لا اعتراض عليها، وله كامل الحرية في أن يجعل من المخلوقات كلها نوعاً واحداً، وأن يجعل من الإنسان واحداً مع كل حيوانات الأرض.

(١) انظر: أديان العالم، حبيب سعيد (ص ٨٢).

لكنه لم يبين سرَّ اختيار الهند البقرة تحديداً، وإعلائهم شأنها ووضعها فوق جميع المخلوقات - لا يستثنى من ذلك الإنسان - وحين يحين الموت يظهر ذلك الامتياز للبقرة على الإنسان، حيث يقومون بدفن البقرة بكل احترام وتقديس، بينما يحرقون الإنسان ويذرون رماده، ويتخلصون منه نهائياً نقول: لم يبين لنا المهاتما غاندي لماذا البقرة تحديداً، بينما الفكرة الفلسفية التي عبر عنها مفسراً تقديس البقرة تصلح مع أي حيوان آخر، وتحقق تلك الفلسفة مع تقديس الحمل الوديع، أو العنزة - الماعز - الهادئة، أو القطعة المحبوبة، أو غير ذلك من حيوانات بعضها أقرب من البقرة، لكن غاندي كان يحاول أن يُبرّر عقيدة دينية، ورمزاً قومياً لا يبرر إلا بأنها عادة درج عليها أسلاف قدماء، وورثها أحفاد أوفياء، والكل يهيم في أودية الخرافة العمياء، والجهالة الجاهلاء.

وهذا الذي رأيناه نظرياً من غاندي، رأينا مثله واقعاً عملياً من أشهر امرأة في التاريخ الحديث للهند، أعني: (أنديرا غاندي)، يوم أن شربت أبقوال البقر ونثرتها على نفسها - كما ذكرنا قبلاً.



المبحث الثالث

الهندوسية بين التوحيد والتثليث، ووحدة الوجود

بيناً عقيدة الهندوسية في المعبودات، وعرفنا من خلال كلامنا عقيدة الهندوس في الألوهية، وفي المقدسات، واتضح لنا أن موقفهم من المقدسات يختلف عن موقفهم من الآلهة، فالمقدسات -عامة أو خاصة- لا ترتفع إلى مستوى الآلهة، ولا تصل منزلتها منزلة آلهتهم، وقلنا إن المقدسات تشغل حيزاً من قلوب ومشاعر الهندوس كبيراً، وقد تكون المقدسات -وتحديداً الخاصة- ألصق بمشاعر الهندوسي، لكنها تظل في إطار التعظيم والتقدير والتقديس، لا ترتفع إلى مرتبة الآلهة، ولا تنزل مرتبة الآلهة إلى مرتبتها، فالآلهة آلهة، والمقدسات مقدسات.

لذلك لا يقع خلاف كبير بين مؤرخي الأديان حول المقدسات عند الهندوس، لا ماهياتها وحقائقها، ولا تأثيرها، ولا علاقات أتباعها بها. لكن مؤرخي الأديان يختلفون كثيراً حول الألوهية عند الهندوس، أو في الهندوسية، وتأتي خلافاتهم حول ما يدين به الهندوس:

هل يدين الهندوس بالتوحيد؟

أم يدينون بالتثليث؟

أم يدينون بوحدة الوجود؟

وكل من هذه الأمور الثلاثة قال بها المؤرخون، على خلاف بينهم، حيث

نشأ عن اختلافهم اتجاهات ثلاثة، نعرض لها في المطالب التالية:

المطلب الأول

الهندوسية تقول بالتوحيد

ويذهب أصحاب هذا الاتجاه إلى أن الهندوسية تقول بالتوحيد، وأن الهندوس موحدون، وذلك ما ذهب إليه (أبو الريحان البيروني) حيث قرر أن عقيدة الهندوس في الإله ليست واحدة، ولكن الهندوس ينقسمون إلى خاصة وعامة. أما الخاصة فهم موحدون، وأما العامة فهم متعددون، لكنه يُلقي بعقيدة العامة جانبًا.

ثم يبين عقيدة الخاصة التي هي التوحيد فيقول: «اعتقاد الهند في الله - سبحانه وتعالى - أنه الواحد الأزلي بلا ابتداء، ولا انتهاء، المختار في فعله، القادر الحكيم، الحي المحيي، المدبر، المتفرد في ملكوته عن الأضداد والأنداد، لا يشبه شيئًا، ولا يشبهه شيء»^(١).

ومن الواضح أننا لا نتفق مع البيروني في كل ما ذهب إليه، فالبيروني كان يكتب وفي ذهنه أن أحدًا لن يذهب إلى الهند، ولن يطلع على ما عندهم، فخلع على معتقداتهم الكثير من التبجيل والاحترام، وجعلها قريبة من توحيد الله عند المسلمين. بينما حقيقة عقائد القوم غير ذلك يقينا - رحم الله البيروني، وعفا عنا وعنه -.



(١) تحقيق ما للهند من مقولة (ص ٣٠) وما بعدها، وانظر: الأسفار المقدسة في الأديان السابقة

على الإسلام، د. علي عبد الواحد وافي (ص ١٨٢ - ١٨٣).

المطلب الثاني

الهندوسية تقول بالتثليث

ويذهب أصحابه، إلى أن الهندوسية تدين بالتثليث، فتؤمن بثلاثة آلهة، هم: براهما، سيفا، فشنو، وهذا الذي ذكرناه قريباً، وبيناً أن الهنود لهم في ذلك الثالث، أو التثليث مذهبان:

المذهب الأول: يقول بأن الإله واحد هو (براهما)، ولكنه من حيث وظائفه يوصف بثلاث صفات، أو يسمى بثلاثة أسماء، فهو من حيث كونه خالقاً يوصف، أو يسمى (براهما)، ومن حيث كونه مُميّناً ومهلكاً يسمى (سيفا)، ومن حيث كونه حافظاً ورحيماً يوصف بأنه (فشنو)، فهذه - إذن - ثلاث صفات، أو ثلاثة أسماء لإله واحد - كما ذكرنا قبلاً.

وذلك مذهبٌ يقول به قلةٌ من المثقفين المتفلسفة من أتباع الهندوسية، والذي يحدوهم إلى القول بهذا رغبتهم في أن يخرجوا بدينهم الهندوسي من عدوة التعديد إلى عدوة التوحيد، لما في التعديد من نقيصة الوثنية والتخلف والبدائية التي هي من سمات الجهالة والبداءة والتخبط.

وقد بيناً - قبلاً - عند الحديث عن هذا الاتجاه أنه اتجاهٌ باطل في الهندوسية، وأنه دخيل عليها، وأن الحقيقة في الديانة الهندوسية هو الاتجاه، أو المذهب الثاني، وبيانه فيما يلي:

المذهب الثاني: أن الهندوسية تدين بثلاثة آلهة، وليس بإله واحد له ثلاث وظائف، بل بثلاثة آلهة، لكل إله وظيفة، أو عمل خاص به لا يقوم به غيره، فالأول هو: (براهما)، وهو الخالق الرازق، والثاني: (سيفا، أو شيفا)؛ وهو المهلك المميت المدمر، والثالث: (فشنو، أو وشنو)، وهو الإله الحافظ من الهلاك، الشافي من الأمراض، الرحيم بالهندوس.

وهؤلاء الثلاثة يمثلون الثالوث المعبود في الهندوسية، وكل منهم له تمثال، وله معبد، وله طقوس يتقرب بها عابده إليه، حسب أحوالهم وما يطلبون، فمنهم من يتوجه إلى (سيفا) خوفاً من شره، ودفعاً لضره، ومنهم من يتوجه إلى (فشنو) رغبة في أن يحفظهم من شرور وهلاك (سيفا)، وقليلون هم الذين يتوجهون إلى (براهما) الإله الطيب الحنون.

وهذا المذهب الثاني هو المعبر عن حقيقة الألوهية في الديانة البراهمية الهندوسية، وكل ما يقال غير ذلك فهو بعيد عن الحقيقة، والدليل الواضح على ذلك معابدهم، ورجال دينهم، وطقوسهم التي يتعاطونها، فهناك معابد كثيرة خاصة بكل إله من الثلاثة.

فهناك معابد لكبيرهم براهما، ومعابد أخرى خاصة بالإله سيفا، ومعابد خاصة بالإله فشنو، ثم إن هناك معابد للثلاثة معاً مما يدل بوضوح شديد على عقيدة التثليث التي يدين بها هؤلاء الهندوس، والتي تقوم عليها الهندوسية في قضية الألوهية، وهي نفس العقيدة التي أخذها (بولس)، أو (شاءول) وأقام

عليها عقيدة التثليث التي يدين بها النصارى مع شيء من الاختلاف الذي اقتضاه الوضع الغريب العجيب، والذي افتراه بولس - لعنه الله - ليحوّل رسالة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من رسالة توحيد لله رب العالمين، إلى ديانة وثنية تقوم على عبادة عبد الله ورسوله عيسى بعد جعله شريكاً لله ربّ العالمين.



المطلب الثالث

الهندوسية تقول بوحدة الوجود

وفيه يذهب فريق كبير من مؤرخي الهندوسية إلى أن هذه الديانة تقوم في عقيدة الألوهية على (وحدة الوجود)، فهم يعتقدون هذه العقيدة الفاسدة التي نجد لها صدىً عند كثير من الأديان الباطلة، ولو دان بها أحد من أتباع الدين الحق، فإنه بهذه العقيدة يَفْسُقُ عن الملة الحقة جملة وتفصيلاً؛ لأنها عقيدة لا يقول بها إلا ضالٌّ مضلٌّ.

وعقيدة (وحدة الوجود) الباطلة تعني: أنه لا موجود في كل الوجود إلا الله ﷻ، فليس في الوجود كله إلا واحد هو الله سبحانه وكل ما عداه من الخلق - بشراً، أو جنّاً، أو حيواناً، أو غير ذلك - إنما هو مظهر لله؛ تعالى الله عما يقول الكفرة الفجرة، فالله هو الموجود فقط، لكنه تعالى يتلبس صوراً وأشكالاً يظهر بها، هي جميع ما هو موجود، فيظهر الله - تعالى عما يقولون - في صور البشر، وصور الجنّ، وصور الحيوانات، ويقولون: إن كل ما تقع عليه عينك في الوجود - أرضه وسمائه - هو الله متشكلاً بأشكال، ومتلبساً صوراً، ويقولون: إن الله قد ظهر في صورة فرعون، وقد ظهر بصورة موسى، وهارون، ومحمد، وأبي جهل، وعجل بني إسرائيل - تعالى الله عما يقول الظالمون!

ولأصحاب هذه العقيدة الباطلة الضالة أضاليلٌ غريبةٌ ومخاريقٌ عجيبةٌ يدور بهم الشيطان في دروبها، حتى يضحوا هم أضل من الشيطان نفسه، وكلما

سُدَّ في وجوههم دربٌ من دروب الضلال، سلكوا دربًا آخرَ ليجدوا أنفسهم في كل مرة في ذات الحفرة، وفي نفس الكفر والفجور.

ونضرب لذلك مثالاً من الهندوسية نفسها، وبنفس الطريقة التي يستعملها الهندوس، ومؤرخو ديانتهم، فعقيدتهم في (وحدة الوجود) تقوم على تصورهم العالم: ابتداء، وانتهاء، وواسطة.

وتصورهم للعالم في هذه الأطوار الثلاثة تؤدي بهم - حتمًا - إلى القول بوحدة الوجود، وإن كان تصورهم وحدة الوجود التي يدينون بها تختلف في جوهرها عن تلك التي يقول بها هؤلاء المعاتيه الضالون الذين يتسبون إلى الإسلام، والإسلام منهم بريء، لكنها - رغم اختلافها - يصدق عليها أنها (وحدة وجود)، كما سيتضح ذلك من شرح تلك العقيدة عند الهندوس.

فالهندوس يعتقدون أن الرَّبَّ (براهما) كان وحده، ولم يكن في الوجود شيء معه، وقد ظل على ذلك آمادًا طويلةً، ودهورًا لا تكاد تحصى، ثم أراد خَلَقَ الوجود فخلقه على الهيئة التي فصلها فيما يلي:

١ - كان الوجود كله ظلامًا تامًّا فخلق (براهما) النور وبثَّ في الوجود.

٢ - كان وحده ولم يكن شيء معه، فخلق الماء، فكان الماء أول شيء خُلق من الوجود كله.

٣ - خلق (براهما) بيضة وضعها على وجه الماء طافية، وكان براهما نفسه داخل هذه البيضة.

٤ - ظلت البيضة طافية على وجه الماء (سنةً براهمية)، وهي تعدل ملايين

السنين من سنوات الدنيا.

٥- أخيراً انفتحت البيضة وخرج منها كائن انقسم إلى نصفين فكان نصفه سماء ونصفه أرضاً، ومن ثم كانت السماء والأرض.

٦- هذا الكائن الذي كان داخل البيضة وانقسم؛ هو براهما نفسه؛ لذا كانت السماء والأرض هي براهما نفسه.

٧- من هذه البيضة أيضاً خرج ذكر وأُنثى، منهما تكوّن الجنس البشري، وكان الرجل اسمه: (مانو)، و(مانو) هذا هو أول البشر في الأسطورة الهندوسية.

٨- وتقول أسطورة الخلق في بعض كتب (الويدا، أو الفيدا) الهندوسية (إن براهما أخرج من البيضة عملاقاً هو (مانو)، ثم نفخ الخلاق براهما في الجسد العملاق فانشق نصفين، صار أحد النصفين رجلاً، وصار الآخر امرأة، وعلى سطح الأرض نشأ في العالم أول زوج وأول زوجة، ثم كان نسلهما أول البشر، ومن قمة اللانهاية- إن كان لِلانهاية قمة- أَطْلَ براهما يوضح تلك الحقيقة؛ إنه هو نفسه هذا الخلق، إنه هو مانو ونسل مانو؛ لأنه أخرج هذا الخلق من نفسه).

٩- الأسطورة واضحة في (وحدة الوجود) حيث أول الخلق من البشر هو براهما؛ لأنه أخرج مانو وزوجته ونسلهما من نفسه، لكن ماذا عن بقية المخلوقات من الحيوانات والحشرات وغير ذلك.

١٠- تروي كتب الفيدا المقدسة للهندوسية موضحة قصة الخلق: بعد أن أنجب مانو- أول البشر- من زوجته نسلًا بشريًا، هربت منه المرأة واختفت.

في صورة بقرة، فانقلب هو إلى ثور وعاشرها فجاء من ذلك جميعُ الماشية، ثم هربت هي في صورة فرس فانقلب هو إلى حصان وزاوجها فجاء من ذلك جميعُ الخيل والبغال وما شابه، ثم هربت في شكل ماعز فانقلب تيسا وزاوجها فكان من ذلك الماعزُ والخرافُ، وهكذا تدرج وجود المخلوقات على وجه الأرض حتى النمل وما هو أصغر، كله من هذين الزوجين: مانو وزوجته».

١١ - هذا الحديث الأسطوري كله يدور حول الأجسام، أو الأبدان، فماذا عن الأنفس التي هي المقصود الأهم، والمراد الأسمى في الموجودات جميعها؟ إن الحديث عن الأنفس يتناول أمرين:

الأمر الأول: مصدرها، أي: مِنْ أين جاءت هذه الأنفس؟ وَمَنْ خالقُها؟ وَمِنْ أين جاء بها؟

الأمر الثاني: أنواعها؛ أي: الأنواع الموجودة من هذه الأنفس، وصلة بعضها ببعض.

أما عن الأمر الأول: فإن الهندوسية تقرر بوضوح شديد: أن الأنفس تصدر عن براهما الإله، وأنه خالقها وموجدها، وكونه خالقها وموجدها ومصدرها تعني في الهندوسية أنها جزؤه، وبعض منه، وهذا معنى عجيبٌ وغريبٌ خاص بالهندوسية والهندوس، لا يفهمه سواهم، ولا يستسيغُه غيرهم، فالأنفس

انفصلت عنه، وتأخذ حظها وما قُدِّر لها من تجوال وتناسخ^(١)، ثم تعود فتتحد به كما كانت، فهي من الإله براهما تنفصل، ثم تعود إليه وتتحد به.

والهندوسية- في كتبها المقدسة- تضرب مثلاً لانفصال النفس عن براهما، ثم عودتها إليه، واتحادها به، بالمحيطات وما يخرج منها من بخار وسحب، فيقولون: إن المحيط الواسع تتسلط عليه حرارة الشمس فيتبخر بعض مائه، ويصعد إلى السماء سحاباً، ثم يتجول في أنحاء الأرض شمالاً وجنوباً، ثم يتكثف ماءً، ثم ينزل مطراً على سطح المحيط، فيتحد ماء المطر بماء المحيط، ويعودان شيئاً واحداً، ولا يستطيع التفريق بينهما، وما ينزل من مطر على الأرض اليابسة فإنه يذهب إلى النبات، والحيوان، والإنسان، لكنه في النهاية سيتبخر سحاباً، ويعود لينزل مطراً على المحيط الذي خرج منه، ويتحد بمصدره، مهما طالت دورته، وتعدد تجواله، وتكثرت دوراته.

وأما في الأمر الثاني: فالأنفس عند الهندوسية نوع واحد، يستوى فيها ما في الإنسان، وما في الحيوان، والحشرات، فهي كلها نوع واحد، وأصلها جميعها في الإنسان، فجميع الأنفس هي إنسانية كانت في الإنسان، ثم انتقلت منه إلى الحيوان عن طريق التناسخ عقوبة له على أعماله السيئة في بعض دورات حياته السابقة، ثم بعد أن تقضي تلك النفوس الإنسانية ما عليها من عقوبة في جسد حيوان، أو حشرة تعود مرة أخرى فتدخل جسد إنسان يلائم ما عملته في دورتها السابقة.

(١) التجوال والتناسخ بمعنى، وسيأتي توضيح المراد به في محله من البحث- بحول الله تعالى.

فالأنفس - إذن - جميعها نوع واحد، وهي أنفس إنسانية، ولكنها عن طريق التناسخ تخرج من أجساد البشر لتدخل أجساد الحيوان، أو الحشرات عقوبةً لها على أعمالها السيئة، ثم تعود بعد ذلك إلى أجساد البشر.

بهذا الذي قدمناه اتضح لنا عقيدة (وحدة الوجود) عند الهندوسية، وهي قائمة على أمور:

أولاً: أن إلههم براهيم كان وحده، ولم يكن شيء معه، ثم أوجد النور، والماء وهما من نفسه، وجزءً منه.

ثانياً: وضع في الماء بيضةً كان هو في داخلها، ثم انفتحت البيضة وانقسمت فكان نصفها سماءً، ونصفها أرضاً.

ثالثاً: خرج من البيضة كذلك عملاق انقسم نصفين فكان ذكراً وأنثى، تزوجا فكان منهما البشر، وجميعُ المخلوقات - على ما سبق وبيناً - وكل ذلك كان أصله براهيم الإله الذي كان هو البيضة، وكان هو داخلها.

رابعاً: كما أن الموجودات هي نفسها براهيم، كذلك النفوس مصدرها براهيم، منه تخرج، وإليه تعود وتتحد به.

خامساً: الوجود كله - إذن - هو براهيم:

النور - الماء - البيضة - السماء والأرض - البشر - الحيوانات والحشرات - النفوس - منه تبدأ وإليه تعود وتتحد به.

ووحدة الوجود هنا لا تقوم على أنه خالق هذا كله - فإن الأديان جميعها تُقرُّ أن الإله، أو الآلهة فيها هي خالقة الكل، لكن الهندوسية تؤمن بأن الوجود كله

ليس فقط مخلوقاً لبراهما، بل هو بعضه وجزء منه، وفي النهاية سيتحد به،
ويصيران شيئاً واحداً.

وهذا يوضح أن عقيدة الهندوس تقوم على وحدة الوجود، بالمعنى الذي بيناه.
وهذه الحقيقة ليست اجتهداً، ولا استنباطاً، بل هي ما تقرره أسفارهم
المقدسة في أكثر من موضع، وفي أكثر من سفر، وفي هذا يحدثنا الدكتور علي
عبد الواحد وافي، نقلاً عن كتبهم فيقول: «تقرر أسفار الدين البراهمي -
الهندوسية - أن الله واحد لا شريك له، وأنه قد صدرت عنه جميع الكائنات،
وقد سرت منه روح في الجماد والنبات والحيوان، فالموجود بحق هو الله
وحده، وليست هذه الكائنات إلا مظاهر منه، وهذا هو ما يعبر عنه بنظرية وحدة
الوجود التي انتقلت إلى التصوف الإسلامي ونظريات رجاله الذين من
أشهرهم: الحلاج وابن عربي»^(١).

وإلى هذا تشير أسفارهم المقدسة التي هي (الفيدا)، حيث تقول - على
لسان براهيم - : «إني أنا الله نور الشمس، وضوء القمر، وبريق اللهب، ووميض
البرق، وصوت الرياح، والعرف الطيب ينبعث في الأرجاء، والأصل الأزلي
لجميع المخلوقات، وأنا حياة كل موجود، إنني صلاح الصالح، أنا الأول، وأنا
الآخر، أنا السماوات وأنا الأرض».

وتقول - في موضع آخر: «إن الله واحد؛ لأنه الجميع، ولأن الجميع منه،

(١) الأسفار المقدسة في الأديان السابقة (ص ١٨٢).

فهي جميعها مظاهر لوجوده».

إن عقيدة (وحدة الوجود) تبدو واضحة كل الوضوح في بعض شروح كتب الفيدا المقدسة لدى الهندوس، وتحديدًا في كتابي (اليوبانيشاد) و(الفيدانتا)، وتصل هذه العقيدة إلى قمة الوضوح حين يقرر كتاب (الفيدانتا) هذه العقيدة فيقول: «إن الله، والنفس الإنسانية، وجميع الكائنات شيء واحد»^(١).



(١) المصدر السابق (ص ١٨٣)، وانظر: تحقيق ما للهند من مقولة (ص ٣٠) وما بعدها.

المطلب الرابع

وحدة الوجود في الهندوسية الحديثة

الهندوسية ديانة سائحة الحدود، منماعة المعالم، فضفاضة التعاليم تحتوي داخلها على تعاليم وعقائد أساسية محددة نوعًا ما مثل: الإله الأكبر براهما، ثم سيفا وفشنو، ثم يقف التحديد هنا، وتضحى الهندوسية قابلةً لكثير من العقائد والشروح والتوضيحات والإضافات، وحتى هؤلاء الآلهة الثلاثة تدور حول كل منهم أساطير وقصص، يؤمن بها البعض، ويرفضها الآخر، وفي المسيرة التي قطعتها الهندوسية نجد حركات تجديدية، تضاف على الهندوسية فيقال عن إحدى حركات التجديد: (الهندوسية الحديثة)، وهذا إطلاق كاذب مُدّلس؛ لأنه يوحي بأن الهندوسية السابقة اندثرت، وحلَّ محلها هندوسية حديثة مغايرة، وذلك غير صحيح كل ما هنالك أن بعض من يُسمَّونَ مصلحين قد أدخلوا على الهندوسية بعض التعاليم الجديدة قد يقبلها البعض وقد يرفضها آخرون، والهندوسية تقبل هذا وذاك؛ لأنها - كما ذكرنا - فضفاضة غير محددة، وكل حركة جديدة، أو إضافة، أو تغيير، يندمج بها ولا يحدث ما يخل بالهندوسية الأصل.

هذه كلمةٌ ضروريةٌ؛ كي نفهم ماذا تعني عبارة: (الهندوسية الحديثة)، التي ننقل عنها ذلك التحديث الذي أضافه أحد الفلاسفة الدينيين، والذين يطلق عليهم - كما قلنا - مصلحين، وقد كان من إصلاحاته التي أدخلها على

الهندوسية تأكيد وتوثيق الاتجاه الوجودي الوجودي المسمى: (وحدة الوجود) في الديانة الهندوسية بحيث جعل هذا الاتجاه أوضح وأكد الاتجاهات الثلاثة التي أشرنا إليها.

فقد ظهر بالهند في القرن التاسع الميلادي زعيمٌ دينيٌّ، وفيلسوفٌ روحيٌّ يدعى (سنكاراشا)، اشتغل بدراسة كتب الفيدا المقدسة، ثم أعلن أنه استخلص منها ما أطلق عليه: (المبادئ الدينية الطاهرة النقية المختصرة) حيث زعم أنه اختصر الأناشيد الدينية التي توجد في كتب الفيدا إلى تلك المبادئ التي نادى بها ودعا إليها، وقد أطلق على مبادئه تلك اسم (الفيدانتا - Vedanta)، وقد عمل بجد ونشاط في نشر مبادئه تلك، أو نشر تعاليم (الفيدانتا) حتى انتشرت، وتحديداً بين فئات المثقفين ثقافةً عالية، وحتى أصبحت هذه التعاليم تمثل لدى القطاع الأكبر من المثقفين العصريين حقيقة الديانة الهندوسية التي يدينون بها، وقد كانت جهود (سنكاراشا) مركزةً حول مفهوم الإله الأكبر براهما وصلته بالعالم والموجودات الأخرى، وقد أقام فلسفته على بيان أن الوجود قسمان، ثم بيّن صلة كل قسم بالآخر على النحو التالي:

القسم الأول: الإله براهما:

وهو الحق والحقيقة، وهو الظاهر والباطن، وهو وحده صاحب الوجود الحق، وهذه عقائدٌ مطروقةٌ معروفةٌ عند الهندوس، لكن الذي أكدّه هذا الفيلسوف (سنكا) أن الإله براهما ليس شخصاً، أو ذاتاً محددةً مشخصة، ولكنه

رمز مبهم غير مشخص ولا محدد، هو قوة مندمجة في الوجود كله، والوجود كله مندمج فيها، لا تُحدّد، ولا تُحصّر، ولا تُشخص، بل هو قوة منتشرة في الوجود بحيث يصيران شيئاً واحداً.

ولعل القارئ يذكر أننا أشرنا إلى هذه العقيدة في بداية كلامنا عن الإله براهما عند الهندوس، وبيناً أن فريقاً من الهندوس يؤمن بالإله براهما على أنه رمز مبهم غير مشخص ولا محدد؛ لذلك قبلت عقولهم أن براهما هو الذي خلق الماء، وخلق البيضة التي وضعها على سطح الماء، وكان هو براهما داخل البيضة، وحين انقسمت البيضة وخرج منها نصفان سماء وأرض، كانا هو، وحين خرج منها عملاق انقسم إلى ذكر وانثى، كانا هو؛ لذلك أَسَمَوْهُ: الروح السارية في الوجود: (برام آتما Bram atma) - كما ذكرنا سابقاً.

لكن يظل بجوار هذه العقيدة العقيدة الأخرى التي تنظر إلى براهما على أنه أحد الثلاثة وأكبرهم، وأنه مشخص محدد، وكذلك تظل هذه العقيدة هي الأكثر شيوعاً، وبخاصة لدى الجماهير الغفيرة من الشعب الهندوسي الذين يغلب عليهم الجهل، أو الثقافة الضحلة التي لا تهضم معنى الرمزية، ولا تقنع بإله معنوي مبهم غير محدد؛ لذلك كان التأثير القوي للفيلسوف (سنكاراشا) هو التأكيد على رمزية براهما، وكونه إلهاً معنوياً لا ذات له ولا شخص، وأنه مبهم لا محدود، وأن الحدود بينه وبين العالم غير محددة ولا فاصلة.

القسم الثاني: العالم، وهو كل ما سوى براهما:

وقد ركز الفيلسوف على أن العالم زيفٌ ووهمٌ وخداعٌ وتمويهٌ، وأنه لا

حقيقة له، بل هو كذب وضلال وأوهام وخيالات.

بينما الحقيقة تتمثل في براهما والأنفس، والأنفس تنفصل من براهما، وهي جزء منه، ومنذ انفصلت عنه وهي تُجاهد ساعيةً إليه تريد أن تتحد به، ولكن الذي يحول بينها وبين الاندماج في براهما والاتحاد به، هو هذا العالم الزائف؛ لأن النفوس تشغل بهذا الزيف، وتنخدع به، وهذا يمثل حجابًا كثيفًا، وعائقًا دون اتحاد الأنفس بأصلها وتحقيق الاتحاد الذاتي الحقيقي بين الأصل-براهما-والفرع-النفوس- ولا سبيل لتحقيق هذا الاتحاد والاندماج إلا بإزالة هذا الحجاب الزائف، والخلاص من هذا العالم الخادع الذي لا حقيقة له.

وإزالة هذا العالم الزائف، وكشف هذا الحجاب، ووصل النفوس بأصلها يتحقق دائمًا، ولكن بعد رحلة طويلة وشاقة ومؤلمة للنفوس بسبب انخداعها بهذا العالم؛ لذلك جاء الفيلسوف (سنكا) بفلسفته ومذهبه ليكشف للنفوس زيف العالم فلا تنخدع به، ولا تشغل بأوهامه، فتعرف النفوس هذه الحقيقة ابتداءً، وتكتشف زيف العالم من بداية هبوطها إليه، من ثم لا تنخدع به، ولا تتلوث بأوهامه، فتنتقل ابتداءً عند أول رحلة لها في هذا العالم، وتتحد بأصلها، وبذلك تنتهي معاناتها من أول رحلة تقوم بها في عالم الإنسان، أو أول جسد تدخله، دون الدوران والتجوال مع أجساد أخرى كثيرة لتكتشف في النهاية هذه الحقيقة التي جاء الفيلسوف ليوضحها لها دون معاناة.

وهذا يعني: أن الفيلسوف (سنكا) قد جاء، لا ليعلن وحدة الوجود في الديانة

البراهمية، فإن هذه الحقيقة معروفة لدى الكثيرين، ولكن جاء ليوضحها، ويفرزها، وَيُقَرِّبها من العقول والقلوب الهندوسية أكثر، وليفسح لها مجالاً في حياة الهندوس أوسع مما كان لها قبلاً.



المبحث الرابع

عقيدة الألوهية في واقع الهندوس

أطلقنا في الحديث عن الألوهية في الهندوسية، ولا جدال في أن هذه الإطالة غير عادية، وغير مطروقة، ولم يقم بها أحد ممن أَرخَ للهندوسية قبلاً، وربما كان المؤرخون يتوَحَّون التيسير على القارئ والدارس، وبخاصة وأنها ديانة ندر- بل شدَّ- من يدين بها في مجتمعاتنا الإسلامية، وربما كان من المقبول نوعاً عدم الدخول في تفصيلاتها، أو الإغراق في فلسفاتها، نقول: ربما كان هذا مقبولاً من البعض، غير أننا رأينا أن نفصل نوعاً من التفصيل في عقائد الهندوسية، وبخاصة في عقيدة الألوهية عند المتدينين بها؛ وذلك لأمر:

أولاً: أن عقيدة الألوهية عند الهندوس تعد مشكلة لدى دارسي هذه الديانة، حيث يجدون فيها آراءً ومذاهبَ ومعتقداتٍ كثيرة، وقد يناقض بعضها بعضاً، وقد يحار الدارس في فهم هذه الآراء، أو في التوفيق بينها، وقد يجد الدارس نفسه مضطراً لتخطيها دون فهم، وقد يجتهد في محاولة فهمها فيفهم منها غير الحقيقة، وكلا الأمرين فاسد؛ لذلك وجدنا أن الأوفق هو شرح هذه الحقائق المشكلة، ومحاولة تبسيطها بقدر الإمكان، دون الدخول في تعقيدات لا حاجة إليها.

ثانياً: أن ذكر هذه التفصيلات ليس ملزماً بالضرورة لكل دارس للهندوسية أن يشغل نفسه بها، بل يمكن أن يدرس ما يكفيه، ويأخذ ما يناسبه دون أن

يتعرض لهذه التفاصيل التي ذكرناها، فالأمر - إذن - متروك للقارئ، أو الدارس، حيث هو الأدري والأعلم بما يناسبه، والدارس في هذه الحال مثل من دخل سوقاً ووجد فيها من البضائع الشيء الكثير، فهو ينتقي ما يناسبه، وما يجد نفسه بحاجة إليه، وليس بضائره أن يترك ما لا يحتاج إليه، وينصرف عما هو في غنى عنه، وألا ينشغل إلا بما يحتاجه.

ثالثاً: قد تقع هذه الدراسة، أو هذا البحث الذي نعهده عن الهندوسية في يد مَنْ يريد تفصيلاً في موضوع الألوهية، أو توضيحاً لبعض قضاياها، فلا يجد ذلك، فيكون هذا عيباً في البحث، وتقصيراً من الكاتب، وسوء تدبير منه، بينما يكون ما اخترناه أفضل وأوفق، حيث يأخذ كل منه ما يتفق مع مطالبه وحاجاته.

رابعاً: ولا نغفل أمراً له أهميته، وإن كان يتصل بالجانب الوجداني النفسي لدى الكاتب، ذلكم أن الكاتب يسعد كثيراً، ويطمئن لما يكتب حين يوفي الموضوع حقه، ويقوم به كاملاً، أو شبه كامل، دون أن يدع فيه شيئاً من النقص، أو الخلل.

خامساً: وآخر المطاف هنا أن ننبه إلى أن الذين يكتبون عن الهندوسية كثيرون، لكن الذي يفهم الهندوسية فهمًا شاملاً قلة قليلة من هؤلاء؛ لذلك يقرأ القارئ، أو يدرس الدارس للهندوسية، فيجد خلافات كثيرة بين هؤلاء الذين يكتبون عنها، وبخاصة في موضوع الألوهية.

فمنهم من يكتب عن الهندوس باعتبارهم موحدين، يؤمنون بإله واحد، ثم يخلع على هذا الإله من صفات التنزيه ما لا يكون إلا في الإله الحق، مدعيًا أن

هذه هي عقيدة الهندوس في الإله^(١).

ومنهم من يكتب عنهم باعتبارهم مثلثين مشركين - كما هو الحق.

ومنهم من يكتب عنهم باعتبارهم يدينون بوحدة الوجود، وهذا أيضًا حق.

ومنهم من يكتب عن الهندوس على أنهم يدينون بآلاف من الآلهة^(٢).

والقارئ لهؤلاء وأولئك يتيه في أودية الآراء المتناقضة. والخروج من هذه الحيرة، أو الاضطراب لا سبيل إليه إلا بالكتابة عن موضوع الألوهية مفصلاً، وبيان الآراء في هذا الموضوع، ثم بيان الحق من هذه الآراء، ومرادنا من كلمة (الحق) هنا هو: الواقع، وليس الحق بمعنى الصواب المقابل للباطل؛ لأن آراءهم جميعها باطلة، بل الأديان كلها باطلة، والحق الصواب من بينها واحد هو دين الله الإسلام.

نعود - إذن - لنقرر الواقع بين هذه الآراء، أو الاتجاهات الثلاثة التي ذكرناها، والتي يذهب إليها مؤرخو الهندوسية في تقرير عقيدة الهندوس في الألوهية:

الاتجاه الأول: والذي أشار إليه كثيرون، والذي يقول: إن الهندوس موحدون، يعبدون إلهاً واحداً لا شريك له، وهذا الاتجاه، أو هذا الرأي أول من نشره وأذاعه هو (أبو الريحان البيروني) في كتابه «تحقيق ما للهند من مقولة،

(١) وذلك مثل: البيروني في كتابه القيم: «تحقيق ما للهند من مقولة» (ص ٣٠ - ٣٢)، وقد أشرنا إلى ذلك قبل ذلك.

(٢) وذلك كما كتب حبيب سعيد في كتابه: «أديان العالم»، وغيره كثيرون.

مقبولة في العقل أو مردولة» حيث ذهب إلى أن المثقفين الهندوس «محددون في الألوهية، وأنهم يؤمنون بإله واحد لا شريك له، ولا نَد ولا مثل له، يدبر الوجود، يحيي ويميت، هو الأول والآخر»، إلى آخر هذه الصفات التي لا تنطبق إلا على الإله الحق، ثم قال: أمّا العوام فهم مشركون مثلثون، وقد أخذ هذا الكلام عن البيروني كثيرون من الكتاب عن الهندوسية.

ونحن مع تقديرنا للرجل - رحمه الله - لم نجد لرأيه هذا واقعًا ينطبق عليه في حياة الهندوس، وقد عايشناهم في بلادهم - الهند - وخارج بلادهم بباكستان - وهي لصيقة بهم - وفي بعض البلاد العربية التي يعملون بها، فلم نجد بينهم موحدين بالمعنى الذي قال به البيروني، ولا قريبًا من ذلك، ولقد زرنا معابدهم بالهند، ووجدناها ناطقة بعبادتهم الآلهة الثلاثة - براهما، سيفا، فشنو - ولم نجد لا في المعابد ولا على أرض الواقع من عقائدهم ذلك التوحيد الذي أشار إليه البيروني - رَحِمَهُ اللهُ.

قصارى ما يقال عن هذه العقيدة التوحيدية التي أشار إليها البيروني: أنها تشير إلى فريق من المؤمنين بالآلهة الثلاثة - براهما، سيفا، فشنو - والذين يؤمنون بأن هذه الأسماء الثلاثة ليست لآلهة متعددين، بل هي لإله واحد هو براهما، وأن هذه الأسماء هي لوظائف ثلاث يقوم بها، فهو براهما من حيث كونه خالقًا، وهو سيفا من حيث كونه مهلكًا ومدمرًا، وهو فشنو من حيث كونه حافظًا ورحيمًا، فهو - إذن - إله واحد له وظائف ثلاث، لكل وظيفة يقوم بها له

اسم يدل عليها.

وقد أشرنا نحن إلى هذا عند حديثنا عن الإله براهما وأن اتباعه يتبعون في وصفه وعبادته طريقتين، وقد ذكرنا هذا الرأي عند الكلام عن الطريقة الأولى لَكِنَّا بَيِّنًا هناك، ونبين هنا- كذلك- أن هذا الرأي الذي يطلق أسماء الآلهة الثلاثة على إله واحد هو براهما، ويدمجون الإلهين الآخرين- سيفا وفشنو- فيه، ويجعلونهما مجرد وظيفتين له. بينا أن هذا الرأي لا يكاد يقول به أحد من الشعب الهندوسي، وإن قال به أحد فليس من الشعب الهندوسي، ولكن قد يكون ممن نسيمهم (فلاسفة مصلحين)، وهؤلاء لا يحسبون على الهندوسية ولا يحسبون على الهندوس.

أما الهندوسية فتقرر وجود ثلاثة آلهة، وتصرح بذلك في جميع كتبها المقدسة، ولا تتكلم أبدًا عن إله واحد له وظائف وأعمال، كذلك نجد معابدها ودور عباداتها تقرر هذه الحقيقة، ولا تدع عليها ظلاً من شك، فهناك تماثيل لبراهما، وتماثيل مختلفة تماماً لسيفا، وثلاثة تخالف السابقين لفشنو، كما أن هناك معابد جمعت داخلها تماثيل للآلهة الثلاثة، وكل تماثيل صنع على هيئة تخالف الاثنين الآخرين، والأمر الذي لا يحتمل تأويلاً ولا تفسيراً يكمن في توجه الهندوسي في عبادته إلى الإله الذي يريده ويقصد التقرب إليه، فالبعض يتوجه بعبادته لبراهما، وهؤلاء قلة، ومعابد براهما قليلة كذلك بالنسبة إلى المعابد الخاصة بكل من الإلهين الآخرين.

هذا عن الهندوسية، وأما عن الهندوس فجميع أفراد الشعب الهندوسي يؤمن بهؤلاء الثلاثة قطعاً، لا يشذ عن هذا سوى فئة قليلة لا حساب لها بالنسبة لأفراد الشعب، وإذا ما عرضت حال هؤلاء على أي هندوسي فسوف يقرر بلا تردد أنه كافر بالهندوسية خارج عنها؛ فشان هؤلاء بالنسبة إلى الهندوس لا يختلف كثيراً عن الملاحدة الكافرين بالهندوسية.

الاتجاه الثاني: وأما الاتجاه الثاني والذي يقرر أن الهندوسية تقوم على الإيمان بثلاثة آلهة، كل إله منهم له عمل يقوم به، وأن بينهم تفاوتاً، فالأكبر، والأول، والخالق، والمدير هو براهما، لكنه - كما ذكرنا قبلاً - يعتقد الهندوس أنه خلق الوجود، وخلق الإلهين الآخرين، ثم دخل منذ آماذ بعيدة حالة من السكون والهدوء الذي لا يعكره شيء أما الثاني؛ فهو سيفا، وقد خلقه براهما من نفسه، وكلفه لأداء وظيفة بعينها هي التدمير والإهلاك، وقد وقف سيفا نفسه لتنفيذ ما كلفه به براهما؛ لأنه لا يملك إلا الطاعة والانقياد، أما الثالث؛ فهو فشنو، وقد خلقه الخالق (براهما) وأخرجه إلى الوجود جزءاً من نفسه، وكلفه بحفظ جميع الموجودات، ورعاية القيم والفضيلة، ونشر الرحمة والخير، وقد نفذ فشنو وينفذ كل ما أمره به خالقه براهما.

وهؤلاء الثلاثة الآلهة منهم كبيرهم براهما، وقد انفصل عنه كل من سيفا وفشنو، فهما جزءان عنه، وبعض منه، كما أن النفوس جزء منه، وكما أن الوجود كله من خلقه، وجزء منه؛ لذلك كل شيء من هذه الموجودات إذا حانت لحظة

فراقها هذا الوجود فإنها تتحد ببراها ليصيرا معًا شيئًا واحدًا.

وهذا الاتجاه هو الذي يدين به الهندوس جميعًا لا يشذ عنهم إلا من كانت له فلسفة خاصة خرج بها عن إجماع الهندوس، أو ابتدع بها شيئًا ليس في الهندوسية العامة التي يدين بها جميع المنتسبين إليها.

الاتجاه الثالث: وهو القائم على (وحدة الوجود)، فهو اتجاه معتبر في الهندوسية، ولا يعارض الاتجاه الثاني، بل هو يسير معه جنبًا إلى جنب، وقد نصصنا عليه وقررناه في كلامنا عن الاتجاه الثاني، فالهندوسية تقرر أن الوجود كله من براهما، وأن كل شيء في الموجودات جزء من براهما وقد انفصل عنه، فالعالم بأرضه وسماؤه خرج من بيضة كان فيها براهما، والعملاق الذي انقسم ذكرًا وأنثى ونشأ من تزاوجهما الكائنات كلها كان داخل البيضة، وكان فيها براهما، فهما منه، والنفوس من براهما، وسيفا وفشنو الإلهان هما من براهما، فالكل من براهما، وبراهما هو أصل الكل، وهذا هو معنى (وحدة الوجود) في الهندوسية.

وهناك - كما هو الشأن في كتب الفيدا المقدسة لدى الهندوس - أسطورة تقرر أن الآلهة الثلاثة: هم ثلاثة، وهم واحد.

تقول الأسطورة التي توجد في كتاب: (أليجا فاتا بورانا) المقدس لديهم: إن أحد الكهنة دخل أحد المعابد التي تجمع داخلها تماثيل للآلهة الثلاثة - براهما، سيفا، فشنو - ووجه إلى الثلاثة سؤالًا قائلاً: أيكم الإله بحق؟ وإلى من أتوجه

بعبادتي منكم؟ إلى براهما الخالق؟ أم إلى سيفا المهلك؟ أم إلى فشنو الرحيم الحافظ؟ وهنا سمع صوتًا خارجًا من الجميع يقول: أيها الكاهن الجاهل؛ ألا تعلم أننا نحن الثلاثة واحد، وأن من يعبد أحدها كأنه عبدنا كلنا، وأنه لا بأس عليك أن تتوجه بعبادتك إلينا جميعًا، أو على أحدها فإنها واصله إلينا جميعًا.

هذا هو اتجاه (وحدة الوجود) في الديانة الهندوسية الذي يعني: أن عقيدة الألوهية عندهم تقوم على الإيمان بثلاثة آلهة هم يرجعون إلى واحد، ذلك أن الثلاثة مصدرهم واحد هو براهما، وأنه هو نفسه أخرج سيفا من نفسه، ثم أخرج فشنو جزءًا من نفسه، كما أنه أخرج العالم، والنفوس من نفسه.

بل إن ثمة أسطورة أخرى جاءت بها قوانين (منو) التي لها منزلة عملية سامية لدى الهندوس، تؤكد هذه الأسطورة على وحدة الوجود، حيث تقرر أن الإله الأكبر براهما كما خلق الإلهين سيفا، وفشنو من نفسه - كذلك - خلق الهندو بطبقاتهم الأربعة من جسمه، وتقول قوانين منو: «إن براهما قد خلق طبقة البراهمن - رجال الدين - من فمه، ثم خلق الكاشترى - رجال الحكم - من ذراعيه، ثم خلق الويشيا - الزراع والتجار - من فخذيه، ثم خلق الشودرا - الخدم والعبيد - من قدميه» ومقتضى هذا أن جميع الموجودات هي جزء من براهما، وأن الكل منه، وأنه هو الكل.

ومع وجود كل هذه الأساطير الرمزية، والفلسفات الدينية، وآراء من يسمون (المصلحين)، فإن عقيدة جماهير الهندوس تقوم على الإيمان بالآلهة الثلاثة:

١ - براهما: الإله الخالق الرحيم، الذي خلق الكل، ثم أخذته حالة من السكون والهدوء والطمأنينة، بعد أن دبر كل شيء، ووكل الموت لسيفا، والحفظ والنجاة لفشنو لذلك قل أن يلجأ إليه الهندوس، وقل من يزور المعابد الخاصة به، والتي لا تزيد في الهند كلها عن بضعة عشر معبدًا، على خلاف الإلهين الآخرين اللذين تصل معابد كل منهما إلى أضعاف ذلك العدد، وكذلك زائروها.

٢ - سيفا: المهلك والمدمر، وقد تكلمنا عنه بما يكفي لتوضيح عمله ووظيفته، ولماذا خلقه براهما الذي نؤكد هنا أن سيفا - رغم أنه من خلق براهما، إلا أن قاصديه والزائرين إياه في معابده أضعاف أضعاف زائري براهما.

٣ - فشنو: الحافظ، وهو مثل سيفا، من خلق براهما، لكنه جاء لينشر السلام والرحمة ويحفظ الخلائق من بطش سيفا، وهو - كذلك - من خلق براهما، لكنه مقصود ومتبوع من أضعاف قاصدي براهما.



المبحث الخامس

عقيدة الألوهية عند الهندوسي العامي

ذكرنا أن الهندوسية ديانة فضفاضة، غير محددة الحدود بدقة، حدودها غير واضحة المعالم، وتعاليمها غير محصورة بوضوح سوى الهيكل الأساسي فيها، وهو يقوم على أمور معينة معدودة، وما عداها فمتروك لاختيار الهندوسي انطلاقاً من مشاعره الذاتية، ووجدانه الخاص، ونعني بالهيكل الأساسي الاعتقادات الأمهات في الهندوسية، وأهمها:

- ١- الإيمان بالآلهة الثلاثة: (براهما- سيفا- فشنو) ووظيفة كل المنوط به القيام بها.
 - ٢- التناسخ بين الموجودات، وستكلم عنه- بحول الله تعالى- في موضعه.
 - ٣- الكارما، أو عقيدة الجزاء، وستكلم عنها كذلك.
 - ٤- نظام الطبقات في جانبه النظري، ونتكلم عنه كذلك - بحوله تعالى.
 - ٥- ثم الانطلاق وهي عقيدة يعمل الهندوسي عليها ولها منذ يولد.
- وهذه الأسس سنتناول كلا منها- بحوله تعالى- في موضعه من البحث.

لكن يبقى إلى جانب هذه الأمور الأساسية في الهندوسية، والتي يجتمع عليها أتباعها الهندوس، أمور أخرى يدين بها أفراد الشعب الهندوسي تعتبر عقائد خاصة، ومقدسات فردية محددة بأصحابها، موقوفة على معتقديها، قد يشترك فيها الجماعة ذوات العدد، وقد تكون وفقاً على فرد، أو أفراد قليلين، وهذه يسميها المؤرخون للأديان (العقائد الشعبية)، وقد يطلق عليها البعض

(عقائد الرجل العادي)، أو: (عبادات الرجل العادي).

والأصل في هذا الخلط أن الهندوسية ديانة ليس لها منشئ، أو مؤلف خاص معين، بل هي عقائد مختلفة جاءت خليطاً من أديان الأمتين اللتين دخلتا الهند غازيتين: الطورانيين والآريين، مع أديان الشعب الهندي الأصيل - أعني: سكان الهند الأصليين - وحتى يمكن الجمع بين ديانات الطورانيين، ثم الآريين، ثم سكان الهند الأصليين، كان لا بد من أن تقوم الديانة الجديدة التي تجمع هذا الشتات كله على قدر كبير من التساهل، يجعلها مثل العبادة الفضفاضة تجمع تحتها الكثير من العقائد، وتشتمل على العديد من المذاهب والطقوس التي تختلف، أو تتدابّر.

كذلك كانت الهندوسية اسمًا لدين واحد، بينما هي في واقع أمرها أديان متعددة، شتات من مذاهب وآراء متعددة، فكان في الهندوسية جانبان:

الجانب الأول: يمثل الوحدة، أو الاتحاد والاتفاق بين أتباع الهند من الهندوس، وذلك يتمثل في الأسس التي ذكرناها قبلاً، والتي يدين بها الهندوس جميعاً.

الجانب الثاني: يتمثل فيه الاختلاف بين مذهب وآخر، وبين ثقافة وأخرى، أو بين مثقف وعامي، وهذا، مكمّن الخلاف ومناطه، فاختلاف الثقافات بين المثقفين، أو اختلاف المستوى الثقافي والتعليمي بين المثقف والعامي، والمتعلم والجاهل هذا وغيره يؤدي - بالضرورة - إلى اختلاف في المعتقدات غير الأصلية، أو الأساسية، من هنا جاء اختلاف المعتقدات في الآلهة والمقدسات بين طوائف الهندوس.

ويتضح هذا من الأمثلة والنماذج التي تقرب بها هذه الحقيقة، والتي نبدأ بها من قمة الهرم في الشعب الهندوسي:

أولاً: طبقة المثقفين ثقافة عالية: وهؤلاء ينحون منحى التوحيد في الألوهية، وبخاصة إذا كان من هؤلاء من درس في البلاد الأوروبية والتوحيد عند هؤلاء يتمثل في صورتين:

الصورة الأولى: أن يجعلوا الآلهة الثلاثة وظائف ثلاثاً لإله واحد، فبدلاً من أن يكون الخلق لبراهما، والتدمير والإهلاك لسيفا، والحفظ لفشنو، وهؤلاء ثلاثة آلهة منفصلين تكون هذه وظائف ثلاثاً لإله واحد، وله ثلاثة أسماء لكل عمل من الأعمال الثلاثة اسم خاص به، فالإله واحد، وله ثلاثة أسماء، فهو براهما باعتباره خالقاً، وهو سيفا باعتباره مهلكاً، وهو فشنو باعتباره حافظاً، لكنه واحد وليس ثلاثة، وقد سبق ونبهنا على ذلك الاتجاه أكثر من مرة.

الصورة الثانية: أن يكون التوحيد عندهم ممثلاً في الاعتقاد بـ (وحدة الوجود) فالإله واحد، وكل مَنْ عَدَاهُ وما عداه مظهر له، وجزء منه، فالوحدانية هنا لم تشمل الآلهة: سيفا وفشنو فقط، بل شملت الوجود كله، فالألوهية تتمثل في أن كل شيء هو جزء من (براهما) منه يخرج وينفصل، وإليه يعود ويتحد.

ثانياً: طبقة أنصاف المثقفين: وهؤلاء يؤمنون بالآلهة الثلاثة: براهما-سيفا-فشنو ويترددون على معابدهم، ويقدمون القرابين المناسبة لمستواهم المعيشي، وعندهم - إلى جانب ذلك - المقدسات الخاصة والعامة.

وهذا شأن الجمهرة الغالبة من المثقفين الهندوس، فهم يقفون بعقيدتهم في

الألوهية عند الثلاثة المعروفين، وإن كانوا يميلون إلى بعض الأسماء التي يطلقونها على بعض هؤلاء الآلهة، مثلاً إطلاقهم اسم: (كريشنا) على فشنو، وكذلك يسمونه (راما)، وهذه أسماء لنفس الإله فشنو.

ثالثاً: طبقة العوام: وهم الهندوس العاديون، وهذه الفئة هي الجماهرة الغالبة من الهندوس، وهي تمثل من الشعب الهندوسي ما يزيد على الثمانين بالمائة، وكلمة (الرجل العادي) لا تعني - دائماً - التدني في المستوى الثقافي، وإنما تعني: الذي يدين بما يدين به الهندوس، دون أن يقحم الفلسفة أو التفلسف على العقيدة.

وهؤلاء يدينون بما يوجههم إليه رجال الدين (البراهمن) ويطيعونهم دون مناقشة، أو اعتراض، ومن هؤلاء من هو على قدر عالٍ من الثقافة، ولكنه قد أقنع نفسه بالهندوسية على ما يبين له رجال الدين (البراهمن).

كثرة الآلهة عند طبقة عوام الهندوس: يلاحظ أن الفئة الثالثة - وهي الجماهرة الغالبة من الهندوس - لا يقفون بعقيدتهم في الألوهية عند الآلهة الثلاثة براهما، سيفا، فشنو، لكنهم بعد اتفاقهم على هؤلاء الثلاثة، وعلى وظيفة كل منهم، وعلى الطقوس والقرايين الخاصة بكل منهم، فإنهم يدينون بآلهة أخرى كثيرة، هي أقل درجة من الآلهة الثلاثة، لكنها أكثر قرباً، وأسرع استجابة للهندوسي المؤمن بها، وهذه الآلهة ليست واحدة عند الجميع، ولا هي متفقاً عليها وعلى تأثيرها لدى أتباعها، بل منها بعضٌ آلهةٌ مشتهرة عند الكثيرين، وبعضٌ لا يدين به إلا القليل، ومنها آلهة يدين بها قلة قليلة لا تذكر.

وهؤلاء الآلهة هي - كما ذكرنا - أقرب إلى المقدسات الخاصة منها إلى الآلهة؛ لذلك كثرت أعدادها بشكل شاذ وغريب إلى حد أن بعض المؤرخين للهندوسية يذكر أن عدد الآلهة فيها يبلغ مئات الملايين، وبعضهم يقدر عدد الآلهة بثلاث تعداد الشعب الهندوسي، وهذا التقدير لا يمكن قبوله إلا إذا كان المراد به المقدسات الخاصة التي ذكرناها في مكانها قبلاً، وقد ذكرنا هناك أن الهندوسي، أو حتى الهنديّ العادي - وإن لم يكن هندوسياً - قد يقدر، أو يعظم ويتعبد لكومة من الحجارة، أو لشجرة كبيرة، أو لبئر ماء، ومن أمثلة هذه المقدسات، أو ما يعده المؤرخون آلهة:

١ - إله اسمه (جانيش) وهو ابن الإله (شيفا)، ويتجسد في (الفيل الصغير)، ويسمونه: (الإله الفيل)، وهو يقدم نوعين من المنافع العظيمة للهندوسي، فهو يمثل القوة الحيوانية للرجال، فإذا ما أحس الرجل بضعف لجأ إلى الإله الفيل بالقرايين، ثم هو كذلك يعتبر (طَلْسَمًا) يقي حامل صورته من المصائب والحظ السيئ.

٢ - (أرجونا) تلميذ كرشنا - فشنو - وهذا الإله أرجونا كان تلميذاً محبباً لكريشنا، وكان يساعد كريشنا على أعمال الخير في شفاء الصم والبكم والعمي، ويساعد الفقراء، ويدافع عن الضعفاء، لكن أعداءه تمكنوا منه فقتلوه، قيل: مطعوناً بسهم، وقيل: مات مصلوباً على شجرة، ومع ذلك فقد هبط إلى جهنم فأنقذ من فيها، ثم صعد إلى السماء فاتحد بأبيه براهيم، ثم يعود في اليوم النهائي ليحاسب الكل.

٣- (لاكشيمي، أو سيتا) وهذان اسمان للإلهة واحدة هي زوجة فشنو، وقد حسده الشيطان عليها حين تزوجها، فقام باختطافها، وبحث عنها زوجها فشنو، واستعان بملك القروود الذي قام بالبحث عنها من فوق رؤوس الأشجار حتى عثر عليها، وقامت حرب بين الشيطان وفشنو، فقتل فشنو الشيطان واسترد زوجته، وقد أدخلها في اختبار ليعرف هل اتصل الشيطان بها فلما ثبتت طهارتها عاش معها في سعادة.

٤- (شاكُتي، أو كالي) وهي زوجة سيفا، وهي محبوبة من الهندوس، على عكس زوجها الذي يمثل كل ما يخافه البشر، وهي على نقيض زوجها الذي يتركز عمله في الإهلاك والقضاء على الموجودات، هي تمثل القوة الجنسية، والرغبة الشديدة في الإنسال والإنجاب؛ لذا فإن المحرومين من الإنجاب والعاقرات يتقربن إلى الإلهة كالي لتساعدنهم، أو تساعدن على الإنجاب.

٥- وإلى جانب هؤلاء الآلهة التي يصعب حصرها، والتي هي عندنا تدخل في باب (المقدسات الخاصة) هناك آلهة كثيرة، أو مقدسات كثيرة، يقدها الهندوسي اتقاء شرها، أشهرها النمور، والقردة، والأفاعي، فكلها تمثل خطرًا على الهندوسي، بل على الهندي بعامه؛ لذلك يتقدم إليها الهندوسي بالتقديس والتعظيم.

«وأشهر الأفاعي التي تمثل الخوف والرغبة، ويقدها الهندوسي؛ أفاعٍ يسمونها: (ناجا)، فهذا النوع من الأفاعي يعد الأخطر في الهند كلها.

وهي لكي تقتل إنسانًا لا تحتاج أن تعضه، يكفي فقط أن تركز عليه عينيها

فيموت لذلك. فالهندوس بل الهندود يقيمون حفلاً دينياً كل عام في وقت معين يحتفون فيه بهذه الأفعى، ويقدمون لهذه الأفعى ومثيلاتها من الأنواع الأخرى القرابين من اللبن والموز التي يضعونها عند مداخل جحورها. وأكبر مراكز عبادة الأفاعي، أو تقديسها في شرق مقاطعة (ميسور) بالهند، ففي المعابد التي يصنعها الهندود لهذه الأفاعي تسكنُ جموعٌ لا تحصى من هذه الأفاعي يقوم كهنتها هناك بإطعامها والاهتمام بها»^(١).

مما تقدم يتضح مدى الاتساع، بل التَّرهُّل وانعدام التحديد والضبط في العقائد الهندوسية، وبخاصة في عقيدة الألوهية.

لكن خلاصة القول: أن الهندوسي يؤمن بثلاثة آلهة، ثم إلى جانب هذه الثلاثة هناك أعداد لا حصر لها من الآلهة، أو المقدسات يرجع تقديسها وتعظيمها إلى الأشخاص والأفراد.

فالاتفاق بين اتباع الهندوسية في شيئين:

الأول: الآلهة الثلاثة: براهما - سيفا - فشنو -.

الثاني: المقدسات العامة، مثل: البقرة -، نهر الجانج.

أما الاختلاف ففي المقدسات الخاصة التي يطلق عليها البعض اسم: الآلهة، ونجد نحن أنها أحق بأن نسميها مقدسات خاصة.

والهندي بعامة، والهندوسي بخاصة سهلٌ عليه، بل من الأمور العادية عنده

(١) انظر: «أديان العالم» (ص ٨١ - ٨٢)، «قصة الديانات» (ص ٩٦ - ٩٨)، موسوعة «الأديان في

العالم» (ص ٩١).

أن يقدس أي شيء، أو حتى يرفعه إلى مرتبة المعبود إن هو رأى فيه ما يخيفه ويرهبه، أو ما ينفعه ويصلح حاله، والأمر في ذلك عام يصدق على جميع مظاهر الطبيعة وظواهرها، كما يصدق على جميع الكائنات، وأعظمها في تأثيرها على الهندي، أو الهندوسي، وما يمثله له من نفع يجلبه، أو ضرر يدفعه، وليست هنالك قاعدة جامعة تنضبط على اثنين فأكثر، بل كل إنسان هو وظروفه، وما يشعر به تجاه ظواهر الطبيعة، أو تجاه الكائنات؛ لذلك تفاوتت مواقف الهندوسي تجاه الأشياء، فواحد يرى حية فيقتلها، وآخر يخزُّ أمامها ساجدًا عابدًا، والبعض يرى فأرًا فيقدسه، وآخر يقتله، ومثل ذلك يقال في جميع ظواهر الطبيعة وأشياءها.

وليس أدل على اختلاف الهندوس في تأثيرهم بالأشياء، واختيار كل ما يناسبه ويراه الأولى بالتقديس والعبادة؛ من أن أشهر امرأة في تاريخ الهند الحديث كان اسمها: (أنديرا غاندي)، وكلمة (أنديرا) اسم لإله الهواء، فالهواء ظاهرة طبيعية تجلب الخير وتدفع الشر، قد تشتد فتكون عاصفة تهلك الحرث والنسل، وقد تخف فتعطي جواً طيباً، وهي التي تُسير السحاب، وتجلب الأمطار... إلى غير ذلك، وقد أطلق اسم إله الهواء على هذه المرأة تقديساً لهذا الإله وتقرباً إليه.

ومما ينبغي التنبيه إليه: أن الآلهة الأساسية الثلاثة: براهما - سيفا - فشنو، لها معابدها الخاصة بها جميعاً، أو بعضها.

وهذه المعابد عامة يقصدها الهندوس جميعاً، أما الآلهة والمقدسات

الخاصة فالمكان الذي توضع فيه تماثيلها إنما هو البيت، بيت الهندي، فليس هناك - عادة - معابد للمقدسات الخاصة سوى البيوت؛ لذلك لا يخلو بيت من بيوت الهنود من إله، أو آلهة، هي التي نسميها مقدسات خاصة.

يختار الهندي إلهه، أو الشيء الذي يقده، ثم يقيم له تماثلاً في بيته، يتقدم له صباحاً ومساءً بالقرابين التي يحبها، ويقدم له فروض الطاعة والولاء، ويطلب منه ما يحتاجه هو وأولاده، كما يعتبره الحارس الأمين على بيته وأولاده وحيواناته.



المبحث السادس

نشأة الكون في الديانة المندوسية

بعد الحديث عن الألوهية والآلهة، يأتي الحديث عن الموجودات سوى الآلهة، والتي تشارك الآلهة الوجود، والتي لا بد أن تكون الآلهة قد أوجدتها وأسبغت عليها رعايتها وعنايتها، وأن تكون بحكمتها قد نظمت لها حياتها، وقَعَدَتْ لكل ما يتصل بها من أمور حياتية معيشية، ثم رتبت في نهاية المطاف نهايتها.

وبدهي أن يكون الحديث عن الموجودات التي صنعتها الآلهة إنما هو مستمد من الأساطير التي أشرنا إلى أن الأديان الباطلة الوضعية قد استمدت منها، وقامت عليها.

لكنَّا قبل أن ندخل في الكلام عن تلك الموجودات، والأساطير التي استمدت منها نرى أننا نلاحظ على هذه الأساطير التي تستقى منها الأديان ملاحظتين هامتين:

الملاحظة الأولى: أن هناك تشابهاً كبيراً بين بعض الأساطير المكونة للعالم، أو التي تتصل بنشأة العالم، وهذا التشابه يكاد في بعض جوانب هذه الأساطير يكون متطابقاً، وذلك مثل اتفاق هذه الأساطير جميعها على أن الأصل السابق لجميع مظاهر الكون كان هو (الماء)، وأن الموجودات جميعها إنما نشأت من الماء، أو على الماء، فالماء في جميع الأحوال هو الأصل السابق على الموجودات.

الملاحظة الثانية: أن هذا التشابه الذي يصل أحياناً إلى حد التماثل والتطابق بين هذه الأساطير يدل على الأصل المشترك لهذه الأساطير، وأن لها أصلاً

إلهياً عن الرسائل السابقة التي أنزلها الله تعالى على الأمم السابقة، والتي يؤكد وجودها وشمولها للأمم قول الله ﷻ: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

نعود إلى الحديث عن نشأة الكون في عقيدة الهندوس، فنلاحظ أن هناك أساطير كثيرة حول هذا الموضوع، منها: ما ورد في «قوانين منو»^(١)، ومنها: ما ورد في كتبهم المقدسة الأخرى، وبخاصة في «الأوبانشادات Upanishads»^(٢)، ونحن ننقل هنا بعضاً من هذه الأساطير.

ففي قوانين (منو) وردت الأسطورة الآتية:

في البدء كان براهيم يعيش وحده، ولم يكن معه شيء على الإطلاق، وكان الوجود كله ظلاماً حالماً لا يرى فيه شيء قط، وذلك لأن الوجود كان ظلاماً، ثم؛ لأنه لم يكن هناك من يرى لم يكن هناك إلا براهيم، وظل الأمر على ذلك آماداً طويلة لا يعرفها إلا براهيم نفسه، ثم شعر براهيم بالوحدة، وشعر بأنه بحاجة إلى شيء ثان يشغل شيئاً من هذا الفراغ الهائل، ومن ثم بدأ يشعر ويريد أن يخلق شيئاً هو الوجود، ومن ثم بدأ بخلق النور، وبثه في ظلام الوجود، فاستنار الوجود بنور براهيم، وذهب الظلام، ثم خلق أول ما خلق الماء، فكان الماء أول مخلوق شغل حيزاً من الفراغ الهائل الذي كان يحيط ببراهيم.

(١) (منو): مصلح ديني عاش قبل الميلاد ببضعة قرون، استخلص تعاليم الويدات ولخصها في قوانين محددة سميت: (قوانين منو)، وسيأتي الكلام عنها عند الحديث عن كتبهم المقدسة - بحوله تعالى.

(٢) قسم من أقسام أربعة تُقسَّم إليها الكتب المقدسة الهندوسية (الويدا)، وسيأتي الكلام عنها عند الكلام على كتبهم المقدسة - بحوله تعالى.

وقد ظل الماء آمادًا لا يعلمها إلا براهما، ثم أراد خلق هذا الوجود الذي نحن جزء يسير منه، فكان أن وضع في الماء (جرثومة) هي أصل هذا الوجود، وقد تحولت الجرثومة إلى بيضة لأمعة لمعان الذهب، ثم طفت على سطح الماء، فكان هناك الماء والبيضة طافية على سطحه، وظل الأمر كذلك (سنة براهيمية)، والسنة البرهيمية تعدل ملايين السنين بسنواتنا نحن.

وكانت هذه البيضة الطافية على سطح الماء تحمل في داخلها (صورة براهما) حقيقة براهما، ثم قسم براهما هذه البيضة قسمين: كان القسم الأول منهما هو السماء وما تحتوي من نجوم وكواكب وكائنات، أما القسم الثاني؛ فقد صنع براهما منه الأرض وما بها من أنهار وبحار ومحيطات، ومخلوقات بشرية وحيوانية... وغير ذلك.

وفي أسطورة أخرى تحكيها (الأوبانيشاد) تقول: إن براهما خلق الماء، ثم خلق الأرض والسماء والكواكب والنجوم والأفلاك، لكنه لم يكن يشعر بالسعادة. ومن هنا ننقل النص عن براهما قوله: «أنا أقوى من السماء، وأعظم من الأرض، وأرفع من كل هذه الأجرام حولي، أنا أعلى من جميع الأشياء، أنا الكل في الكل، أفعل ما أريد، وأخلق كل ما يخطر لي، أنا جوهر هذا العالم الواحد الشامل، لست بالذكر ولا بالأنثى، إنما أنا روح غير مشخص في صفاته، أحتوي كل شيء، وأكمن في كل شيء، لا تدركني الحواس؛ لأنني أنا حقيقة الحقائق، أنا براهما»، ثم تكمل الرواية، فتقول: «لكنه مع كل أوصافه ومكانته التي ذكرها لم يكن سعيدًا، ولم يكن يشعر بالسرور، كان يحس بأنه ينقصه شيء ما، كان يمقت تلك الوحدة التي هو فيها، وذلك الفراغ الهائل الذي يحيطه؛

لذلك صنع ذلك الشيء الذي كان ينقصه، والذي يخفف عنه وحدته».

ويديه صنع براهيمًا تمثالًا هائلًا، عملاقًا كبيرًا، وشطره نصفين، فجعل نصفًا ذكرًا، وجعل النصف الثاني أنثى، ووضعهما على الأرض، وزاوج بينهما، فكان في الأرض أول زوج وزوجة، ولا تنسى الأسطورة أن تذكر أن الأصل في ذلك العملاق أنه ذكر، ولما انشق نصفين، خرج منه ذلك النصف أنثى، فالأنثى في الأسطورة إنما جاءت عن الذكر، أو نشأت من الذكر، ولذلك تكمل الأسطورة فتقول إن المرأة نظرت إلى زوجها فوجدت فيه سرًا لم تفهمه، وتساءلت: «كيف استطاع ذلك العملاق أن يخرجني من نفسه، ثم يخرج مني كل هذه الكائنات؟»

ولكي تهرب منه المرأة حوّلت نفسها إلى بقرة، حتى لا يستطيع أن يعاشرها ويُخرج منها كائنات أخرى، لكن الرجل كان في إمكانه أن يصنع نفس الشيء، فحوّل نفسه إلى ثور، ثم عاشرها، فتولّد من ذلك أنواع البقر والجاموس، وما شابه. ثم حولت المرأة نفسها إلى فرس، فحول هو نفسه إلى حصان وعاشرها، فجاء ذوات الحوافر، ثم حولت نفسها إلى عنزة، فانقلب تيسًا، ونشأ عن ذلك الخراف والماعز، ثم سار الأمر على ذلك، حتى امتلأت الأرض بجميع الكائنات حتى النمل والحشرات.

ومن هنا بدأت قصة الخلق الأرضي كما يراها الهندوس، هذه القصة التي قام بها براهيم الإله الذي هو روح العالم، عندما خلق أول البشر، الذي يطلق عليه في الهندوسية اسم: «مانو»^(١).

(١) انظر: «قصة الديانات»، سليمان مظهر (ص ٨١-٨٢).

بان مما تقدم أن أول الخلق من البشر كان اسمه (مانو)، وأنه قد صاحبه في الوجود الأرضي جميع الحيوانات التي خلقها براهيماً على الأرض، والتي يتضح من سياق الأسطورة أنها جميعاً- الحيوانات والحشرات- قد خلقت بعد أن خلق براهيماً الإنسان الأول (مانو).

وهذه الرواية بهذا الترتيب مخالفة لبدهيات الأمور، بل هي قلب للحقائق، فإنه من المسلمات أن الإنسان هو آخر الموجودات على الأرض، وأن الحيوانات كانت موجودة قبله، وذلك مطابق للقاعدة البدهية التي تقول في نظرية الخلق: «كل مخلوق محتاج في وجوده إلى شيء، فذلك الشيء- بالضرورة- مخلوق قبله»، فالنبات محتاج في وجوده إلى الماء، فالماء موجود قبله، والحيوان محتاج في وجوده إلى الماء والنبات، فالماء والنبات موجودان قبله، والإنسان محتاج في وجوده إلى الماء والنبات والحيوان، فهذه كلها- الماء والنبات والحيوان- موجودة جميعها قبله؛ لذلك كانت القاعدة: «كل موجود محتاج في وجوده إلى شيء، فذلك الشيء موجود قبله» من هنا كان طبعياً أن نقرر: أن الأسطورة التي جاءت في (الأوبانيشاد) من (الفيدا) غير صحيحة إلا إذا كانت الرواية لا تعني الترتيب، بل السرد دون ترتيب، وفي جميع الحالات نحن لا ننظر إلى الأساطير على أنها دقيقة وصادقة، أو حتى مقبولة نوعاً دون دقة ولا صدق، وإلا لما كانت أسطورة.

ومن خلال هذه القاعدة- وهي أن الأساطير أمور تقريبية لا تنبني على الدقة- وترتيباً عليها نكمل ما جاء في (الأوبانيشاد) من أسطورة حول خلق الأرض والسماء وطبقاتها الواحدة والعشرين.

تقول الأسطورة: «ولولا التضحية لما كانت هذه الأرض، ولما كان هذا العالم، فمن جسد رجل عظيم خلقت الأرض، وكان هو رجلاً هائلاً ضخماً ضحي بجسده على مذبح الآلهة، ورضيت الآلهة عنه فحولت جسده إلى ذرات صغيرة متفرقة، ثم عادت لتلتئم من جديد وتتحد جزئياتها وتترابط، ومن هذا الاتحاد تكونت الأرض وكل ما يحيط بها من يابس وماء، وأنهار وجبال».

وهذا الجسد العملاق هو الكائن الذي كان داخل بيضة براهيم التي أشرنا إليها قبلاً، والتي خلق منها براهيم السماوات والأرض، ثم تضيف الأسطورة: «لهذا لم تكن الأرض سوى جزء واحد من هذا الكون الذي يتكون من واحد وعشرين جزءاً - أو طبقة - كل سبع طبقات منها تكون عالماً قائماً بذاته.

أما السبع طبقات العليا فمنها طبقة يعيش عليها (مانو) أبو البشر، وكل من تناسل منه من أولاد وأحفاد، وفوق هذه الطبقة ست طبقات هي السماوات الست بسكانها وما خلق فيها براهيم، وهي مسكن براهيم والإلهين، أو هي مسكن الآلهة، فالأرض التي عاش عليها مانو وأحفاده هي في الطبقة السابعة من بيضة براهيم، وفوقها ست طبقات هي السماوات.

يأتي تحت هذه الطبقات السبع سبع طبقات أسفل منها هي مسكن الحيات والحشرات والحيوانات، وهي خالية تماماً من البشر الذين لا يستطيعون الحياة فيها، لأنها مليئة بالسحر والغموض والطلاسم، رغم ما تحويه من كنوز مخبأة وثرورات.

وتحت هذه الطبقات الأربع عشرة سبع طبقات أخر، يطلق عليها اسم (نراكا) وهذه الطبقات السبع السفلى هي (جهنم) التي يعذب فيها كل المخلوقات التي تعيش في السبع طبقات الوسطى، التي هي الحيوانات والحيات، حيث

تتعذب وتصلى نار هذه الطبقة (نراكا) لتكفر عن ذنوبها التي ارتكبتها، فإذا ما كفرت عن ذنوبها صعدت إلى مستقرها من السبع الوسطى لتزاول حياتها بعد أن تطهرت. هذه الطبقات الواحدة والعشرون هي وحدات كونية يدور بعضها حول بعض، ثم تدور كلها في فلك معين، وهي تدور دورات متتالية، لكن ليس إلى لا نهاية، بل لها نهاية حين تصل في نهاية دوراتها إلى الدورة الرئيسية وهي تسمى: دورة (الكلبا)، التي تتم فيها دورة براهما، أو يوم براهما الذي استمر مائتين وأربعة آلاف مليون سنة ٢٠٤٠٠٠ مليون من سنوات البشر»^(١).

ويبقى السؤال: هل ينتهي الوجود عند انقضاء مائتين وأربعة آلاف مليون سنة ويفنى كل شيء؟ أم هناك دورات أخرى لوجود آخر؟

إن أسفار (الأوبانيشاد) تذكر أن العالم عندما ينهار بعد انقضاء هذه الآلاف من ملايين السنين، وتحيط به الحرائق والفيضانات والانهارات، ويوشك على الفناء، يدركه الإله (فشنو) فيحول دون انهياره كلية، ويطفى النيران، ويمنع الفيضانات، وبدلاً من فناء العالم ينتقل الوجود كله إلى ما تطلق عليه الأسطورة (العصر الذهبي) الذي يتولى رعايته الإله (فشنو).

هذه الأساطير التي تفسر وجود الكون، وخلق العالم وما فيه، ومن فيه عن الإله الخالق عند الهندوس، هي أساطير تعبر عن أديان، لا دين، وتصدر عن مذاهب كثيرة وليس عن مذهب واحد، ولقد عرفنا أن الهندوسية قد نشأت نتيجة امتزاج واختلاط أديان الطورانيين، ثم الآريين، بالدين، أو الأديان السابقة

(١) انظر للمزيد: قصة الديانات، الأسفار المقدسة، أديان العالم.

عليها وهي أديان السكان الأصليين بالهند قبل مجيء الشعبيين الغازيين. نقول هذا ونُذَكِّرُ به حتى لا يأخذنا العجب، أو تستولي علينا الحيرة من اضطراب واختلاف الأساطير التي تتكلم عن نشأة العالم عن براهما، ثم عن نهاية العالم، وعن دار الجزاء التي أطلق عليها في الأسطورة التي معنا (نراكا). ثم إننا نُذَكِّرُ - أيضًا - بأن الأسفار المعتمدة في الديانة الهندوسية تذكر نهاية، أو نهاياتٍ أخريات للعالم غير التي ذكرتها الأوبانيشاد، فالبعض في أسفار الفيدا تذكر أن النفوس التي انفصلت عن براهما ونزلت بالإنسان، سوف تتجول تناسخًا بين الطبقات، ثم ينزل بعضها إلى الحيوانات، بل والحشرات، حتى إذا انتهى تجوالها عادت فاتحدت ببراهما، حتى إذا اكتمل اتحادها جميعًا ببراهما، انتهى العالم، واكتمل الوجود، وهنا تأتي رواية تقول: يفنى كل شيء، وبعضها يقول: بل يبدأ الوجود دورةً جديدةً مماثلة للسابقة، وهذه أمثلة قليلة من كثير من التضارب بين روايات الأساطير الهندوسية في هذا المجال ننبه إليها لنعرف سبب هذا التضارب، الذي أهمه أنها: إفرازاتُ عقلٍ جاهليٍّ بعيد عن نور الوحي المعصوم للدين الحق، ثم تعدد المذاهب والآراء والأديان التي أشرنا إليها، وسيأتي - بحوله تعالى - مزيد تفصيل في هذا عند الحديث عن التناسخ والكارما.



المبحث السابع

الفوارق الطبقيّة في الديانة الهندوسية

إن أهمّ العقائد والتشريعات في الهندوسية، يتصل بالفوارق الطبقيّة بين الشعب الهندوسي، بل الهندي بعامّة، وتكريس التفرقة العنصرية بين أتباع الديانة الهندوسية، والاعتقاد بأنّ الهندوس ليسوا على مستوى واحد في الإنسانية، وليسوا في مرتبة واحدة في المجتمع الهندوسي، بل ليسوا أحرارًا متساوين في الوظائف والأعمال التي يزاولونها، بل هناك تفرقةً عنصريّةً، وفوارق طبقيّة بين أفراد الشعب الهندوسي، وهذا نظام يختلف لدى الهندوس عنه عند غيرهم؛ إذ إنه من المسلم به أن كلّ مجتمع، وكلّ شعب، أو أمة يوجد فيها فوارقٌ بين أفرادها، حيث فيهم الحاكم والمحكومون، وفيهم الغنيّ والفقير، والخادم والمخدوم، ورؤساء الوظائف العامة والمرؤوسون كلّ مجتمع بشري، وكلّ أمة، أو شعب فيه هذه التفرقات والاختلافات، لكن الذي نتكلّم عنه في الهندوسية شيء آخر، يختلف عن هذا الذي ذكرناه، أو أشرنا إليه عند الشعوب الأخرى في أمور أهمّها:

- ١- أن الفوارق والاختلافات في الأمم الأخرى تأتي عرضًا، وتخضع لعوامل اجتماعية ليس أكثر، أما نظام الفوارق في المجتمع الهندوسي الذي يسمّى: (نظام الطبقات) فليس نظامًا اجتماعيًا فقط، ولا هو نظام اقتصادي، أو

سياسي، ولكنه متأثر بهذه العوامل كلها مجتمعة، مضافاً إليها أهم العوامل المؤثرة فيه، وهو العامل الديني العقدي.

فالتطبقات في الهند نظام عنصري يضرب بجذوره في أصول المجتمع البشري الهندوسي، ويخضع له، ويتأثر به جميع أنظمة المجتمع سياسياً، واقتصادياً، واجتماعياً، ودينياً.

٢- أن الفوارق في المجتمعات البشرية قائمة على التغير والمرونة، وقابلة دائماً وفي كل ظرف للتحويل من حال إلى حال، ومن مستوى إلى مستوى، فقد يصير الحاكم محكوماً، والرئيس مرؤوساً، والخادم سيّداً مخدوماً، وهكذا. لكن نظام الطبقات في الهندوسية نظامٌ حديديّ، لا يقبل تغييراً ولا تحويلاً، فالخادم خادم أبداً، والجندي جنديّ أبداً، ورجل الدين كذلك أبداً، والذي يولد في طبقة الخدم- الشودرا- يظل من طبقة الخدم ولو احتاز مال قارون، فالتطبقات في الهندوسية- كما ذكرنا- نظام حديدي، بمعنى: أنه لا فكاك منه أبداً، ثم هو نظام أبديّ، بمعنى: أنه لا يتغير ولا يتحول، فالذي ولد في طبقة الخدم يظل- أبداً- هو وذريته من طبقة الخدم، ولا مطمع له أن يصير من طبقة أخرى، أو أيّاً من ذريته، ولا آخر الدهر.

٣- الفوارق في الشعوب والأمم الأخرى فوارق اجتماعية غالباً، حتى وإن تلبست بالاقتصاد، أو السياسة، وبالتالي يكون أصحابها الأدنّون ناقلين على أوضاعهم، ساعين دائماً إلى تغيير أوضاعهم هذه على قدر الطاقة،

وإذا ما غيروا أوضاعهم انتقلوا من مستوى إلى مستوى، أو من طبقة إلى طبقة، وودّعوا أوضاعهم السابقة، واحتلوا مكانتهم اللاحقة دون أدنى حرج، لا من حيث المجتمع ولا السياسة ولا حتى الدين.

أما في الطبقات الهندوسية فينبغي - دينًا - أن يرضى كل صاحب طبقة بوضعه في طبقته التي هو فيها، وألا ينقم على وضعه، وألا يسعى إلى تغييره، أو يسعد بمن يساعده على التغيير، فذلك إثم عظيم، وضلال مبين، وعمل يُغضب عليه آلهة الهندوسية الثلاثة؛ لأن الطبقات: نظامًا وأفرادًا وأحكامًا هي - في الهندوسية - من عمل الإله براهيم، من ثم ينبغي على الجميع الخضوع لنظامها والرضا بها والعمل في إطارها.

٤ - الفوارق في الشعوب والأمم لا تحول بين الفرد - أيًا كان مستواه - وبين عمل يقوم به في المجتمع - أيًا كان ذلك العمل - فقد نجد ضابطًا رفيع المنزل والرتبة بينما أسرته من الفقراء المُعَدِّمين، وقد نجد أستاذًا بالجامعة، أو رئيسًا لها، وهو من أسرة غاية في التواضع، وقد يكون أبوه خادماً، أو حارسًا لإحدى البيوتات، ونحن لدينا أناس أعضاء في مجلس الشعب، أو في الوزارة، وعائلاتهم ذوات مستويات دُنْيَا في المجتمع.

أما نظام الطبقات في الهندوسية؛ فهو نظام يربط - بإحكام وتَسَلُّط - بين الطبقة والعمل الملائم لها في المجتمع، فطبقة عملها أرقى الوظائف والأعمال في المجتمع الهندوسي، وتلك هي طبقة (البراهمن) - رجال الدين - وطبقة

أخرى عملها الخدمة، فهم خدمٌ للطبقات الأعلى، وهكذا كل طبقة لها عملها ووظيفتها المحددة سلفاً من (براهما) - كما هي عقيدتهم - والأمر الأهم هنا أن من يولد في طبقة معينة يلتزم وظيفة هذه الطبقة، ويقضى حياته يقوم بعملها الخاص بها، ولا يجوز له - ديناً - أن يغير وظيفته، أو أن ينتقل إلى عمل من أعمال الطبقات الأخرى.

٥- أن الأسباب التي قامت هذه الطبقات على أساسها أسباب جنسية وعصبية بحيث تتصل بالعرق الجنسي للشعوب التي تكون منها الشعب الهندوسي بعد الغزو الآري، والدليل على ذلك: أن هذا التقسيم لم يكن موجوداً قبل دخول الآريين - عند جمهرة المؤرخين للحضارة الهندية.

فهذا التقسيم الطبقي قام بعد التقاء الآريين بالطورانيين وسكان البلاد الأصليين، وقد أراد الآريون، ثم الطورانيون أن يميزوا أنفسهم عن الشعب الهندي الأصلي، بل إن الآريين أرادوا أن يميزوا أنفسهم عن الطورانيين، من ثم اخترعوا مسألة الطبقات هذه، فاختاروا لأنفسهم الطبقتين الأولى: (البراهمن) والثانية: (رجال الحكم والقتال) وتركوا للطورانيين الدرجتين الأخيرتين: الويشيا - الزراع والتجار - والشودرا - الخدم والأعمال الرديئة - أما أهل البلاد الأصليون الهنود؛ فقد أخرجهم الآريون والطورانيون من هذه القسمة الرباعية، فلم يضعوهم في طبقة من هذه الطبقات الأربعة، ولم يضعوا لهم طبقة خامسة، بل نزلوا بهم إلى أدنى من مستوى الحيوان، حتى إنهم جعلوا لمس الواحد منهم

ينجسُ اللامس من أية طبقة، فإذا ما لمس البراهمن، أو حتى الشودرا واحدًا من الهنود الأصليين فإنه ينجس، ولا يحدث له ذلك إذا لمس بقرة، أو حمارًا، أو حيوانًا آخر.

نظام الطبقات في الهندوسية:

تقوم الهندوسية على أساس أن الناس الذين يدينون بالهندوسية أربع طبقات:

الطبقة الأولى: البراهمن - رجال الدين - Brahmins:

وهم رجال الدين، وأعلى الطبقات الأربع، وهم المشرفون على المسائل الدينية لدى الشعب كله، وهم المرجع للشعب في أهم الأمور الحياتية، وتحديدًا: الميلاد، والزواج، والوفاة.

الطبقة الثانية: الكاشتريا (رجال الحكم والحرب Kasteria):

وهم رجال الحكم، يختار من بينهم الملك الحاكم، وله حق الاحترام والطاعة على الجميع، وعليه حق رعاية شعبه، والدفاع عن وطنه، ويتبعه في هذه الطبقة رجال الحرب من الجند والمقاتلين.

الطبقة الثالثة: الويشيا (التجار والزراعي Vaisya):

وهؤلاء رجال الزراعة والتجارة يجب عليهم العناية بالزراعة والتجارة، ومعرفة كل ما يتصل بهذه الأعمال، والقيام بها على خير وجه، كما يجب عليهم احترام وتقدير الطبقتين: البراهمن والكاشتريا، ومعرفة فضل كل منهما.

الطبقة الرابعة: الشُودرا (الخدم والعبيد Sudra):

وهذه طبقة الخدم والعبيد، وأصحاب المهن والوظائف الخسيسة، ويجب على كل من يتنسب إلى هذه الطبقة أن يحترم الطبقات الأعلى منه، وتحديدًا يجب عليه الرضا بما هو عليه، وألا يتطلع إلى الحصول على شيء مما يمتاز به طبقة من الطبقات الأعلى من طبقته.

وهذه الطبقات الأربع من تقسيم (الفيدا) المقدسة عندهم، فهي ليست اجتهدًا من بعض الفلاسفة، أو المصلحين، ولكنها من وضع الذين ألفوا كتبهم المقدسة (الفيدا)، أو بعض هذه الكتب.

وَرَبَّطَ هذا التقسيم الطبقي بمصادر الديانة الهندوسية المقدسة خطة ذكية من هؤلاء الذين ابتدعوا هذه الطبقات؛ إذ إن ربطها بالكتب المقدسة تكريس وتأكيد وتوثيق لهذا التقسيم بحيث يصبح ضربة لازب، وقدراً حتمياً لا مفر منه، بل يصبح كل فرد في طبقة ملتزماً به مهما كان حَظُّه ونصيُّه، ولو كان من طبقة الخدم والعبيد.

أما حديث أسفارهم عن هذه الطبقات: فقد قررت أسفار الفيदा، وقوانين مانو المقدسة أن الناس ليسوا متساوين في القيمة الإنسانية المشتركة، ولكنهم مختلفون متفاضلون، وسبب هذا الاختلاف والتفاضل يرجع إلى أصل الخلقة التي خلقهم عليها براهما، والمنزلة التي وضع براهما كلاً فيها.

والأصل الذي يعتقده هؤلاء: أن الناس جميعاً خلقوا من براهما، وأن براهما خلقهم متفاوتين في المنزلة حسب المنطقة التي خلق كل طبقة منها من

جسمه، وقد خلقهم على النحو التالي:

١ - أما البراهمن، أو رجال الدين؛ فقد خلقهم براهيم من فمه.

٢ - أما (الكاشتريا)، أو رجال الحكم والجند والقتال؛ فقد خلقهم من ذراعه.

٣ - أما (الويشيا)، أو رجال التجارة والزراعة؛ فقد خلقهم من فخذ.

٤ - أما (الشودرا)، أو الخدم والعبيد؛ فقد خلقهم من قدمه.

وتقرر قوانين مانو أن أشرف الأعضاء وأسمائها وأطهرها ما كان فوق (السَّرة)، وأن أظهر ما فوق السَّرة هو الفم، يليه في ذلك الذراع؛ فقد خلق براهيم البراهمن، أو رجال الدين من فمه، وقد وافق ذلك وظيفتهم التي تقوم على الكلام والتعليم، والوعظ وإلقاء الدروس، وتوجيه الناس، فإن ذلك كله متعلق بالفم ومبنى عليه، ومرتبطة به.

ثم خلق براهيم الكاشتريا من ذراعه، وقد وافق ذلك وظيفة الكاشتريا، حيث يقوم عملهم على الحكم، والدفاع عن الوطن، ومزاولة الحرب والقتال، وذلك متعلق بالذراع ومرتبطة به.

كما تقرر قوانين مانو أن أحطَّ الأعضاء وأخسَّها ما كان أسفل السَّرة؛ لذلك خلق الإله براهيم من هذه المنطقة - أسفل سُرَّته - طبقتي (الويشيا) و(الشودرا)، ولما كان القدم أخسَّ من الفخذ فقد كانت طبقة الويشيا التي هي من الفخذ أرقى وأسمى من طبقة الشودرا التي خلقها براهيم من قدمه، ويلاحظ: مدى المواءمة بين القدم التي خُلق منها الشودرا وبين عملها الذي هو الخدمة

والخضوع والدُّونية.

وقد أشرنا إلى أن الأسفار المقدسة قد واءمت بين شرف الطبقة وشرف الوظيفة التي وكل إليها القيام بها، وقد حددت (قوانين مانو) هذا الأمر تحديداً دقيقاً، فقد حرصت على أن تسند إلى كل طبقة من الأعمال ما يتناسب مع شرف وسمو، أو تدنّي مكانة هذه الطبقة.

وانطلاقاً من هذا؛ فقد أعطت طبقة البراهمن -رجال الدين- أرقى الوظائف، وهي الوظائف الدينية حيث يعلمون أسفار الفيدا، ويشرفون على العبادات والطقوس، وتقديم القرابين، ولهم وحدهم الحق في الإعطاء والمنع، والقبول والرفض، ثم تأتي بعدهم طبقة الكاشتريا، حيث يكون منهم الملك، ويكون منوطاً بهم الدفاع عن الوطن، وحماية الشعب، واستتباب الأمن، ثم تأتي طبقة الويشيا التي وكل إليها القيام على الزراعة والتجارة ورعاية الجوانب الاقتصادية للبلاد، ثم تأتي في النهاية طبقة الشودرا التي ليس لها من عمل سوى خدمة الطبقات السابقة.

ومما ينبغي العلم به: أن هذه الطبقات، وكذلك الوظائف المنوطة بكل طبقة -نظام وراثي، فأولاد البراهمن يولدون -كذلك- براهمن مثل والدهم، ويزاولون وظائف أبيهم، وإذا كانوا كثيرين فيتولى بعضهم وظيفة أبيه على قدر حاجة الوظيفة، وقد يشتغل الآخرون بأعمال أخرى يكون لها نفس المستوى من الشرف، أو قريب منه، ومثل ذلك أولاد الكاشتري يولدون مثل أبيهم،

ويزاولون من الأعمال وظيفة أبيهم، أو ما هو مِنْ قبيلها، وهكذا بقية الطبقات، فأولاد التاجر تجار وأولاد الزارع زراع، وأولاد الخدم خدام، ولا يجوز لفرد أن ينتسب إلى غير طبقته، ولا أن يزاول غير الأعمال المخصصة لها.

ومما ينبغي العلم به - كذلك -: أنه يجب على كل طبقة أن تراعي في اختيار أسماء أطفالها ما يتناسب مع وظيفة هذه الطبقة، فيختار البراهمن من الأسماء لأطفاله ما يدل على البهجة والسرور والصلاح والتقوى، ويختار الكاشثري من الأسماء ما يدل على القوة والتسلط والكِبَر والتخويف، ويختار الويشي من الأسماء ما يدل على الغنى والثروة، أما الشودرا فليس له من الأسماء إلا ما يدل على الذلة والمهانة.

حديث مانو عن الطبقات:

تشتمل قوانين مانو التي تسمى: (مانافا دهارما ساسترا Manava Dharma Sastra)؛ أي: (كتاب قوانين مانو) على نصوص كثيرة تحدد الطبقات، وتبين اختصاص كل طبقة، نجتزئ منها ما يلي:

أولاً: طبقة البراهمة في الأسفار الهندوسية:

«يقوم البراهمة بدرس أسفار الفيدا، وتعلّمها، وتبريك تقديم القرابين التي لا تقبل من الهندوسي إلا عن طريقهم، ويجب أن يحافظ على كنز الشرائع المدنية والدينية.

إذا ولد براهمي وضع في الصف الأول من صفوف الدنيا.
 البراهمي محل احترام جميع الآلهة بسبب نسبه وحده، وأحكامه حجة في
 العالم، والكتب المقدسة هي التي تمنحه هذا الامتياز.
 كل ما في العالم ملك للبراهمي، وللبراهمي حق في كل موجود، وإذا افتقر
 البراهمي حق له أن يمتلك مال الشودري الذي هو عبد له دون مقابل؛ لأن العبد
 وما يملك ملك لسيده.

والبراهمي لا يخطئ ولا يأثم ولو قتل العوالم الثلاثة.
 ولا يجوز للملك أن يجبي خراجًا، أو يأخذ ضريبة من البراهمي العالم
 بالكتاب المقدس، ولو مات الملك محتاجًا، ولا يجوز له أن يصبر على جوع
 براهمي في مملكته.

وليحذر الملك أن يقتل براهميا ولو اقترب جميع الجرائم، ويجوز له أن يطرده
 من مملكته - إذا رأى ذلك - على أن يترك له جميع أمواله وألا يصيبه بأذى.
 ويجب على الملك ألا يقطع أمرًا مهمًا - أيًا كان - دون استشارة البراهمة».

ثانيًا: طبقة الكاشتريا (الأكشترية) في الأسفار الهندوسية:

«إن الذين تَغَذَّتْ عقولُهُم بكتب الويدا المقدسة هم الذين يصلحون أن
 يكونوا قوادًا، أو ملوكًا، أو قضاة، أو حكامًا للناس.

يُختار الملك من الكشترية، وللملك على الكاشتريا حق احترام الجنود
 لقائدهم. يجب ألا يستخف بالملك ولو كان طفلًا، ولا يُقال عنه: إنه إنسان،

فالألوهية تتجسم في صورة الملك البشرية.

لا يجوز للأكشثري أن يشتغل بغير الجندية، والأكشثري يعيش جنديًا حتى في وقت السلم، وعلى الأكشثرية أن يتجمعوا عند أول نداء، وعلى الملك أن يعد لهم عِدَد الحرب وأسلحته. لا تبارك موارد الملك وأمواله ولو نال كنوزًا واكتسب أملاكًا إلا إذا أصبح صديقًا للضعيف».

ثالثًا: طبقة الويشيا في الأسفار الهندوسية:

«يجب على الويشي أن يتزوج امرأة من طائفته، وأن يعمل جادًا بمهنته، وأن يربي الماشية على الدوام.

وعلى التجار منهم معرفة نظم التجارة وقوانين الربا.

ويجب على الويشي أن يعرف كيف يبذر الحبوب، وكيف يفرق بين الأرض الجيدة والأخرى الرديئة، ويجب عليه أن يطلع على نظام الموازين والمكاييل بصورة كافية.

ويجب عليه أن يعرف أجور الخدم، وأن يعرف لغات الناس، وأن يعرف كيف تحفظ السلع وأن يعرف كل ما يمت إلى البيع والشراء بصلة».

رابعًا: طبقة الشودرا في الأسفار الهندوسية:

«يجب على الشودري أن يمثل امتثالًا كاملاً للبراهمي؛ لأن البراهمة هم سادة الدار، العارفون بالكتب المقدسة، والمشتهرون بالفضائل حتى ترجى له السعادة بعد موته بيعث أسمى.

لا يجوز للشودري أن يجمع ثروات كبيرة، ولو كان على ذلك من القادرين؛

ذلك أن الشودري إذا جمع ثروة زائدة طاول البراهمي وآذاه بوقاحته.
يجب أن تقطع يد الشودري إذا علا من هو أعلى منه بيده، أو بعصاه، وتقطع
رجله إذا رفسه برجله.

وإذا ما دعا واحداً من طبقة أعلى باسمه، أو باسم طائفته بدون تقدير؛ أُذخِلَ
في فمه خنجر محميّ متلوّث النصل، طول نصله عشرة قراريط.
ويأمر الملك بصب زيت حار في فمه وأذنيه إذا بلغ من الوقاحة أن يبدي
رأياً للبراهمة في شئون وظائفهم»^(١).

هذا نظام الطبقات في الهند، وهو نظام لا يعترف بالمساواة بين البشر، ولا
يقر بشيء اسمه الإنسانية التي يتساوى فيها وعلى أساس منها جميع الناس،
ولكن هذا النظام يقوم على أساس من التفرقة العنصرية.

وقد جرت محاولات كثيرة تزعمها كثير من المصلحين في الهند كان هدفها
إلغاء نظام الطبقات هذا، أو حتى التخفيف منه، والتقريب بين الطبقات،
ومحاولة التبسيط من الفوارق، ولكن هذه المحاولات جميعها باءت بالفشل في
تحقيق غايتها، وإن كانت قد هونت هوناً ما من حدة هذا النظام، وقربت قليلاً

(١) شرائع مانو، وانظر: موسوعة الأديان في العالم، الأديان القديمة (ص ١٢٠-١٢٣) أديان الهند

الكبرى (ص ٦٢-٦٤)، أديان العالم (ص ٧٢-٧٣).

من الطبقات، ولم يبق متعصبًا لطبقته بحدة وشدة وتعصب سوى طبقة البراهمن رجال الدين.

وقد كان من أشهر الزعماء الذين حاولوا علاج هذا النظام والقضاء عليه، أو التخفيف منه الزعيم الهندي (المهاتما غاندي). والذي عجز - في وقته - أن يصنع الكثير، وكان هو نفسه ضحية المتعصبين لهذا النظام حيث اغتاله أحد هؤلاء، وظل نظام الطبقات قائمًا، حتى هونت منه في العصر الحديث - عصرنا - النظم والقوانين المدنية، كما ساعد على التخفيف من حدة هذا النظام النظم الحياتية الحديثة، الهجرات من القرى والمدن، والعمل الحكومي في الدولة الحديثة، حيث يترتب على كل ذلك اختلاط الهويات، واختفاء نسبة الأفراد إلى طبقاتهم، وكذلك احتشاد الطلاب في دور التعليم، واختلاط الموظفين في دواوين الحكومة، إلى غير ذلك من العوامل التي أدت إلى ضعف النظام الطبقي في الهند، حتى إنه لا يكاد المرء يعرف جاره في المدرسة، أو في العمل، أو حتى في السكن من أية طبقة هو؟!

ورغم ذلك فإن النظام الطبقي في الهند ما يزال له آثاره التي لا تنكر، وإن كانت هذه الآثار تتحصّن داخل المجتمعات الريفية، ومجتمعات العوام والغاغة الذين عدموا الثقافة المعاصرة، ولم يحصلوا قسطًا من التعليم.

كما أن الطبقات المميزة تبذل جهدًا كبيرًا للإبقاء على نظام الطبقات، والتمسك بأذياله لما يعود عليهم هذا النظام بميزات اجتماعية، وتحديدًا طبقتا

البراهمن، والكاشثريا هاتان الطبقتان اللتان كانتا تحتل سنام النظام؛ لذا لا تعدم رجلاً يضع علامة على جسمه تدل على أنه من طبقة البراهمة، كذلك يحرصون على ذكر ذلك عند التقدم للزواج من بعض الأسر، حيث يكون لذكر الطبقة إذا كانت براهمن، أو كاشثريا أثر في الكثير من طقوس الزواج، والالتزامات المالية.

طائفة المنبوذين:

لا يكتمل الكلام على نظام الطبقات في الهندوسية دون أن نتكلم عن طائفة: (المنبوذين)، ولقد آثرنا أن نطلق عليها مصطلح (طائفة) وليس (طبقة) كما أسمىنا جميع الطبقات في الهندوسية، رغم أن المعنى واحد - تقريباً - حتى لا يختلط الأمر عند القارئ فيسبق إلى ظنه أن المنبوذين طبقة خامسة من طبقات الهندوسية، فإن ذلك غير صحيح، وذلك - تحديداً - ما نحرص على توضيحه. نحرص على توضيح أن الطبقات الأربعة التي ذكرناها آنفاً، والتي يتكون منها جميع الذين يدينون بالهندوسية، إنما هي خاصة بالغزاة الذين دخلوا إلى الهند، سواء كانوا طورانيين، أو آريين، فالطورانيون والآريون اختصوا أنفسهم بالديانة الهندوسية، كما اختصوا أنفسهم بكل خيرات الهند، وكل ما له قيمة واعتبار في الهند، حتى المدن والحواضر، أضحت خاصة بهؤلاء وأولئك.

أما أصحاب البلاد الأصليون فقد فقدوا كل شيء في بلادهم، وأضحوا

مواطنين من درجة متدنية، وتركوا المدن والحوضر وعاشوا في القرى الصغيرة والأحراش، وأطلق عليهم (زنوج الهند)، وأضحى هذا الاسم علمًا عليهم يدل على مكانتهم الحقيرة في بلادهم.

ولقد كنا أشرنا إلى أن الطورانيين الذين غزوا البلاد قد بدأوا يختلطون بأهل البلاد الأصليين، فلما جاء الآريون وغزوا البلاد، وأنفوا أن يختلطوا بأهل البلاد الأصليين، وميزوا أنفسهم عنهم، وعاملوهم كأنهم عبيد، تشبه بهم الطورانيون، وسلكوا سبيلهم، ومن ثم كان أهل البلاد ثلاثة أجناس: الآريون، ثم الطورانيون، ثم يأتي في المؤخرة الهندو أهل البلاد، أما الآريون فكانوا الأعلى، من ثم كان منهم طبقتا: البراهمن، والكاشتريا يليهم في المرتبة الطورانيون، وكان منهم طبقتا: الويشيا، والشودرا، وإلى هنا تنتهي الطبقات الأربعة، وإلى هنا - كذلك - ينتهي المتسبون إلى الهندوسية بشكل ظاهر، أو رسمي.

أما أهل البلاد فهم (زنوج الهند)، وهؤلاء ليسوا طبقة من هؤلاء، أو أولئك، ولا حظَّ لهم من الديانة الهندوسية بل إن المجتمع الهندوسي المكون من الطورانيين والآريين قد حرّمهم من حقوق الإنسان، بل إنه نزل بهم - أحيانًا - إلى مستوى أقل كثيرًا من مستوى الحيوان، «ولم يسمح لهم أن يعتنقوا الدين الهندوسي، أو يتخلقوا بأخلاقه، وتركوا هكذا في حياة بدائية مريرة، ومن ثم اتجهوا في تدينهم إلى الأمور البدائية، فأصبحوا يدينون بعبادة الأرواح التي درب عليها الأقوام البدائية، وأعظم الآلهة في مجتمع المنبوذين ربما كان كومة

من الآجُرَّ تمثل أم القرية، أو شيطانها الذي يمنح الخصب للعواقر، ويحمي المحصول من الآفات، ويرعى القرية، ويضفي عليها حمايته، وقد يكون للمنبوذين فكرة مبهمة عن كائن سام عظيم هو الخالق المعبود، ولكنهم يؤمنون - كذلك - بأن هناك آلهة أخرى أقل منه وأقرب إلى المنبوذين، وقد تكون تلك جماعة من الأرواح الشريرة»^(١).

ولا يزال المنبوذون يعانون من هذا النظام حتى اليوم، وإن كانت حدته قد خفّت كثيراً مع النظم الحديثة، والقوانين الجديدة، وحركات الإصلاح، وظروف الحياة المعاصرة التي تدخلت فيها الهيئات الدولية، ومنظمات حقوق الإنسان.

وقد ساعد على التخفيف من الظلم الواقع على طائفة المنبوذين عاملان أساسان وهما: هما:

العامل الأول: قيام جماعات، وتكوّن جمعيات في الهند هدفها إصلاح هذه الطائفة ورفع الظلم عنها، وقد تبنت جماعات الإصلاح هذه تطبيق المساواة بين أفراد هذه الطائفة والطبقات الأخرى، حيث قبلت أفراداً من المنبوذين في عضويتها، ومنحتهم نفس الحقوق والامتيازات التي للآخرين، بل إن الكثيرين من الإصلاحيين قد منحوا بعض المنبوذين أعمالاً ووظائف في مؤسساتهم

(١) «أديان العالم» (ص ٨٥) «أديان الهند الكبرى» (ص ٥٧) موسوعة «الأديان القديمة» (ص ١٠١).

أفضت إلى أن بعضًا من هؤلاء المنبوذين ساروا رؤساء لأفراد من الطوائف الأخرى، وهذا يذكرنا بالفرقة العنصرية ضد السود في أمريكا منذ عقود حيث كانوا ممنوعين من دخول مدارس البيض، ولا متنزهاتهم، التي كان يكتب على بابها: (ممنوع دخول الكلاب والسود)، ثم تطور الأمر إلى أن أصبح رئيس أمريكا أسود من الزوج كذلك حدث، أو يحدث لطائفة المنبوذين بالهند، وإن كانوا لم يصلوا إلى ما وصل إليه السود في أمريكا؛ فإنهم في الطريق.

والذي ينبغي التنبيه إليه: أن هذه الحركات الإصلاحية قامت ابتداء مدفوعة بإصلاح حال المنبوذين، ورغبة في تطهير الهند والهندوسية من هذه الوصمة الإنسانية اللاصقة بديانتهم وبلدهم، لكن هذه الحركات قد توسعت في وسائلها، وأفسحت في آمالها، وجعلت من أهدافها إصلاح نظام الطبقات جملة، من ثم أخذت تدعو ضمن برامجها نظريًا وعمليًا إلى إلغاء الطبقات، وإن لم يكن؛ فإلى التقريب من الفوارق، وتخفيف الحدود بينها.

العامل الثاني: من إصلاح حال طائفة المنبوذين أن زعماء طائفة المنبوذين قد بذلوا جهودًا مضيئة للتخفيف من العزلة الرهيبة التي تعيشها طائفتهم، ولما وجدوا تصلبًا من الهندوس، لجأوا إلى التهديد باعتزال مجتمع الهندوس، والدخول إلى مجتمعات أخرى، وقد زادوا على ذلك فهددوا باعتناق البوذية، أو الجينية، أو الإسلام، أو السيخية، والتخلي تمامًا عن المجتمع الهندوسي.

ومن ثم تحسنت معاملة الهندوس للمنبوذيين، وخففوا من نير العبودية

الموضوع على أعناقهم، ليس رعاية لإنسانيتهم، بل خوفًا من أن ينضموا إلى الأديان الأخرى التي تنابذ الهندوسية، وبخاصة وأن الحركات التنصيرية كانت قد ألقت بثقلها على طائفة المنبوذين تستقطبهم وتستحوذ عليهم تحت بند المساواة، والمساعدة على تكاليف الحياة، والتخفيف من مشاقها التي يلقاها المنبوذون.

وقد ساعد على ذلك قوانين حقوق الإنسان التي أولَّها إلغاء التفرقة الطائفية، والقضاء على التفرقة العنصرية، وليس من شك في أن عامل الزمن في صالح المنبوذين، وأن حقوق مساواتهم بالطوائف الأخرى في الطريق إليهم، وإن بعدت المسيرة، وشقَّ الطريق.

نظام الطبقات والتناسخ:

بيناً أن نظام الطبقات في الهندوسية نظام مغلق، والحدود بين الطبقات حديدية، بمعنى أنها حدودٌ لا تسمح بالتجاوز، فالبراهمن ابنه براهمن مثله، وابن الكاشتري كاشتري كذلك، والذي يولد في طبقة الويشيا لا يمكن أن يتجاوز طبقته، لا ارتفاعاً ولا انخفاضاً، وكذلك الشودري لا يمكن أن يرتفع إلى الويشي، بل لا يسمح له بأن يتطلع إلى ذلك - كما سبق وبيناً ذلك من قوانين مانو.

لكن رغم ذلك نجد في الهندوسية باباً واحداً فقط منه يستطيع أفراد الطبقات أن يخرجوا من طبقاتهم صعوداً إلى أعلى - سوى البراهمن حيث لا يوجد أعلى

منهم - وهبوطاً إلى أسفل - سوى الشودري حيث لا يوجد أدنى من طبقته.
 ذلك الباب هو: (التناسخ)، فالتناسخ - كما سيأتي بيانه وتفصيل أحكامه -
 بحول الله تعالى - هو الباب الوحيد الذي عن طريقه يمكن للبراهمن أن ينزل
 إلى طبقة أدنى، فيكون كاشترى، أو ويشيا، أو حتى شودرياً، كما يمكن عن
 طريق التناسخ - كذلك - للشودري أن يصعد فيكون من الويشيا، أو الكاشترى،
 أو حتى براهمن، أما كيف يكون ذلك؟

فذلك يكون عن طريق التناسخ الذي هو من أهم العقائد الهندية وليست
 الهندوسية فحسب، فالتناسخ يعني أن المرء إن كان من البراهمن، وكان عمله
 شراً، وسلوكه سيئاً، فإنه حين يموت جسده، تخرج نفسه من جسده الذي فني،
 ولا تحل في جسد براهمي من طبقته الشريفة، ولكنها تحل في جسد رجل من
 طبقة أدنى تناسب أعماله السيئة وسلوكه الشرير في جسده السابق، وقد ينزل إلى
 طبقة أدنى من ذلك إذا كانت عقوبته على عمله السابق تتطلب ذلك.

ومثل ذلك؛ إذا كان المرء من الشودرا، وكان عمله صالحاً، وسلوكه خيراً،
 فإنه حين يموت جسده، فإن نفسه تخرج من جسده الذي بلي ومات، وتدخل في
 جسد وليد، أو جنين في بطن امرأة حامل من طبقة أعلى - من طبقة ويشيا، أو
 كاشترى، أو حتى براهمن - إن كان عمله الصالح يصل به إلى هذه الطبقة، وذلك
 مثوبة له وجزاء على أعماله الصالحة.

يتضح من ذلك: أن التناسخ هو الباب الذي من خلاله يستطيع الأفراد الذين

ولدوا في طبقة معينة من الطبقات الأربع أن تتغير أحوالهم الطبقة فينتقلون من طبقة إلى أخرى عن طريق التناسخ، وذلك بعد أن يفنى جسد المرء منهم، فتخرج نفسه وتحل في جسد إنسان آخر من طبقة أخرى، وذلك حين يكون جنيناً في بطن أمه، ثم يولد الجنين في طبقته، لكن نفسه الذي تحل فيه تكون من طبقة أخرى.

ومما ينبغي ذكره أن الديانة الهندوسية تسمح بالتناسخ بين الطبقات صعوداً وهبوطاً، ولا تسمح - إطلاقاً - أن تنتقل نفس هندوسي من الطبقات الأربعة إلى جسد (منبوذ) مهما كان فعل الهندوسي سيئاً شريعياً؛ لأن الهندوسي مهما بلغ من سوء العمل لا ينزل به إلى درجة المنبوذ؛ حيث المنبوذ في الهندوسية نجس نجاسة لا تليق بالهندوس، بل إن الهندوسية تسمح في عقيدة التناسخ - كما سيأتي توضيحه بحوله تعالى - بانتقال نفس الهندوسي إلى أجساد الحيوانات، عقوبةً له على أعماله السيئة، ولكنها لا تسمح بانتقال نفسه إلى جسد المنبوذ؛ لأن المنبوذ عند الهندوسية أسوأ من الحيوانات، حتى الحيات والثعابين.

لكن ذلك النظام القاسي العنيف وغير الإنساني قد جدّت نظمٌ وقوانينٌ وحركاتٌ إصلاحية غيرت منه كثيراً، كما فصلنا ذلك آنفاً.



المبحث الثامن

عقيدة التناسخ في الديانة الهندوسية

إن عقيدة التناسخ، أو تناسخ الأرواح، أو النفوس ليست عقيدة دينية فحسب، كما قد يظن بعض مؤرخي الهندوسية خطأً، لكنها حقيقة وركيزة من الركائز الأساسية التي تقوم عليها الثقافة الهندية، ومن ثم تتبناها جميع الأديان التي تنتشر بالهند، فهي - إذن - عقيدة لا تقف عند حدود الهندوسية، ولكنها أساس في كل الأديان، التي يدين بها الهندوس، والبوذيون، والجينيون، ولا يُستثنى من ذلك إلا الإسلام - والحمد لله.

فالتناسخ ثقافة وتقليد ودين يتوارثه الهنود، بصرف النظر عن الدين الذي يدينون به، بل إننا لو فرضنا وجود هندي ملحد كافر بالأديان جميعها، لكان هذا الهندي الملحد معتقداً في التناسخ، مؤمناً به؛ لأنه وإن كان ملحدًا، إلا أنه هندي. والتناسخ يعني: أن النفوس خالدة لا تفنى، وأما الأجساد فيقع بها الموت والفناء، فالنفوس باقية خالدة، والأجساد فانية بالية، والأجسام تمثل بالنسبة إلى النفوس ألبسة، أو أقمص، أو جلابيب، تتلبس النفس جسمًا، وتظل به تزاوُل الحياة من خلاله، حتى إذا ضعف الجسم، أو بلي، ثم مات، فإن النفس تخرج منه لتلبس جسدًا جديدًا تظل فيه حتى يهرم هو الآخر ويفنى، فتنتقل النفس إلى جسم جديد، وهكذا:

أما كيفية ذلك - كما يتصورها هؤلاء التناسخية - أن النفس تظل بالجسد

الذي هي فيه حتى يضعف الجسد، ثم يفنى، فإذا فَنِيَ الجسد خرجت النفس منه وانطلقت إلى امرأة هندوسية حبلى فدخلت بطنها، وتلبست جسد جنينها، ثم تضعه المرأة وبه النفس التي دخلته، ثم يشب ويكبر ويهرم، ثم يموت، فتعيد النفس الأمر كَرَّةً أخرى، وتنتقل إلى جسد آخر، وهكذا أبداً، حتى تصل إلى مرحلة من الصلاح والتقوى تؤهلها للانطلاق، أو الانعتاق من هذه الحياة الدنيا، فتنتقل، وتنجو من تكرار الولادة، والتناسخ، وتصعد لتتحد بالإله الذي خرجت منه ابتداءً، وهو براهما، وبهذا ترجع إلى مصدرها - وسيأتي توضيح عقيدة الانطلاق في موضعها من البحث - بحوله تعالى.

وهذه العقيدة - عقيدة التناسخ - لها أسماء كثيرة عند أصحابها المؤمنين بها، والباحثين فيها، المؤرخين لها، فبعض الطوائف تسميها (التقمُّص)، فيقولون: إن النفس تتقمَّصُ جسداً بعد جسد؛ وذلك تشبيهاً للجسد الجديد الذي تلبسته النفس بالقميص الذي يلبسه المرء بعد أن بلى القميص السابق، فإن الإنسان يلبس القميص، فإذا بلى تقمص قميصاً آخر، كذلك النفس تتقمص جسداً جديداً بعد فناء جسدها الذي كانت فيه.

ويسمى التناسخ - أيضاً - : (تكرار المولد)؛ وذلك لأن النفس يتكرر مولدها مرة بعد مرة كلما فَنِيَ جسد وتلبست جسداً آخر في بطن أمه، ثم وُلدت معه؛ لذا فهي تولد مراتٍ كثيرةً بعدد الأجساد التي تلبسها، ويسمى التناسخ - كذلك - (تجوال الروح)، أو (تجوال النفس)، وذلك واضح، فإن النفس، أو الروح حين تخرج من جسدها الذي فني، تحل في جسد آخر، وهكذا، فهي تتجول بين

الأجساد، تُبلي واحدًا بعد واحد، وتتنقل من جسد إلى آخر، وهكذا تكون النفس، أو الروح في تجوال دائم حتى يحين موعد انطلاقها.

هذه عقيدة التناسخ، وقد قلنا: إنها عقيدة تشيع في الهند، وهي مُسلّمة الصديق عند الهنود جميعًا - عدا المسلمين منهم - وهم يرثون عقيدتهم تلك كما يرثون جميع العقائد في جميع الأديان بالهند، ولا يسألون عن علتها، أو فلسفتها، بل يقبلونها كما هي، بل إنهم لا يقبلون مجرد مناقشتها.

لكن بعض الفلاسفة الهندوس يحاولون أن يجدوا لهذه العقيدة سندًا فلسفيًا يُسوِّغونها به، ويدعمونها بأسانيد وأفكارٍ لا سند لها من عقل ولا منطق، ولا مسوِّغ لها من واقع ولا موضوع، وهؤلاء ينسون - أو يتناسون - أن جميع العقائد في الهندوسية تفقد السند والموضوعية، كما تعارض العقل والمنطق، وتصادم الفطرة والشعور، فإذا شغل نفسه بتعليل التناسخ، والبحث عن سند لهذه العقيدة، فماذا هو فاعل في العقائد الأخرى؟

يهمنا هنا: أن نذكر وجهة نظر هذا الذي يبين السبب الذي من أجله كانت عقيدة التناسخ. يقول الفيلسوف الهندوسي (أتربا):

«وسبب التناسخ، أو تكرار المولد هو: أولاً: أن الروح خرجت من الجسم ولا تزال لها أهواء وشهوات مرتبطة بهذا العالم المادي لم تتحقق بعد، وثانيًا: أنها خرجت من الجسم وعليها ديون كثيرة للآخرين الذين كانت لها علاقة بهم ومعاملات معهم لا بد من أدائها، فلا مناص - إذن - من أن تستوفي شهواتها في حَيَوةٍ أخرى، وأن تتذوق ثمار أعمالها التي قامت بها في حياتها السابقة،

تذوقها في حياة جديدة، وذلك عن طريق التناسخ»^(١).

وهذا فيلسوف آخر يحاول تبرير قضية التناسخ من حيث وقوعها فعلياً بإسناد ذلك إلى أسباب من التكوين الجسدي والنفسي للإنسان. يقول محمد عبد السلام الرامبوري: «إن الجسد يبلى، ولكن النفس التي تسكنه لها رغبات لم تحققها بعد، فالنفس ترغب الاستمرار في الحياة، وتميل إلى البقاء، والميل يستلزم الإرادة، والإرادة تستلزم الفعل في هذا الجسد، وإن لم يصلح هذا الجسد، ففي جسد آخر، فقد خلقت الميول لتستوفي، وإذا لم تستوف لم ينج الإنسان من تكرار المولد، أما إذا اكتملت الميول ولم يبق للإنسان شهوة ما، وأزيلت الديون فلم يرتكب الإنسان إثماً يستوجب العقاب، ولا حسنة تستلزم الثواب نجت روحه من تكرار المولد، وامتزجت بالبراهما، سواء كان الاكتمال في جسد واحد، أو أجساد متعددة»^(٢).

فهذا الفيلسوف يوضح لنا فكرة الهندوس عن أن التناسخ إنما هو عملية يشترك في تنفيذها وتحبيذها النفس والجسد معاً، فهي عملية نفسية عضوية، أو (سيكوفسيولوجي) - كما يقولون.

ويلاحظ: أن المفكر محمد عبد السلام الرامبوري لا يعبر هنا عن رأيه، أو عن عقيدته؛ لأنه مسلم لا يؤمن بالتناسخ، ولكنه يشرح ويبين عقيدة الهندوس، وبعض طرائقهم في شرح هذه العقيدة.

(١) «ثقافة الهند وتوجهاتها الروحية» (ص ٤٢).

(٢) «فلسفة الهند القديمة»، مجلة ثقافة الهند، مارس ١٩٥٣ م (ص ٦٧).

ونعود إلى الفيلسوف الهندوسي (أتربا) ليكمل لنا شرح عقيدته في كيفية حصول التناسخ، وتبريرها كأمرٍ طبيعي حتمي، بل يرى ذلك أمرًا بدهيًا، فيقول: «إن جسد الإنسان هو الذي يولد من جسدي الوالدين، وأما الذي يحركه وينشطه ويسيطر عليه فجسد لطيف يتركب من القوى الأساسية والحواس والقوى الآلية المحركة، والعناصر اللطيفة، والعقل، فإذا حدث ما نسميه الموت مات الجسد المادي وتوقف وبليّ، أما الجسد اللطيف فلا يموت، بل يخرج ويعمل في آفاق الكون اللطيفة التي تشبه حالة أحلامنا، فيجرب هناك الجنة والنار التي تكلمت عنها الكتب الدينية، ثم يعود- مَسُوقًا بالأعمال والميول الماضية- كَرَّةً أخرى إلى هذه الحياة متمصًا جسدًا جديدًا، وتبدأ بذلك دورة جديدة لهذه الروح، وتكون هذه الدورة نتيجة للدورة الماضية، فتوجد الروح، أو تتقمص الروح جسد إنسان، أو حيوان، أو ثعبان، وتشقى، أو تسعد نتيجة لما قدمت من عمل في حياتها السابقة»^(١).

ومعلوم أن الروح في تجولها تنسى تمامًا حيواتها السابقة، ولا تذكر شيئًا من جولاتها الماضية؛ لذلك تعيش حياتها في الجسد الجديد كأن هذا هو الجسد الأول والوحيد الذي دخلته وزاوت حياتها فيه، لكن هذه ليست قاعدة صادقة على إطلاقها، فإن بعض النفوس، أو الأرواح تكون من القوة والذكاء وشدة الحساسية بحيث يترأى لها بعض الأحداث كأنها حلم عَرَضَ لها أثناء النوم،

(١) ثقافة الهند وتوجهاتها الروحية (ص ٤٠).

فالأحداث لا تكون واضحة كما هي في الواقع المحسوس، لكنها تظهر للروح، أو تتذكرها النفس كأنها خيال، أو رُؤى منامية، لكن ذلك يتوقف على أمرين: الأمر الأول: قوة الروح، ومدى حساسيتها، وشدة ذكائها، ولا يشترط أن يكون صاحبها مثقفًا عالمًا، بل قد يكون الإنسان العامي الجاهل، أو نصف المثقف أكثر حساسية، وأوسع خيالًا، وأقرب إلى استحضار الماضي من صاحب الثقافة العالية.

الأمر الثاني: قوة الحدث الحاضر وصلته بالأحداث الماضية، فلو جاء حدث حاضر وكان له ما يماثله في حياة ماضية، فإن الحدث الحالي يستدعي الحدث الماضي المماثل، فتذكره النفس، وتستحضر موقفها منه وكيف تصرفت تجاهه في الماضي، وبذلك يمكن أن تنتفع النفس بما حدث في الماضي، فتصرف على ضوئه في الحدث الحاضر، ولسنا بحاجة إلى أن نذكر أن هذا الذي نشير إليه ليس قاعدة عامة بالنسبة للنفوس جميعها، وإنما القاعدة العامة هي نسيان النفس جميع ما حدث في الحيات الماضية، ولكن بعضها، وفي حالات نادرة، وبالشرطين المذكورين يقع ما أشرنا إليه.

كذلك لسنا بحاجة إلى أن نذكر بأن هذا الذي نذكره إنما هو من وجهة أنظار وعقائد الهندوس، أما نحن فكل ذلك عندنا خرافات وجهالات وأساطير كاذبة، أو كما قال الشاعر:

حَيَاةٌ، ثُمَّ مَوْتُ، ثُمَّ نَشْرٌ حَدِيثُ خُرَافَةٍ يَا أُمَّ عَمْرٍو

وعقيدة التناسخ عقيدة معدية، مثل الوباء المعدي، فهي تنتقل من المصاب

بها، أو معتقدها، إلى غيره؛ أي: إلى الذين لا يؤمنون بها، كما ينتقل الوباء المعدي من المرض إلى الأصحاء، فيصاب بها غير المؤمنين بها.

وقد أصيب بعقيدة التناسخ بعض المسلمين، أو الذين كانوا مسلمين قبل أن يصابوا بهذه العقيدة المكفرة المخرجة من ملة الإسلام، فعندما أصيب بها هؤلاء الذين كانوا مسلمين فَسَقُوا عن الملة، وبرئت منهم ذمة الله، وذمة رسوله، وذمة المسلمين، ومن هؤلاء: أحمد بن حابط، وأحمد بن ناموس تلميذه، وأبو مسلم الخراساني، ومحمد بن زكريا الرازي الطبيب الذي كان يُنظر لهذه العقيدة ويدعو إليها، ويدافع عنها، وقد صرَّح بذلك في كتاب له اسمه: (العلم الإلهي)، وقد كان الرازي يقول: «لولا أنه لا سبيل إلى تخليص الأرواح من الأجساد المتصورة بالصورة البهيمية إلى الأجساد المتصورة بصورة الإنسان إلا بالذبح، أو القتل، لما أجاز الله ذبح حيوان، أو قتله»^(١).

والرازي يقصد بعبارته هذه: أن بعض النفوس البشرية، كانت تخرج من الجسد البشري، فتحل في جسد حيوان يناسب العقوبة التي تستحقها على

(١) «الفصل في الملل والأهواء والنحل»، لابن حزم (١/ ٩٠).

وقديماً قالوا: لا يعدم الشيطان حجة، كذلك الضال عن الدين أحمد بن حابط استدل على ضلالة التناسخ من آيات القرآن بما حسب أنه يسانده في ضلالته هذه، فذكر قوله تعالى: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذَرُوكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الذي خلقك فسوئك فعدلك] (٧) في أي صورة ما شاء ركبك ﴿[الانفطار: ٦-٨].

أفعالها السيئة في حياتها السابقة، ثم بعد أن تستوفي العقوبة تستحق أن تخرج من جسد الحيوان الذي حلّت فيه لتعود - بعد ذلك - إلى جسد إنسان؛ لذلك أحل الله ذبح الحيوان لتخليص تلك الأنفس التي يجب تخليصها، فالذبح هنا ليس هدفه أن يصير أكل لحم الحيوان حلالاً، ولا هو إشباع الإنسان من جوع وسدّ خلة الإنسان إلى الطعام، وإنما كان ذبحه لتخليص الروح الإنساني التي تحتله؛ حيث حلّت فيه ابتداءً عقوبة لها على ما قدمت من أعمال سيئة في حياتها السابقة إن كان وجودها في جسد هذا الحيوان قادمًا من أعلى؛ أي: من إنسان، أو حيوان أعلى من ذلك الذي ذبح، أما إذا كانت النفس قد قدّمت إلى جسد هذا الحيوان من حيوان أدنى، مثل الثعبان بالنسبة إلى الشاة فإن وجود النفس في جسد الشاة كان مثوبة لها على أعمالها الصالحة وهي في جسد الثعبان.

وهذا المعنى ينبهنا إلى معنى هام قد يخطئ فيه الكثيرون. هذا المعنى يتعلق بماهية الأنفس؛ حيث إن الهندوسية لا تعترف بالتعدد في ماهيات الأنفس، وليس في اعتقادها اختلاف أنواعها، فالأنفس في معتقد الهندوسية نوع واحد، وذلك النوع هو (النفوس الإنسانية)، أما الحيوانات والحشرات فلا توجد نفوس خاصة بها، ولكنها خلقت من أجل أن تكون محل العقوبات المتنوعة للنفوس الإنسانية، فهي لم توجد لذواتها، وإنما أوجدَ براهما الحيوانات من أجل الإنسان؛ تقوم بخدمته، وتشبع حاجته.

والأهم من ذلك: أنها محل حلول نفسه عقوبة لها، فهي تخدم الإنسان،

وتقوم بحاجاته، لكن الذي يحركها ويدبرها ويحييها هي النفوس الإنسانية التي تحل فيها عقوبة لها، فليس للحيوانات نفوس خاصة بها، وإنما تحركها نفوس البشر التي تحتلها عقوبة على أفعالها السابقة في الأجساد البشرية، وهذا معنى قد يغفل عنه البعض، فيتساءل: إذا احتلت نفس الإنسان جسد حيوان عقوبة لها؛ فأين تذهب نفسه هو؟

والجواب - كما بينا -: أن الحيوانات عند الهندوس ليس لها نفوس خاصة بها. بل هي تعيش بالنفوس الإنسانية التي تتقمَّصها مدة من الزمن عقوبة لها. والنفوس الإنسانية حين تفارق الجسد الحيواني يكون ذلك على هيئتين: الهيئة الأولى: يكون الحيوان قد انتهى دوره وحان حينه، فيذبحه إنسان لينتفع بلحمه، وبذلك تتحرر النفس الإنسانية منه، وتخرج من جسده لتتقمص جسداً آخر يناسبها.

الهيئة الثانية: أن يكون الحيوان ما يزال يؤدي دوره، ولم يحن حينه، فتخرج منه النفس الإنسانية التي انتهت عقوبتها داخل جسده، لتحل مكانها نفس إنسانية أخرى لنفس السبب.



المبحث التاسع

عقيدة الكارما (الجزاء) في الديانة الهندوسية

تتميز الأديان جميعها بأنها تشتمل على قانون للجزاء، يخضع له جميع أتباعها، وهذا القانون يشيب الطائع، ويعاقب العاصي، ويضع كل إنسان في مكانه الذي يستحقه تبعًا لما يصدر عنه من أعمال تجاه نفسه، أو الآخرين، وهذا القانون الجزائي لا يخلو منه دين كتابي، أو دين وضعي، فكل دين يشتمل على أحكام ونظم وأوامر ونواه، وهو يضع كل واحد من أتباعه في مواجهة مسؤوليته تجاه هذه الأحكام، وتجاه تنفيذها ما أمر به دينه، أو نهى عنه، وهذه قاعدة عامة، وأساسٌ ضروري حتمي في كل دين، ولا يوجد دين يخلو عنه.

لكن الأديان تختلف فيما بينها حول ماهية هذا الجزاء وزمانه وكيفيته على أنواع كثيرة: فالأديان الكتابية كلها تجعل الجزاء على الأعمال في حياةٍ غير هذه الحياة، ودارٍ غير هذه الدار، وكل من اليهودية، والنصرانية، والإسلام يدينون بدار أخرى - أو آخرة - تأتي عقب انتهاء هذه الدار يلاقي فيها كل مؤمن بدين منها ما ينص عليه ذلك الدين من جزاء على ما قدم من عمل، مثوبة، أو عقوبة لا يشذ عن ذلك إلا طوائف قليلة لا يقام لخلافهم وزن، ولا يغير شذوذهم من أصول دينهم الذي اتفق عليه عامة المتدينين به، وذلك مثل طائفة (الصدوقيون) اليهودية التي تؤمن بالجزاء على الأعمال، لكنه يكون في هذه الحياة، وليس في

دار أخرى، فهم لا يؤمنون بحياة بعد هذه الحياة، ومثلها طائفة أخرى يؤمن أصحابها أن اليوم الآخر سيكون عقب مجيء مسيحهم المنتظر، وانتصاره على شعوب العالم واستيلاء اليهود على الأمم كلها.

كذلك الأديان الوضعية لها قانون جزائي خاص بكل منها، فكل منها قد صاغت قانونها الجزائي هيئةً وكيفاً وكماً حسب ما تراه، لكن هذه الأديان اتفقت جمهرتها على أمرين:

الأمر الأول: أن قانون الجزاء في هذه الحياة، وليس ثمة حياة أخرى بعد هذه الحياة.
الأمر الثاني: أن قانون الجزاء يعتمد على التناسخ كأساس لإثابة الصالح، وعقوبة المسيء.

هذه أمور عامة في الأديان الوضعية، لكن الوضعية والكتابية جميعها لا تخلو من قانون جزائي.

والهندوسية ليست بدعاً في ذلك، فالهندوسية لها قانونها الجزائي الخاص بها، والذي يتربص بكل هندوسي ليقع به الجزاء الذي يستحقه مثوبةً، أو عقوبة لا يفلت منه أحد، ولا ينجو منه هندوسي.

وهنا يأتي دور الكلام عن الكارما (Karma)، فالكارما تعني في الهندوسية: (قانون الجزاء)، وهي ليست قانون الجزاء فقط، فإن القوانين توضع، لكنها في النهاية تحتاج إلى قوة تنفذها على أرض الواقع، فكثيرة هي تلك القوانين التي توضع ولا تنفذ، وتنطبق عليها تلك المقولة الشهيرة: (حبر على ورق).

لكن (الكارما) لها وضع خاص كما يعتقد الهندوس، فهي في الهندوسية (قانون الجزاء)، وهي في نفس الوقت تنفذ الجزاء على مستحقه، لا يفلت منها أحد، ولا تخطئ في تنفيذ شيء مما يتطلبه الجزاء، كما أنها - في الهندوسية - تتسم بعدالة مطلقة، لا تحابي، ولا تنسى، ولا تضعف، بل هي مثال للقانون الشامل، والعدل التام الكامل، هكذا يراها الهندوسيون، ويؤمنون بها.

وهم يؤمنون بأن (الكارما)، أو قانون الجزاء لا يمكن أن يفلت من يده شيء على الإطلاق، لا في السماوات ولا في الأرض، لا في الجو، ولا تحت الأرض، ولا في جوف الجبل، ولا في جوف الصخرة لو اخترقها واختبأ بداخلها، لا شيء من ذلك كله يمكن أن ينجي هندوسياً من قانون الجزاء (الكارما). ولا أن يفلته من العقاب الذي يستحقه، والذي ستتولى الكارما إيقاعه به.

يقول الأستاذ (أتربا) الفيلسوف الهندي - موضحاً معنى (الكارما) وطريقة عملها - : «إن الشهوة أقوى عامل في حياتنا، ولكن شهواتنا تؤثر على الآخرين، فنحن في أعمالنا التي تفرضها الشهوات نحسن إلى الآخرين، أو نسيء، من ثم لا بد أن ينطبق علينا قانون الجزاء (الكارما) المسيطر على حياة الأحياء الحرة في الكون، وقانون الجزاء يسمى في اللغة السنسكريتية: (كارما Karma)، وليس في إمكان أحد أن يتخلص منه، وقد ورد في كتاب (يوجا واسستها) - من الكتب المقدسة الهندوسية - ما يلي: ليس في الكون كله مكان، لا الجبال، ولا السماوات ولا البحار، ولا الجنات يمكن أن يفر إليه المرء من جزاء أعماله:

سيئة كانت، أو حسنة»^(١).

وجميع أفعال البشر التي تؤثر في الآخرين - خيرًا كانت، أو شرًا - لا بد أن يجازى عليها طبقًا لناموس العدل الصارم، فنظام الكون نظام إلهي قائم على العدل المحض، إن العدل الكوني قضى بوجوب الجزاء على العمل صغيره وكبيره، وإن في الطبيعة نوعًا من النظام بحيث لا يترك صغيرة ولا كبيرة من أعمال الناس بدون إحصاء ومراقبة، وبعد إحصائها ينال كل شخص جزاءه على عمله، ويكون الجزاء على أعماله في هذه الحياة، وهذا هو عمل الكارما (قانون الجزاء).

والجزاء على الأعمال في الهندوسية لا يكون في نفس الحياة التي وقع فيها العمل، بل في حياة أخرى قادمة تنتقل فيها النفس من الجسد الذي زاولت فيه العمل بعد أن يفنى إلى جسد آخر في حال ولادته، أو بينما هو جنين في بطن أمه، وفي الجسد الجديد تتولّى (الكارما) إيقاع الجزاء على النفس حسب أعمالها في الجسد السابق، فالجزاء على أعمال النفس في الجسد الحالي يتم في الجسد الذي تتقمصه بعد ذلك.

وطريقة الجزاء تتم عن طريق التناسخ، وعن طريق الطبقات، فهناك - إذن - ثلاثة أمور يتكون منها الجزاء على الأعمال، ويتم بها، وتلك الأمور هي:

(١) «ثقافة الهند وحياتها الروحية والأخلاقية والاجتماعية» (ص ٤٢ - ٤٣)، وانظر: «أديان الهند

الكبرى» (ص ٦٤).

(الكارما، ثم التناسخ، ثم الطبقات)، فهذا النظام الجزائي لا يتم إلا بهذه الثلاثة؛ بحيث إذا فُقد أمر من هذه الثلاثة فقد بطل النظام كله، واستحال تطبيقه، وهذه الثلاثة هي:

١- الكارما، وهي نظام الجزاء، وهي التي تطبق الجزاء، وتتحكم في النفوس، وتضع كل نفس في المكان أو الجسد الذي تستحقه، ويتواءم مع أعمالها السابقة، ومع ما تستحق من جزاء: مثوبة، أو عقوبة.

٢- التناسخ، والتناسخ هو الوسيلة الأولى والهامة التي تطبق الكارما الجزاء على الناس عن طريقها، فمن خلال التناسخ يجازى الناس كل حسب عمله، وذلك بالارتفاع، أو الانخفاض في الطبقات - كما سيأتي تفصيله.

٣- الطبقات، وهي الأمر الثالث الذي ينفذ من خلاله قانون الجزاء الذي تنفذه الكارما.

أما كيف يتم ذلك، وعن طريق هذه الثلاثة؛ فإن الكارما تمسك بالنفوس، فتضع كل نفس في الجسد الذي تستحقه تبعاً لعملها السابق، وعن طريق الطبقات ارتفاعاً وانخفاضاً، بل إن الكارما تضع بعض النفوس في أجساد الحيوانات، بل والحشرات إذا كانت أعمالها السيئة تصل بها إلى هذا المستوى من العقوبة.

فإذا كان إنسان من طبقة الكاشتريا - الحكام والجنود - وعمل عملاً صالحاً في هذا الجسد، فإنه حين يَبْلَى هذا الجسد ويفنى تمسك الكارما بهذه النفس الصالحة

وتخرج بها من طبقة الكاشترية، وتدخلها في جوف امرأة من طبقة البراهمن التي هي أعلى الطبقات جميعاً، وتجعلها تولد في جسد إنسان من هذه الطبقة الممتازة جزاءً لها على صالح عملها في الجسد السابق. أما إذا عملت هذه النفس في جسدها الحالي أعمالاً سيئة فإن الكارما تمسك بها - حين يبلى جسدها ويفني وتخرج منه - وتضعها في جسد إنسان من طبقة الويشيا - التجار والزراع - أو حتى طبقة الشودرا - طبقة الخدم والعبيد - وتولد هذه النفس في هذه الطبقة بعد أن كانت في طبقة أعلى منها في الجسد السابق، فإذا ما استمرت هذه النفس في عملها السيئ وهي في طبقة الشودرا، فإن الكارما تهبط بها - عقوبةً لها - فتضعها في جسد حيوان، أو حتى جسد حشرة من الحشرات المؤذية التي تقضي حياتها تفرُّ من الإنسان، والإنسان يسعى وراءها لقتلها، وذلك مثل الثعبان، يقضي حياته يهرب من الإنسان والإنسان يهرب منه، وإذا ظفر أحدهما بالآخر قتله.

فلسفة الكارما:

إن الفلسفة التي تقوم عليها عقيدة الكارما لدى الهندوس، أو الحكمة التي بنى عليها الهندوس عقيدتهم في الكارما تقوم على ركائز هامة، هي:

الركيزة الأولى: أن الهندوس يؤمنون بإله خالق لهذا الكون، ومدبر له، ومتصرف فيه، ويؤمنون بأن ذلك الإله قد أقام هذا الوجود على أساس من العدل الصارم الذي لا يختل، وأن نظام الكون الإلهي القائم على العدل الصارم

يقضي بأن يُجازَى كل إنسان على عمله إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، وأنه لا مفر من أن يلاقى كل إنسان جزاء ما قدم من عمل.

الركيزة الثانية: أن الهنود - وغيرهم - قد لاحظوا أن الظالم قد تنتهي حياته، ويموت جسده، دون أن ينال جزاءه على ما صدر منه من ظلم للآخرين، كما أن المُحْسِنَ قد تنتهي حياته دون أن ينال جزاء ما من إحسان، فإذا انتهت الحياة عند هذا، فقد استوى المحسن والمسيء، ولم يأخذ كل منهما جزاء ما قدم من عمل، وبذلك يكون قد أُهدر قانون العدل، وذهب الظالم دون عقوبة، كما ذهب المحسن دون مثوبة، وهذا قمة الحمق، وغياب الحكمة، بل انعدامها.

ولو كان الهنود يؤمنون بيوم آخر يأتي بعد هذه الحياة الدنيا، يُبعث الناس فيه لينال كل إنسان جزاء ما قدم من عمل في حياته الدنيا لكان ذلك قمة العدل، وتحقيق الحكمة، لكن المشكلة هنا أن الهنود لا يؤمنون بيوم آخر بعد هذه الدنيا، ولا بدار أخرى تلي هذه الدار التي نحيها في دُنْيَانَا هذه، فكيف يتحقق العدل، وينال كل من المحسن والمسيء جزاء ما قدم؟

الركيزة الثالثة: هنا ابتدع هؤلاء عقيدة التناسخ كأساس لتحقيق العدل، وإيقاع الجزاء الذي يستحقه كل من المحسن والمسيء، لكن ليس في دار أخرى، بل في هذه الدار الدنيا التي نحن فيها، وذلك يكون عن طريق التناسخ؛ أي: انتقال النفس من جسد إلى جسد آخر بعد هلاك الجسد الأول، وذلك على الهيئة التي بيّناها وفصلناها عند كلامنا عن التناسخ.

الركيزة الرابعة: الكارما، أو عقيدة الكارما، والكارما قد يعبر بها عن عقيدة الجزء كاملة بكل خطواتها التي تكلمنا عنها، وذلك اختصارًا وإيجازًا، وقد يعبر بها عن حقيقتها في اعتقاد الهندوس، بل وبعض الأديان الهندية الأخرى، وحقيقة (الكارما) أنها قوة إلهية قد خلقها (براهما) وسلطها على النفوس وحكّمها فيها، فهي تعرف أحوال النفوس، وتطلع على أعمال كل نفس في جسدها الذي هي فيه، وتعرف ما ترتكبه كل نفس من خير، أو شر، ومقدار ذلك، وما تستحقه كل نفس من ثواب، أو عقاب؛ من ثم فإنها تمسك بكل نفس بعد أن يبلى جسدها ويفنى، وتأخذ الكارما هذه النفس وتدخلها في جسد من طبقة تتناسب مع ما قدّمت هذه النفس في جسدها السابق، فقد تضعها الكارما في جسد أعلى من جسدها السابق من حيث الطبقة، أو الغنى، أو السلطان، حتى تصل بها إلى طبقة البراهمن - رجال الدين -، ثم الانطلاق - كما سنبينه بحوله تعالى - وقد تضعها الكارما في جسد أدنى من جسدها السابق من حيث الطبقة، أو الغنى، أو السلطة، وكلما ساء عملها في جسد نزلت بها الكارما حتى يصل الأمر إلى أن تهبط بها الكارما من الأجساد البشرية إلى أجساد الحيوان، ثم الحشرات.

فهذه هي مهمة الكارما التي خلقها براهما الرب، وسلطها على النفوس، ووضع في يدها ميزان العدالة، وقانون الجزاء مثوبةً وعقوبةً عن طريق التناسخ.



المبحث العاشر

الانطلاق للاتحاد ببراهما في الديانة الهندوسية

سبق أن بينا أن الحياة الدنيا عند الهندوسي هي الشرُّ عينه، وهي أساس المعاناة التي يعانيها الإنسان منذ حلوله فيها؛ لذلك ينظر الهندوسي إلى اللحظة التي يولد فيها، أو التي يخرج فيها إلى هذه الحياة على أنها أصل المأساة، وأُسُّ المعاناة، وأنه لا سبيل إلى النجاة من هذه المأساة إلا بالخروج من الدنيا، وانعتاقه من تكرار المولد، أو انتهاء الروح من تجوالها، وكما أن بداية المأساة، وأصل المعاناة هي لحظة الميلاد والخروج إلى هذه الحياة؛ فكذلك نهاية المأساة، وانقطاع المعاناة إنما هي لحظة انتهاء الولادة، أو تكرار المولد، والقضاء على تجوال الروح:

وهنا يأتي السؤال: وكيف تتخلص النفس من تكرار المولد؟ أو كيف تقضي على التجوال الملازم لها؟

إن النفس انفصلت عن براهما الخالق، فهي جزء منه، وسعادتها ومنتهاى أملها أن تنعتق من الحلول في الأجسام، ثم تنطلق لتتحد ببراهما وتكون معه ومنه كما كانت قبل هبوطها، وحتى يتم ذلك لا بد من تحقق أمور أربعة:

الأمر الأول: فراغ النفس من الديون المستحقة عليها قبل الآخرين.

وهذا يعني: ألا تكون النفس قد ارتكبت في حياتها السابقة من الآثام

والأوزار، وألا تكون قد ارتكبت في حق الآخرين من الجرائم والإساءات ما يتطلب مجازاتها ومعاقبتها على ما ارتكبت؛ لأنها في هذه الحالة لا يمكن أن تنجو، حتى تؤدي ما عليها من عقوبات، وتوفي ما عليها من ديون، أما إذا لم يكن عليها ديون وحقوق للآخرين، فإنها تكون أهلاً للانطلاق؛ لأنها ليست مدينة لأحد.

الأمر الثاني: ألا يكون للنفس حقوق عند الآخرين تريد هي أن تستوفيها؛ فالنفس كما قد يكون للآخرين ديون عندها من حقهم أن يستوفوها؛ فذلك قد يكون لها عند الآخرين حقوق، فإن تعلقت النفس بتلك الحقوق، وأرادت أن تستوفيها، فإنها لا تخلص من تكرار المولد، ولا تستحق الانعتاق من هذه الحياة، حيث لها شهوات ورغبات لم تستوفها.

أما إذا كان لها حقوق عند الآخرين، لكنها لا ترغب في استيفائها، ولم ترغب في تحقيق ذلك، أو ليس لها حقوق أصلاً، فإنها تكون أهلاً للانطلاق والاتحاد ببراهما.

الأمر الثالث: ألا يكون للنفس ميول، أو رغبات في الحياة تريد أن تستوفيها، وترغب في الحصول عليها، فإن النفس إذا خرجت من البدن، وفارقت الحياة ولها رغبات وميول لم تستوفها، كأن يكون لها رغبة في أن تكون حاكمة، أو شاغلة لمنصب معين، أو مالكة لمتاع، أو أموال ولم يتحقق لها ذلك، فإنها لا تنجو من تكرار المولد؛ لأنها خرجت من جسدها ولها ميول ورغبات لم تستوفها، من ثم لا تنجو، وترجع في أجساد أخرى، ويتكرر مولدها، أما إذا

خرجت وهي غير معلقة بشيء من متع الحياة، فإنها يمكن أن تنجو وتنطلق.

الأمر الرابع: أن تحقق النفس ما يسمونه: (الاستنارة الإلهية).

والاستنارة الإلهية تتحقق عندهم بأمور كثيرة تقوم جميعها على رفض هذه الحياة، وذلك مثل: الزهد في الحياة، ورفض مُتَعِها، والتقشف، والفقر، والرياضات البدنية والنفسية، وبإيجاز شديد يتمثل في تلك القاعدة التي تقول: (إماتة الجسد قبل أن يموت).

فهناك - إذن - ثلاث حالات للإنسان:

الحالة الأولى: ولادة - وجوده الأول - والولادة عند الإنسان هي أصل المأساة؛ لأن الحياة شر مطلق - كما يعتقدون.

الحالة الثانية: تكرار الولادة - تناسخ - وذلك تكرار للمأساة، وخلاص المرء من المأساة، ومن شرور الحياة يتمثل في الخلاص من تكرار المولد، أو تجوال الروح، وأمله وخلاصه أن يموت جسده وتنطلق روحه فلا تدخل جسداً آخر.

الحالة الثالثة: الخلاص من تكرار المولد، والانطلاق، وذلك بموت الجسد، وعدم العودة إلى جسد آخر، وهذا الخلاص هو نفسه الانطلاق.

وهذا الانطلاق إنما يتحقق بشروط أربعة هي الأمور التي أشرنا إليها آنفاً، وخلاصتها:

أ- ألا تكون على الإنسان ديون للآخرين يجب استيفائها منه.

ب- ألا يكون له هو ديون عند الآخرين يرغب في استيفائها، أو ثواب على

أعمال سابقة له يريد الحصول عليه.

ج- ألا تكون له ميول، أو رغبات لم يستوفها في حيواته السابقة، ويرغب في استيفائها في حياة تالية.

د- الاستنارة الإلهية، المتمثلة في الزهد والتقشف، والرياضة البدنية النفسية- اليوجا- والفقر، أو يميت جسده قبل أن يموت هنا تكتمل شروط الانطلاق، فتنتطلق نفسه من تكرار المولد، وعندما يموت جسده الأخير، تنطلق النفس فتتحد بمبدئها وأصلها (براهما)، وبذلك تعيش سعادةً كاملةً تامةً بعد رحلتها الشاقة البائسة، وبذلك- أيضًا- تتحول إلى بقاء لا فناء له، وثبات لا تغيير فيه.

وقد ورد في بعض كتبهم المقدسة: «من لم يرغب في شيء ولن يرغب، وتحرر من رق الأهواء والرغبات، واطمأنت نفسه، فإنه لا يعاد إلى حواسه- جسده المادي المحسوس- ولكنه يتحد بالبراهما، فيصير هو والبراهما شيئاً واحداً، ويصير الفاني باقياً».

وقد صور أحد الفلاسفة المؤرخين للهندوسية هذا المعنى، فقال: «خلقت هذه الحياة الإنسانية من الروح -ATMA- فالإنسان ليس جسمه، أو حواسه؛ لأن هذه ليست إلا مركبة، وهي تتغير وتموت وتبلى، بل الإنسان هو الروح، وهي سرمدية أزلية أبدية مستمرة، وهي- كذلك- غير مخلوقة، وقد ذكرت شروح (الويدا) أن الإنسان من حيث روحه جاء على فطرة الله -BRAHMA- وكما أن شرارة النار نار، فإن الإنسان من نوع الإله، وروحه لا يختلف عن

الروح الأكبر، إلا كما تختلف البذرة عن الشجرة، وعندما تتجرد الروح عن الظواهر المادية- الجسد- تبدأ رحلتها للعودة إلى الروح الأكبر- الانطلاق- ولذلك يسمى تخلصها من الجسم طريق العودة»^(١).

أما كيف تتحقق الشروط الأربعة التي ذكرناها ليتحقق الانطلاق، وبخاصة الشرط الرابع الذي هو الاستنارة الإلهية، فإن الفيلسوف الهندي (أتربا) يوضح لنا عقيدة الهندوس ووسيلتهم إلى ذلك فيقول: «لقد حفلت حياة الهندوس بالبؤس والشقاء، ومحاربة الملاذ، والسلبية والتسول، وتعذيب النفس وقد قسمت الفلسفة الهندية الحياة أربع مراحل، وجعلت لكل مرحلة منهجاً يليق بها، وكل دور مدته خمسة وعشرون عامًا، باعتبار متوسط العمر- عند الهندوس- مائة عام، فالدور الأول: دور التربية الجسدية والعقلية والروحية، والدور الثاني: دور الحياة العائلية، فيتزوج المرء في هذا الدور، ويكون له أهل وذرية، ويقوم بواجباته العائلية، وفي الدور الثالث: يتنحى هو وزوجته عن الحياة العائلية، ويشغلان أنفسهما بخدمة المجتمع، دون أن يكون لهما من وراء ذلك مطمع شخصي، أو نفع عائلي، أما الدور الرابع: فيتجرد المرء فيه من كل ما هو دنيوي، ويتفرغ للرياضة الروحية- الاستنارة الإلهية»^(٢).

(١) «الحياة في عقيدة الآرين»، محمد علي حافظ، مجلة ثقافة الهند، سبتمبر ١٩٥٠م (ص ١٣٣-١٣٤).

(٢) «ثقافة الهند وحياتها الروحية والخلقية» (ص ٥٥).

أما قوانين (مانو) فتوضح طريق (الاستنارة الإلهية) بتفصيل أكبر، فتقول: «هناك من أوتي كل شيء، وهناك الذي تخلى عن كل ما في يده، فهذا خير من ذاك. على طالب الزهد أن يتجنب الحلوى واللحوم والروائح الطيبة والنساء، كذلك يجب عليه ألا يدلك جسده بما له رائحة طيبة، ولا يجوز له أن يكتحل، أو يلبس حذاء، ولا يستظل من الشمس، وعليه ألا يهتم برزقه، بل يحصل على رزقه بالتسول.

وليكن طعامك مما تنبت الأرض وتثمره الأشجار، ولا تقطف الثمر بنفسك، بل كُلْ مما سقط من الشجرة بنفسه، وعليك بالصوم، تصوم يومًا وتفطر يومًا، وإياك وأكل اللحم، أو شرب الخمر.

وعندما تدخل في الشيخوخة عليك أن تتخلى عن الحياة الأهلية والمعيشة الأسرية، وعليك أن تقيم في الغابة، وإذا دخلت إلى الغابة للإقامة فليس لك أن تقص شعرك ولحيتك وشواربك، ولا يجوز لك أن تقلم أظافرك.

عوّد نفسك على تقلبات الجو، وتغيرات الموسم، فاجلس تحت الشمس المحرقة، وعش أيام المطر تحت السماء، وارقد الرداء المبلل في الشتاء.

لا تفكر في الراحة البدنية، واجتنب سائر الملذات، ولا تقترب من زوجتك، نم على الأرض ولا تأنس بالمكان الذي أنت فيه.

إذا مشيت فامش حذرًا حتى لا تتخطى عظمًا، أو شعرا، وحتى لا تدوس نسمة، وإذا شربت الماء فاحذر أن تبتلع نسمة»^(١).

(١) «موسوعة الأديان في العالم» (ص ١٣٠)، «أديان الهند الكبرى» (ص ٧٤ - ٧٥).

وهكذا عن طريق الاستنارة الإلهية تتأهل النفوس (للاطلاق)، بعد أن تتحقق معها الشروط التي أشرنا إليها، فتتخلص النفس من تكرار المولد، أو تجوال الروح، أو التناسخ، وتنطلق لتتحد بمصدرها (براهما)، وذلك مثل القطرة من الماء تصعد بخارًا من البحر، وترتفع إلى السماء، وتنتقل من جهة إلى جهة، وقد تتحول إلى قِطْعٍ من الثلج، أو البَرَد، ثم تسقط مطرًا على الجبال، وتجري في الأنهار، ثم ترجع في نهاية المطاف إلى البحر الذي انفصلت عنه في بداية الأمر، أو كالهواء الحبيس في قدح مقلوب - حسب تشبيه أسفارهم - يظل منفصلًا عن الهواء الخارجي وإن كان منه، حتى يتحطم القدح، وحينئذ يزول الفاصل بينهما ويتحدان^(١).



(١) «موسوعة الأديان في العالم» (ص ١٣٠)، «أديان الهند الكبرى» (ص ٧٤ - ٧٥).

المبحث الحادي عشر

المصادر المقدسة في الديانة الهندوسية

قَهَيْتُهَا :

للديانة الهندوسية - كما لأية ديانة أخرى - مصادر مقدسة عند أتباعها، يستمدون من هذه المصادر عقائدها وعباداتها ومعاملاتها.

ومعلوم أن العلاقات الزمنية بين الديانة ومصادرها المقدسة ليست منضبطة على حال واحدة في جميع الأديان الوضعية، فبعض الأديان الوضعية يسبق وجود المصادر المقدسة للدين فيها وجود الدين نفسه، فتوجد المصادر المقدسة أولاً، وقد يمر وقت يطول، أو يقصر، ثم يتكون الدين على مقتضى ما جاء في تلك المصادر، وفي البعض الآخر يتكون الدين، ويتعاطاه الناس كأنه تقليد متبع، ثم تأتي بعد ذلك المصادر تُقرر ما هو موجود فعلاً في الدين كما كان يزاوله المتدينون به قبل وجود المصادر المقدسة للدين، وسيأتي أن الهندوسية من النوع الأول الذي اعتنقه أصحابه على مقتضى ما كان لديهم قبلاً.

ونحن نتكلم هنا عن الأديان الوضعية، أما الأديان الكتابية فشأنها معروف؛ إذ إن الدين لا يأتي إلا من عند الله سبحانه فالوحي ينزل على الرسول فيبلغ قومه ما أنزل عليه، أو ما أنزل إليهم من خلاله، فيكون الدين على مقتضى ما أنزل، هكذا كانت رسالة موسى عَلَيْهِ السَّلَام، ولكن قومه غيروا وبدلوا الكلم عن مواضعه

فغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرًا، وكذلك كانت رسالة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأضاع قومُهُ الإنجيل، وأسلموا أنفسهم لليهودي الحاقِد (شاءول) الذي سمى نفسه (بولس) في الوقت الذي عَصَوْا فيه رسولهم وحاربوه وحاولوا قتله، فأضلهم الله فكانوا هم الضالين.

أما الإسلام فقد حفظه الله سبحانه بحفظ كتابه القرآن، ولم يعد موجودًا من الدين الحق الذي بعث الله به جميع أنبيائه ورسله إلا ما جاء به خاتم النبيين والمرسلين محمد ﷺ، أما رسالتا موسى وعيسى فقد بُدِّلَتَا وغيَرتَا وأُضِحت كل واحدة منهما دينًا قائمًا بذاته لا صلة بينه وبين ما جاء من قِبَلِ الله ﷻ على يدي النبيِّ العظيمِ - على نبينا وعليهما صلوات الله وسلامه.



المطلب الأول

الفيدات (Vidas)

أشرنا فيما سبق إلى أن الديانة الهندوسية لها مصادر مقدسة، وأن مصادرها المقدسة الأصيلة قد سبق وجودها وجودَ الديانة نفسها، فالمصادر المقدسة كانت موجودةً يتناقلها رجالها وفلاسفتها قبل أن تتكون الديانة، وبمعنى أدق: قبل أن تتبلور الديانة، ويتفق على تفاصيل مكوناتها الأساسية.

ويغلب على الظن أن المصادر المقدسة في الهندوسية كانت محفوظة في صدور رجالها المؤمنين بها يتناقلونها شفاهًا جيلاً بعد جيل، ثم لما عُرفت الكتابة وانتشر تداولها دوت هذه المصادر نقلاً عن صدور حافظيها، أما بداية تأليفها، أو وضعها وواضعوها فتاريخ مجهول، فلا أحد يعرف متى بدأ تأليف هذه المصادر، ولا من بدأ تأليفها، ولا متى انتهى من تأليفها.

ولكن المعروف - على وجه التقريب - أن مصادر الهندوسية المقدسة وضعت في صورتها الغالبة قبل الميلاد بألفي سنة، ونقول (في صورتها الغالبة)؛ لأنها - يقيناً - قد طرأ عليها - زيادةً، أو نقصاناً - تغييراتٌ فرضتها الظروف الحياتية التي مرَّ بها واضعوا هذه المصادر خلال تلك القرون المتطاولة.

يقول الزعيم الهندي الراحل جواهر لال نهرو - في بعض كتاباته عن ديانة الهندوسية وثقافة الهند: «لعل هذه الكتب - الفيدات التي هي مصادر الهندوسية - لم تدون في أول الأمر، وإنما حفظت عن ظهر قلب، وبقيت في صدور الحفاظ من حكماء ذلك الزمان يتناقلونها مشافهةً جيلاً بعد جيل، ثم بعد معرفة الكتابة

وانتشارها دونت الفيدات الأربعة- مصادر الهندوسية- باللغة السنسكريتية، وُسِّمِي مجموع تلك الكتابات (سمهتا)؛ أي: (الديوان أو المجموع) ^(١).

وقد عرفنا أن مصادر الهندوسية المقدسة الأساسية تسمى (الفيدا)، وتجمع على «الفيدات» ^(٢)، وهناك نوع آخر من المصادر المقدسة للهندوسية، ولكنه ليس مصدرًا أصليًا، بل هو مستمد ومأخوذ من الفيذا، ونعني به: (قوانين مانو)، وهي تلخيص وإيجاز لأهم القوانين الواردة في الفيذا، وقد تناول جميع شئون الحياة. لذلك سيكون حديثنا عن مصادر الهندوسية المقدسة على فقرتين: الفقرة الأولى عن المصادر الأصلية، ونعني بها: الفيذا، والفقرة الثانية عن المصادر الفرعية، ونعني بها: قوانين مانو.

* * *

أولاً: الفيذا (Vidas):

يطلق الهندوس على مصادرهم المقدسة اسم: (الفيذا Vidas)، ومعناها في اللغة السنسكريتية القديمة: (المعرفة، أو العلم، أو الحكمة)، ويتصل بالكلام عن الفيذا أمور نبه إليها ابتداءً قبل الدخول في تفاصيلها، وأهم هذه الأمور:

(١) انظر: المصادر المقدسة في الأديان السابقة قبل الإسلام (ص ١٧٦).

(٢) (الفيذا) تنطق باللغة الأوردية: (الويدا) حيث تعود الهندو أن ينطقوا الفاء واوا، فيقولون:

(Serwes) بدل: (Serves)، وقد تجمع (الفيذا)، فيقال: (الفيدات)؛ لأنها أربعة- كما

سنعرف بحوله تعالى- لكننا نفضل أفراد لفظها، وتكون (أل) في (الفيذا) للجنس، فتقوم مقام

الجمع، وهذا أيسر على الكاتب والقارئ.

١- أن هذه الكتب العديدة التي تتكون منها الويدا لا يُعرف لها واضع، أو واضعون معينون؛ فهي أشبه بالديانة الهندوسية نفسها لا يعرف واضعوها، وكما لا يعرف واضعوها، كذلك لا يعرف لوضعها بدقة تاريخ معين، ولا يعلم على التحديد متى وضعت، ولكن المؤرخين للفكر البشري يذكرون تاريخاً تقريبياً لالتهاء من تأليفها، بدايات الألف الثانية قبل الميلاد، كما أشرنا آنفاً.

٢- هذه الكتب التي حُدِّدَ نهاية لوضعها ألفاً عام قبل الميلاد، حدَّد كثير من المختصين بداية وضعها بعشرة قرون قبل ذلك؛ أي: أن نشأتها بدأت قبل الميلاد بثلاثة آلاف عام، وانتهى منها بعد ألف عام، والذي نؤكد عليه أن هذه جميعها تاريخ تقريبية قد يصل الفرق بينها وبين الحقيقة قرونًا عديدة.

٣- أن هذه الفيدا هي من وضع الآريين، أو الشعوب الآرية التي احتلت الهند في بدايات الألف الثانية قبل الميلاد؛ ولذلك كانت هذه الفيدا صدى واضحاً لعقائد وديانات وعادات وتقاليد هذه الشعوب الآرية قبل دخولها إلى الهند، ولأن الشعوب الآرية قد تغلبت على الشعوب الهندية وانتصرت عليها واحتلت بلادها، وفرضت على الهند بجميع سكانها سيطرتها السياسية، فقد فرضت - كذلك - على سكان الهند جميعاً بعنصرهم: الهنود الأصليين والطورانيين الذين احتلوا الهند قبل الآريين بألف عام تقريباً - عقائدهم وعاداتهم وتقاليدهم، وفي هذا الإطار - العقائد والعادات - تأتي كتب الفيدا، حيث تعتبر الفيدا سجلاً لكل ما يتصل بالآريين؛ ديناً

وسياسة، حضارة وثقافة، مهناً وحرفاً وصناعات وعاداتٍ وتقاليده، كل هذا سجلته الفيدا بتفصيل مُملٍّ، فهذه الكتب - إذن - آرية المنشأ والتأليف والوضع والمحتوى.

٤ - مرت الشعوب الآرية بظروف متقلبة غير مستقرة عبر قرون طويلة، يتنقلون عبر البلاد، ويختلطون بالأمم التي مروا بها، وفي كل مرة يختلطون فيها بأمة، أو شعب يؤثرون في المختلطين بهم ويتأثرون بهم، ويظهر أثر هذا التأثير في ديانات الآريين وعقائدهم وعاداتهم، ثم يظهر هذا الأثر - كذلك - في التراث الديني والثقافي للآريين المتمثل في الويدا من ثم يضاف إلى الويدا أشياء، أو ينسخ منها أشياء.

٥ - أن أكثر الثقافات والأديان التي تأثرت بها الفيدا إنما هي ثقافة وأديان وتقاليدهم الشعب الهندي بشقيه - الهنود الأصليون والطورانيون - حيث لم يعد تأثر الآريين بالشعب الهندي، أو سكان الهند مبنياً على الاختلاط بينهم أثناء ترحال الآريين، بل إن الآريين قد استقروا بالهند واختلطوا بسكانها اختلاطاً معيشة وحياة، لذا كان تأثر الفيدا بثقافات الشعب الهندي تأثراً ملحوظاً، ولكن التأثير الأكبر كان للآريين على سكان الهند؛ حيث هم الشعب الأقوى والغالب والمستعمر، بينما سكان الهند هم المغلوبون والضعفاء المقهورون المستعمرون.

وقد اتضح ذلك جلياً في الديانة الهندوسية التي تبلورت واتضحت معالمها أوائل الألف الأولى قبل الميلاد، وعلى وجه أقرب إلى الدقة في القرن الثامن قبل الميلاد، حيث يكاد يجمع مؤرخو الديانة الهندوسية على أنها أنشئت

وتبلورت حول ذلك التاريخ.

٦- عرفنا أن أسفار الفيدا كُتبت قبل الميلاد بألفي عام على وجه التقريب وهذا ينطبق على معظم أسفار الفيدا، وإن كان هناك أسفار، أو بعض أسفار كتبت في تاريخ حديث نسبياً لا يزيد على الألف الأولى قبل الميلاد، وربما أحدث من هذا بقرن، أو اثنين؛ أي: حوالي القرن الثامن والسابع ق. م. هذا الذي قررناه هو ما تمخضت عنه الدراسات الوافية والحديثة نسبياً، والتي أولت اهتماماً خاصاً وكبيراً لدراسة الديانة الهندوسية، وبخاصة دراسة الفيدا، وقد ساعد على ذلك الاهتمام وجود الاستعمار الإنجليزي للهند، حيث اهتم العلماء الغربيون بالتراث الهندي وبأسفار الفيدا من جميع الجوانب.

أما الهنود، أو الهندوس فلم يعتقدوا في أسفار الفيدا، وكيفية نشأتها وتكوّنها؛ حيث يعتقد الهندوس أن أسفار الفيدا جميعها وحي من الإله براهما الذي يدين به الهندوس فهم يعتقدون أن براهما الإله الخالق قد أوحى بأسفار الفيدا، وأن الوحي بها قديم أزلي لا بداية له، لكنها ظلت مجهولة حتى سخر الإله براهما أخذ الحكماء القدماء العظام، فأطلعه براهما على هذه الأسفار، وسخره لجمعها، فجمعها، والهندوس يسمون هذا الحكيم: (فيدا فياسا - VIDA VYASSA)، ومعناها: (جامع الفيدا).

وبعد أن نبهنا إلى الأمور الهامة التي تجب معرفتها بالنسبة للفيدا، جاء وقت

التفصيل عن موضوعاتها.

تفصيل الكلام عن الفيدا:

تتكون الفيدا من أسفار عديدة يصعب حصرها على غير المختصين بها من رجال الدين الهندوسي - البراهمن BRAHMAN - وهذه الأسفار لم توضع كلها في عصر واحد، بل وضعت في عصور مختلفة، هذا إذا تغاضينا عن عقائد الهندوس فيها والتي تزعم أنها من وحي براهيم، وأنها قديمة أزلية لا أول لوجودها.

وهذه الأسفار التي تتكون منها الفيدا تنقسم حسب الأغراض التي وضعت لها إلى أربعة أقسام، أو أربعة مجموعات، هي:

- ١ - (ريج فيد، أو ريتش فيدا)، ومعناها: (الفيدا النارية)؛ أي: المنسوبة إلى النار.
- ٢ - (ياجور فيدا)، أو (ياجوشا فيدا)، ومعناها: (الفيدا الهوائية)؛ أي: المنسوبة إلى الهواء.

- ٣ - (سامان فيدا)، أو (ساما فيدا) ومعناها: (الفيدا الشمسية)؛ أي: المنسوبة إلى الشمس.

- ٤ - (أتارفانا فيدا)، ولا يعرف سبب تسميتها بذلك، ويغلب عند الباحثين أنها منسوبة إلى شخص اسمه: (أتارفانا).

والى تفصيل الكلام عن كل مجموعة من هذه الأسفار.

المجموعة الأولى: (ريج فيدا)، أو (ريتش فيدا):

لعل التردد بين اسمين لها راجع إلى اللغة السنيكرتية التي ترجمت إليها، واختلاف المترجمين، وصعوبة نطق الكلمات عند القارئ.

وليس مهمًا ذلك الاختلاف اليسير، ولكن المهم أن هذه الأسفار التي تكون الريح فيدا تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: يسمى (منترا فيدا)، ويتمثل في أذكار، وأوراد، وأدعية منظومة على هيئة أشعار تتلى في الصلوات، والمناسبات الدينية.

القسم الثاني: يسمى (براهمانا فيدا)، وهو يشتمل على التعاليم المتعلقة بأداء الواجبات الدينية من الصلوات، وتقديم القرابين، والعبادات بصورة عامة. وهذه المجموعة من الأسفار (الريح فيدا) هي أشهر المجموعات الأربعة، وأهمها وأقدمها، إلى حد أن البعض يزعم أنها ألفت قبل الميلاد بثلاثة آلاف عام، وإن كانت هذه مبالغة، فهي تدل على قدمها وأهميتها وأسبقيتها في الوضع والتأليف بالنسبة للأسفار الأخرى في المجموعات الثلاث، وتشتمل الريح فيدا على (١٠١٧) أنشودة دينية، وضعت ليتضرع بها أتباعها ويتقربون بها إلى آلهتهم. وأسفار الريح فيدا هي أكثر الأسفار التي يتغنى بها الهندوس ويتلونها في صلواتهم صباحًا ومساءً.

المجموعة الثانية: (ياجور فيدا):

وتعني: (الفيدا الهوائية) وتنقسم هذه المجموعة من الأسفار إلى قسمين (ياجور فيدا البيضاء) و(ياجور فيدا السوداء)، وكل من هاتين المجموعتين تنقسم إلى قسمين:

١ - (منترا) وتمثل في أدعيات وأذكار وأوراد نثرية وشعرية تتلى في المناسبات الدينية.

٢ - (براهمانا)، وتمثل في التعاليم والواجبات الدينية الخاصة بالعبادات والقرابين.

المجموعة الثالثة: (سامان فيدا):

وتعني: الفيدا الشمسية - كما أشرنا آنفاً - وهي قسمان كذلك:

١ - (مُتْرا)، وتتمثل في: أدعية ومزامير وأناشيد وأذكار تتلى في المناسبات الدينية.

٢ - (براهمانا)، وتتمثل في التعاليم المتعلقة بالعبادات والواجبات الدينية.

المجموعة الرابعة: (أتارفانا فيدا):

بيناً آنفاً أنها ربما نسبت إلى حكيم من حكماء الهند القدامى، ولعله واضعها، أو جامعها، وهذه المجموعة لها وضع خاص يجعلها مختلفة عن المجموعات الثلاث الأخريات، وأهم هذه الاختلافات التي تتميز بها هذه المجموعة عن الأخريات ما يلي:

١ - أنها حديثة جداً، فَوْضَعُها متأخر عن السابقات، إلى حد أن كثيرين من الحكماء الهندوس لا يعدونها من الفيدات، ومن هؤلاء الحكماء الشهير (مانو) صاحب قوانين مانو التي ستتكلّم عنها عقب كلامنا عن الفيدا - بحوله تعالى فهذا الحكيم قلما يلتفت إليها، أو يذكرها، وكذلك غيره كثيرون لا يكادون يلتفتون إليها؛ وذلك لكونها حديثة ومتأخرة في الوضع عن السابق عليها.

٢ - أنها - لكونها حديثة - لصيقة بالحياة الهندية، وصدى لكل المشاكل الحياتية التي يعيشها الهنود بينما الفيدات الثلاث السابقة أكثر التصاقاً بحياة الآريين الغزاة قبل وبعد غزوهم الهند، ولأن هذه أكثر التصاقاً بحياة الهنود فإننا

نجد فيها الكثير من حياة الهندوس، بل والهنود جميعًا.

٣- من هذه الأمور التي نجدها واضحة في أسفار الأتارفانا أنها تمثل صدًى واضحًا لكل ثقافات الهند، تلك الثقافات التي تقوم على الأساطير والخرافات، والسحر والشعوذة، وسيطرة الجن والشياطين على حياة الناس بلا حدود؛ ولذلك اشتملت على كثير من الرقى، والسحر، والطلاسم، والتعاويذ التي تقي من عمل الجن والشياطين.

٤- كذلك فقد اهتمت هذه المجموعة من أسفار الفيدا بالطبقات التي يقوم عليها المجتمع الهندي، والعلاقات الاجتماعية التي تحكم نظام هذه الطبقات. وهذه المجموعة تنقسم أيضًا مثل المجموعات الأخرى إلى نفس القسمين:

القسم الأول: منترا، وهي الأوراد والأذكار والرُقَى والسحر والشعوذة والطلاسم التي تقاوم أثر الجن والشياطين.

القسم الثاني: براهمانا، وهي التي تتمثل في الشرائع والطقوس العبادية، وتنظيم عملها.

هذه هي الفيدات، أو الفيدا بأقسامها الثلاثة القديمة الأصلية المتفق عليها، ثم بقسمها الرابع المسمى (أتارفانا فيدا) والذي يبدو أنه كان أحدث كثيرًا من الأقسام الأخرى، ويبدو - كذلك - كما يظن بعض الباحثين أنه لم يكن في أصله ضمن الفيدا، لكنه أقحم عليها في وقت لاحق، ثم بمرور الوقت عُدَّ منها وأخذ حكمها، ومن ثم أصبح فيما بعد قسمًا منها لا يشك فيه أحد من الهندوس.

المجموعة الخامسة (الفيدا الخامسة):

هناك كثير من الدارسين والمشتغلين بالفيدا يضيف إلى هذه المجموعات الأربعة التي ذكرناها قسمًا خامسًا، أو مجموعةً خامسةً يسميها (الفيدا الخامسة) نظرًا إلى المجموعات الأربعة التي سبق ذكرها، وهذه المجموعة تتكون من قسمين، هما:

القسم الأول: الإيتيهازا (ITIHASA).

القسم الثاني: البورانا (PORANA).

ولكن الصحيح أن هذين السفرين من الأسفار التي كانت في أصلها شروحًا وتأويلاتٍ وتعليقاتٍ على أسفار الفيدا الأصلية التي تتكون من المجموعات الأربعة السابقة، والدليل على ذلك أن ثمة أسفارًا أخرى عُدَّت كذلك من الفيدا، وليست كذلك، وقد عدها البعض أقسامًا من الفيدا، وليس الأمر كذلك، بل هي شروح وتعليقات مثل: (السوترا SOUTRA)، و(البراهمانا BRAHMANA)، و(الأوبانيشاد - OUPANICHAD)، و(الفيدانتا - VEDANTA)، كل هذه تعليقات وشروح، وربما تقسيمات وتشقيقات للفيدا الأصلية، وليست فيدا خامسة، أو شيئًا من ذلك.

ولقد ظلت كتب الفيدا زمانًا حبيسة صدور رجال الدين وحكماء الهندوسية، حتى عرفت الكتابة وانتشرت فكتب تلك الأسفار باللغة السنسكريتية القديمة، وظلت كذلك حتى انقرضت هذه اللغة من لغة الكتابة والتخاطب، وبذلك أصبحت الفيدا غير معلومة إلا لطائفة يسيرة من رجال الدين الكبار الذين اقتصررت معرفة تلك اللغة

القديمة عليهم، وقد زاد من صعوبة الأمر أن عقائد هؤلاء الحكماء الهندوس، أو رجال الدين كانت تحرم عليهم أن ييوجوا بأسرار دينهم وكتبهم إلى الآخرين من أصحاب الأديان الأخرى، أو حتى ممن يدينون بدينهم إن كانوا عواماً؛ ولذلك عاد الأمر جذعاً، ورجعت أسفار الفيدا مرة أخرى حبيسة صدور رجال الدين الهندوسي، ولم يغير من ذلك كونها مكتوبةً بالسنسكريتية القديمة؛ لأنها كتابة كعدمها ما دام لا يعرفها إلا هؤلاء الحكماء من رجال الدين الكبار الذين يوشكون أن يغادروا الدنيا.

وقد ظل الأمر كذلك حتى القرن العاشر الميلادي حيث استطاع العالم العربي الشهير (أبو الريحان البيروني)^(١) أن ينقل إلى العربية طائفةً كبيرةً من محتويات الفيدا، وقد نقلها العالم العربي المذكور رَحِمَهُ اللهُ إلى العربية تحت عنوان (بيذ) بدلاً من كلمة (فيدا)، في كتابه عن الهند والذي جعل عنوانه: (تحقيق ما للهند من مقولة، مقبولة في العقل أو مردولة).

وذلك أن العالم البيروني عكف على دراسة اللغات الهندية القديمة والحديثة حتى أتقنها، وقد مكّنه ذلك من الاطلاع على كتب الفيدا ومخطوطاتها، إضافة إلى تمكنه من معرفة ثقافات الهند بصورة تفصيلية وثيقة، من هنا استطاع أن ينقل ما رآه هاماً من الفيدا، ولعله اكتفى بما نقله منها، ولم

(١) محمد بن أحمد أبو الريحان البيروني (٣٦٢ - ٤٤٠ هـ = ٩٧٣ - ١٠٤٩ م) ذهب في سن مبكرة إلى بلاد الهند مرافقاً للسلطان محمود الغزنوي في حملاته وغزواته على بلاد الهند، ثم بقي هناك يدرس أديان الهند وثقافتهم.

يكلف نفسه نقلها جميعها لأمرين:

الأمر الأول: أنها كمٌ كبير، وركام هائل يصعب نقله جميعه، فذلك يحتاج جهدًا كبيرًا، ووقتًا طويلًا إضافةً إلى أن الجانب الأكبر منه أساطيرٌ وخرافاتٌ لا تفيد قارئها شيئًا؟

الأمر الثاني: أنه نقل الجانب الأهم في هذه الفيدا، والذي يحتوي على ديانات القوم وعقائدهم، وعاداتهم وكل ما رأى البيروني أنها كافية في نقل صورة صادقة عن الهند وسكانها إلى قراء العربية.

وقد قسم البيروني ما ترجمه من أسفار الفيدا إلى ثلاثة أقسام: قسم خاص بالفلك، وطبعي أن يكون حديث الفيدا عن الفلك حسب ما فهمه مؤلفو الفيدا في زمانهم؛ أي: قبل الميلاد بألفي عام تقريبًا، والقسم الثاني خاص بالرياضيات، والقسم الثالث خاص بالفلسفة، وفيه نجد الجوانب الهامة للفيدا، ونجد عقائد الهندوس ودياناتهم، كما نجد ثقافتهم بما تشتمل عليه من أساطير وخرافات، وقد كان كتاب البيروني المشار إليه هو أول كاشف لأسرار الفيدا، كما كان أول موسوعة نقلت إلى العالم كله أسرار الديانات الهندية وما يتصل بها من ثقافة وعادات وأعراف.

وفي منتصف القرن السابع عشر الميلادي استطاع أحد علماء الفرس واسمه (دارا شيكول) أن يحصل على بعض أجزاء من الفيدا، وقد استطاع هذا العالم بفضل معرفته باللغة السنسكريتية التي كتبت بها هذه الأسفار أن يترجمها إلى اللغة الفارسية، وقد ظهرت هذه الترجمة سنة سبع وخمسين وستمائة وألف

١٦٥٧م، ثم استطاع كثير من علماء الغرب المعنيين بالثقافة الهندية أن يعثروا على أجزاء كثيرة من الفيدا على هيئة مخطوطات في المعابد والمكتبات القديمة، وقد استطاعوا بفضل تعلُّمهم اللغات التي دُوِّنت بها تلك الأجزاء أن يترجموها إلى اللغات الأوروبية الحديثة.

وعن طريق هؤلاء العلماء الذين بدأت مسيرتهم بأشهرهم (البيروني)، عرف الناس أسفار الفيدا، واطلعوا على محتواها، وعرفوا عن طريقها عقائد الهندوس وثقافتهم وأعرافهم، وكل ما يتصل بهم.



المطلب الثاني

قوانين مانو

تشتمل قوانين مانو (Manava Dharma Sastra)، أي: كتاب قوانين مانو، على شروح وتفسيرات وتعليقات على أسفار الفيدا، وغيرها مما يعد شروحًا لها لدى الآخرين، وتشتمل قوانين مانو على الدين البراهمي، أو الهندوسي وكل ما يتصل به بحيث لا تترك قوانين مانو جانبًا من جوانب الهندوسية إلا وقد فصلته تفصيلًا وافيًا، وربما أضافت تلك القوانين من عند صاحبها ما يوضح ما أهملته أسفار الفيدا، وقد تناولت قوانين مانو عقائد الهندوسية، وعباداتها ومعاملاتها، ونُظُمها الاجتماعية؛ سياسية واقتصادية ونُظُم الأسرة؛ من زواج وميلاد، وموت، وتناولت نظم الحرب والعقوبات والتربية والأخلاق والجرائم وعقوباتها... إلخ.

ويُنسب هذا السفر الكبير إلى عالم مشرع اسمه (مانو)، أو (مانافا)، ولا يُعلم تاريخ هذا المشرع على التفصيل، وكل ما يدور حوله قصص وروايات هي أقرب إلى الأساطير منها إلى الحقيقة، ومن جملة ما يحكى عنه من أساطير أن (مانافا) مؤلف تلك القوانين هو أحد الآلهة المنبثقة عن براهما، وهذا الاعتقاد من شأنه أن يضفي على هذا السفر صفة القداسة؛ لأن كاتبه، أو الموحى به إلى من كتبه إنما هو إله، لكن المحققين ممن عُنُوا بأسفار مانو يرون أن مؤلف تلك القوانين كان يعيش في القرن الثالث الميلادي.

وقد ذكرنا أن السفر قد استقى معلوماته عن الفيدا، وقد ألف (مانو) سفره هذا على هيئة أشعار منظومة، وقد اشتمل هذا السفر على (٢٦٨٤) أربع

وثمانين وستمائة وألفي مادة، تتناول كل مجموعة من المواد موضوعًا معينًا، وقد وزعت هذه المواد على اثني عشر كتابًا، كل كتاب يختص بموضوع معين، وقد صاغ المؤلف سفره هذا على هيئة أشعار منظومة، أما الكتب التي اشتمل عليها هذا السفر فهي:

الكتاب الأول: في الخلق، ويبين كيف خلق براهما العالم، والإنسان، وقسم الناس إلى طبقات، وتشتمل على (١١٩) تسع عشرة ومائة مادة.

الكتاب الثاني: يتكلم عن الأدعية، والصلوات، والأخلاق، ويشتمل على (٢٤٩) تسع وأربعين ومائتي مادة.

الكتاب الثالث: يتكلم عن نظام الأسرة والزواج وما يتصل بذلك، ويشتمل على (٢٨٦) ست وثمانين ومائتي مادة.

الكتاب الرابع: في النظم الاقتصادية، ونظم العمل، والسعي على المعاش، ويشتمل على (٢٦٠) ستين ومائتي مادة.

الكتاب الخامس: في الاستغفار والتقوى والطهارة والتكفير عن الذنوب، ثم عن واجبات المرأة، ويشتمل على (١٦٩) تسع وستين ومائة مادة.

الكتاب السادس: في التصوف والزهد والفقر والتواضع، وما يتصل بذلك، ويشتمل على (٩٧) سبع وتسعين مادة.

الكتاب السابع: في السياسة ونظام الحكم، وواجبات الحكام، ورجال الجيش وشئون الحرب وما إلى ذلك، ويشتمل على (٢٢٦) ست وعشرين ومائتي مادة.

الكتاب الثامن: في النظم القضائية، وقانون العقوبات، وفي الشئون المدنية

ونظمها، ويشتمل على (٤٢٠) عشرين وأربعمئة مادة.

الكتاب التاسع: تكملة في القوانين المدنية، وقانون العقوبات، والتجار وطبقاتهم، وطبقة الخدم والعبيد، ويشتمل على (٣٣٦) ست وثلاثين وثلاثمئة مادة.

الكتاب العاشر: في طبقات المجتمع، والنظم الخاصة بكل طبقة، والمجاعات التي تحدث، وما تجب مراعاته في المجاعة، ويشتمل على (١٣١) إحدى وثلاثين ومائة مادة.

الكتاب الحادي عشر: في الخطايا والذنوب، وطرق الاستغفار والتكفير عنها، ويشتمل على (٢٦٥) خمس وستين ومائتي مادة.

الكتاب الثاني عشر: في تناسخ الأرواح، وتجوّالها، وانطلاقها، والسعادة الأخروية، ويشتمل على (١٢٦) ست وعشرين ومائة مادة^(١).

وقد ترجمت قوانين مانو هذه إلى كثير من اللغات الحية؛ وذلك لما نالته من إعجاب الكثير من العلماء المعنيين بدراسة الأديان والثقافة الهندية، ورغم أن هذه القوانين هي تلخيص وتنظيم لما ورد في أسفار الفيدا، إلا أنها أكثر سهولة وإيجازاً، وأيسر تناولاً من الفيدا نفسها، ثم إنها تخلصت مما تشتمل عليه الفيدا من أساطير وخرافات لا فائدة من قراءتها، أو الاطلاع عليها، إلا إضاعة الوقت والجهد.



(١) «الأسفار المقدسة في الأديان السابقة على الإسلام» (ص ١٨٠ - ١٨٢) بتصرف، وانظر كذلك: «تحقيق ما للهند من مقولة» (ص ٣٠) وما بعدها.

الفصل الثاني

المصادر التبعية لعقائد الديانة الهندوسية

تمهيد

المبحث الأول: مهابهارتا (Mahapharta)

المبحث الثاني: رامايانا (Ramayana)

تَهْيِئَة

تكلّمنا آنفًا عن المصادر المقدسة الأصلية لدى الهندوس، وذكرنا أنها نوعان: الفيدات، وقوانين مانو، وعرفنا أن قوانين مانو هي تلخيص وتنسيق وتوضيح لما ورد في كتب الفيدات من تشريعات وقوانين وأحكام تتناول جميع شئون الهندوس غالبًا، وهذان النوعان ما أردنا من قولنا: المصادر المقدسة لدى الهندوس.

لكن الهندوسية لديها كتب أخرى تعتبر مقدسة أيضًا، لكن في الجملة، على معنى: أنها تأتي في درجة أدنى من الفيدا وقوانين مانو من حيث التقديس، وهي كذلك لا تشتمل على أحكام قائمة بذاتها، بل هي شروح وتأكيدات على الكثير مما ورد في الفيدا، وكذلك تحتوي على تطبيق أحكام الفيدا، ثم هي أخيرًا قصص وأساطير تؤكد على قوى الآلهة الهندوسية، وعلى ما أوتيت من قدرة وحكمة بها تُساعد الأخيار، وتُعاقب الأشرار، وهي إن أتت بشيء جديد فإنما تأتي بعظات وعبر تجعل العاقبة والغلبة للخير والأخيار، وإن بدا غير ذلك.

والأصل في هذه الكتب التي تأتي في المرتبة الثانية من القداسة لدى الهندوس؛ أن الكتب المقدسة الأصلية - الفيدات - قديمة، ولم يعرف لجملتها واضع، أو مؤلف، بل هي في جملتها من وضع أعداد كثيرة من فلاسفة الهندوس، ثم هي ركام هائل، والكثير منها معقد وصعب الفهم؛ لذلك كان

هناك من وضع لها- على مدى تاريخها- شروحًا، ومن وضع لها ملخصات، ومن استخلص منها أحكامًا، مثل الحكيم (مانو)، إلى آخر ذلك.

في خضم هذه الحركة من الشروح والتفسيرات والحواشي والتعليقات على كتب الفيدا، جاء من استقى منها بعض قصص وأساطير وسجلها يدور جميعها حول شرح وتأكيـد المعاني النفسية والروحية والدينية الموجودة في كتب الفيدا، والعبرة التي نريد أن نؤكدـها أخيرًا أن هذه الكتب المقدسة التبعية ليست فيدا، ولكنها على علاقة وثيقة بكتب الفيدا، وهذا معنى قولنا: التبعية؛ لأنها إن لم تكن من الفيدات، فهي تابعة لها، وتدور في فلكها بقي أن نعرف أن بعض هذه الكتب يعرف له مؤلف، وبعضها لا يعرف له مؤلف، وهذا هو الأصل؛ لأنه حتى ما ذكر له مؤلف من هذه الكتب، فأمره مشكوك فيه؛ لأن سنده مقطوع، والشك حوله قائم، ولا يوجد دليل واحد، بل ولا قرينة تؤكد صدق الزعم بأن مؤلفه هو هذا المذكور.

وبعد هذا التمهيد الكاشف ننتقل إلى الكلام عن أهم هذه المصادر التبعية،

ونعرض لها في المباحث التالية:

المبحث الأول

مهابهارتا (Mahapharta)

تعتبر (مهابهارتا)^(١) ملحمة الهند الكبرى، وهذا يعني أن ثمة ملاحم أخرى كثيرة تشبه هذه الملحمة، لكن هذه تمتاز عنها جميعها بأنها أكبرها، وأكثرها عظمةً وأحدًا، وأشدّها تأثيرًا على الهندوس، بل إن تأثيرها قد تعدى بلاد الهند إلى الآداب العالمية، يضاف إلى ذلك: أنها من الكتب التي عرف مؤلفها- فيما يزعمون- لذلك كانت منزلتها على رأس الكتب الأخرى مثيلاتها، يضاف إلى ما تقدم- كذلك- أن هذه الملحمة ليست ملحمةً واحدة، بل ملاحم في ملحمة؛ وذلك لكبرها وكثرة تفاصيلها من هنا كان حديثنا عنها يتناول- بحول الله- جانبًا من جوانبها الأساسية، دون ذكرها بتمامها، وهناك ملحظٌ آخرٌ يمنعنا من ذكرها بتمامها سوى طولها وفروعها، ذلكم أنها مليئة بذكر الأسماء الصعبة المتشابهة التي يصعب متابعتها واستيعابها، كذلك فيها من الغموض والاستطرادات والأحداث الخيالية التي لا يصدقها عقل. كل هذا يجعل ذكرها بتمامها صعبًا.

ثم إن القصد من ذكرها يتحقق بذكر طرف منها، ثم إن الاختصار على ذكر طرف من هذه الملحمة، يعطينا إمكانية ذكر ملحمة أخرى صغيرة فيها من عظمة وعبر الهندوسية وواضعيها ما ليس في ملحمة (مهابهارتا)، ولنبدأ

(١) تَرجَم هذا الكتاب (مهابهارتا) إلى العربية أ. عبد الحميد النعماني.

بالتعريف بمؤلف (مهابارتا)، ثم نروي الملحمة.

أولاً: مؤلف الملحمة:

هذه الملحمة تشبه كثيراً (الإلياذة والأوديسا) عند اليونان القدامى في أنها قصص خيالي، وأساطير تقوم على الوهم، وفي كونها تجعل أبطالها مزيّجاً من الآلهة والبشر، وفي كونها تحث على الفضيلة وتنتهي عن الرذيلة.

ومؤلفها- فيما يزعمون- رجل حكيم اسمه (وياس)، وهو ابن الحكيم الشهير (برسرا)، وقد أملى المؤلف هذه الملحمة المقدّسة على تلميذه (كنيتي) الذي قام بتدوينها كما جاءت على لسان المؤلف، وقد وقعت أحداث هذه الملحمة في منتصف القرن العاشر قبل الميلاد ٩٥٠ ق. م.

ثانياً: الملحمة:

هناك في مملكة تسمى (هستانبور) كان للملك ولدان: الكبير منهما اسمه (دهري تارشترا)، وكان كفيف البصر؛ لذلك انتقل الملك بعد وفاة الملك الأب إلى ابنه الثاني الذي كان يدعي (باندو)، ولكن هذا الملك (باندو) ارتكب ذنباً كبيراً، فحكم عليه بأن ينتقل إلى مجاهل الصحراء ليكفر عن ذنبه هذا، ولما انتقل الملك إلى الصحراء؛ آل الملك إلى أولاد أخيه الكفيف الذين كانوا يسمون (كورو).

ومات الملك (باندو) في المنفى وترك خمسة أولاد كان يطلق عليهم:

(خمسة باندو)، أو (پانچ باندو)^(١) وظل هؤلاء - الخمسة باندو - في الأدغال والكهوف يتعلمون على أيدي النساك والعارفين حتى صاروا على درجة عالية من الدراسات الدينية، وبخاصة معرفة الفيدا وغيرها من العلوم الدينية، ولما بلغ أكبر الإخوة الخمسة سن الرشد عاد بإخوته والأسرة كاملة إلى (هستنابور) مملكتهم، وطالبوا بميراثهم من الملك بعد أن أتموا الكفارة التي حكم بها عليهم ولكن أولاد عمّه المسمّون (كورو) ناصبوهم العدا، ورفضوا تسليمهم الحكم الذي هو لهم ومن حقهم، وأخذوا يعدون العدة لإعلان الحرب عليهم. وبدأت المناوشات بينهم، ولكن مساعي الصلح سعت بين الفريقين ووفقت بينهما، وكان من نتيجة ذلك أنهما اشتركا في الحكم معاً، وبعد فترة هزم آل (باندو) في لعبة (النرد) التي كانت تعد في ذلك الوقت رمزاً للشرف والسيادة، وبناء على هزيمتهم في النرد حكم عليهم بالنفي ثلاثة عشر عاماً في الغابات، ولما انتهت عقوبتهم رجع (آل باندو) يطالبون بحقهم في الملك لكن الملك (دريودهن) المنتمي إلى (كورو) رفض أن يعيد إليهم الملك، أو يشركهم فيه - كما كان الأمر قبلاً - ولذلك لم يبقَ إلا الاحتكام إلى الحرب.

وفي الحرب بين الفريقين تدخل الجن والشياطين وطائفة الآلهة إلى جانب (دريودهن)، أو (كورو) وكان قائد الجن والآلهة هنا اسمه: (برهسبتي) وهو خبير بالكتب المقدسة وأسرارها، بينما كان ينوب عن (آل باندو) جماعة من

(١) يذكر البيروني في كتابه: «تحقيق ما للهند من مقولة» نفس القصة، ولكنه يذكر أنهم كانوا (أربعة

باندو)، أو (جهار باندو).

العلماء الذين يجيدون السحر، واستخدام الطاقات الكامنة في الأجسام، وكان هؤلاء يسمون: (أسورا)، وكما كان (برهسبتي) قائد فريق الآلهة، كان قائد فريق (أسورا) اسمه: (سوكرا أجاريا)، وكان (سوكرا أجاريا) يجيد من السحر عملية (سن جيوني)، وهي تعيد من يموت إلى الحياة من جديد، وبهذه العملية كان فريق (أسورا) يتنصر دائماً، بسبب أن قائده (سوكرا أجاريا) يستعمل (سن جيوني) فيعيد كل من مات من جنوده حياً، وكان فريق الآلهة دائماً ينهزم بسبب ذلك.

وظل فريق الآلهة يبحث عن حل يتعلم عن طريقه عملية (سن جيوني)، إلى أن اهتدى إلى أحدهم وكان معتزلاً الحرب واسمه (كاجا) فشكوا إليه حال هزيمتهم وطلبوا منه أن يحاول أن يتعلم عملية (سن جيوني) التي تعيد الميت حياً، من (سوكرا أجاريا) ولو بطريق الخداع، وتعاطف (كاجا) مع الآلهة؛ لأنه منهم، وذهب إلى (سوكرا أجاريا) وقال له قصدت إليك لأتعلم منك دروس الحكمة والمعرفة، وقبله (سوكرا أجاريا)؛ لأن المعلم الفاضل لا يرد متعلماً، والتحق كاجا يعمل مع (سوكرا أجاريا) خادماً وتلميذاً.

وكان لسوكرا أجاريا بنت يحبها أكثر من نفسه ويلبي طلباتها، وصار (كاجا) يخدمها ويلعب معها حتى شغفت به حباً، وعرف (أسورا) أن (كاجا) يحتال ليتعلم طريقة (سن جيوني)، ثم ينقلها إلى أعدائهم، فتربصوا به وقتلوه، ولكن ابنة (سوكرا أجاريا) واسمها: (ديوياني) بكت على موت حبيبها، وحزنت حزناً شديداً؛ لذلك استعمال أبوها عملية (سن جيوني) وأعاد (كاجا) حياً من أجل ابنته، جلس الحكماء من فريق (أسورا) يفكرون كيف يتخلصون من (كاجا)

بحيث لا يستطيع (سوكرا أجاريا) إعادته، فهداهم تفكيرهم إلى أن انتظروه وهو يحضر الأزهار الجميلة من الغابة من أجل (ديوياني)، ثم قتلوه، وحرقوه، وأذابوا رماده في كأس وأعطوا الكاس لمعلمهم (سوكرا أجاريا) فشربها، واستقر رماد (كاجا) في جوف سوكرا أجاريا، ولما طال غياب كاجا بكت البنت لأبيها، ولما حاول استعمل سر (سن جيوني) ليعيده حيًّا إذا هو يضطرب في جوفه، فأدرك المعلم أن (كاجا) ساكن في جوفه، وأنه لا يمكن إعادته حيًّا إلا بموته هو، فحزن شديدًا من أجل ابنته، وجلس يفكر في طريقة، وهي أن يعلم سر (سن جيوني) لتلميذه (كاجا) وهو في إحشائه فإذا تعلمها، فإن المعلم (سوكرا أجاريا) سوف يحيي (كاجا) وهو في أحشائه، وهكذا كان، فأحيا (سوكرا أجاريا) (كاجا) وهو في أحشائه، وقال له: الآن تشق بطني وتخرج فأموت أنا نتيجة لذلك - لكنك - وقد تعلمت طريقة سن جيوني - تستعملها بعد ذلك فتحسيني وكذلك تم الأمر بنجاح.

ولما عاد (سوكرا أجاريا) إلى الحياة، انحنى لتلميذه أمامه، وقال له: إن الشيخ الذي يعلم التلميذ الجاهل يقوم مقام الأب، فأنت أبي، وحيث إنني شققت بطنك وخرجت منها؛ فأنت لي - كذلك - أم حنون^(١).



(١) «مهابهارتا»، ترجمة أ. عبد الحميد النعماني، بتصرف كبير، وانظر أيضًا: الهندوسية، د. أحمد شلبي.

المبحث الثاني راما يانا (Ramayana)

حرصنا على ذكر هذه الأسطورة، التي هي أقرب إلى الحقيقة منها إلى الأسطورة، وإنما دَفَعْنَا إلى القول بأنها أسطورة أمران:

الأمر الأول: أن كل ما يتصل بالهندوسية ورجالها وعقائدها إنما هو أساطيرُ وخرافاتٌ، وإن نجا من ذلك شيء فنادر إلى حد الشذوذ.

الأمر الثاني: أن هذه القصة تُروى - وكثير غيرها - ضمن الأساطير الهندية، أو الهندوسية، لكن القصة في ذاتها أقرب إلى الحق والواقع، وما يحول بينها وبين ذلك إلا أنها وصلت من الحق إلى مستوى يصعب وصول الهنود إليه، أو غير الهنود، إلا في القرون الأولى للإسلام فيؤمن بذلك المرضي عنهم من صحابة النبي ﷺ وأتباعه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

ولنبداً بالتعريف بالقصة التي معنا، ثم نروي تفاصيلها:

أولاً: التعريف بأسطورة (راما يانا):

وراما يانا كتابٌ من الكتب التي تُقدِّسها الهنود والهندوس معاً، فهو أشبه بتراث قومي هندي أكثر منه كتاباً مقدساً هندوسياً، وهذا الكتاب وصل من القدم إلى حد أنه لا يعرف له مؤلف محدد، ولا حتى مجموعة من المؤلفين كل ما يعرف عنه أنه أقدم من موسوعة (مهابارتا)؛ لأنه قد ورد فيها إشارات إليه،

فهذا يدل على أنه أقدم منها، لكن لم يرد شيء عن مؤلفه، أو مؤلفيه.
كل ما يميز ذلك الكتاب أنه ذو مستوى عال من الفقه والفهم، وذو إحاطة شاملة بكثير من جوانب الفكر السياسي والنظم الدولية، والأسس الصحيحة للحكم؛ ولذلك يتناول في كلامه الحديث عن المجالس النيابية، ومجالس الشورى، وواجبات الملك تجاه شعبه، وكيفية اختيار الملك واختيار نائبه، إلى آخر ذلك كله، وهو على وجازته مليء بالدروس والعظات.

ثانيًا: الكتاب: رامايانا:

أحسن ملك الهند (سارثا) بضعف في صحته، ووهن في قوته، فعقد المجلس التشريعي في عاصمته (أيودها) وألقى فيهم الخطاب التالي:
«اخترتموني ملكًا عليكم، وقد بذلت كل جهدي للقيام بواجبي نحوكم، هأنذا قد بلغت من الكبر مبلغًا كبيرًا، ويحتم عليّ واجبي أن أصارحكم بأن أعباء الملك فوق مقدرتي الآن، وأراني أضعف من أن أتحملها، فهي تحتاج إلى رجل أقوى مني جسدًا وعقلًا، وأنتم تعرفون (راما) ابني، ولا تخفى عليكم مزاياه التي تؤهله ليكون ولي عهدي، وينوب عني في الحكم ما دمت حيًا، ويخلفني بعدي، ويخدم شعبه على قدر طاقته كأبيه، وهذا الذي أذكره لكم عن ابني إنما هو رأيي عنه، وقد أكون مخطئًا كما قد أكون مصيبًا، وهذا لا صلة له برأيكم أنتم فيه، ولكم الحرية الكاملة في قبول رأيي فيه واختياره خليفة لي، أو رد رأيي ورفض اختياره، فإن قبلتموه فذلك ما أريد، وإن رفضتموه واخترتم رجلاً غيره، فإني أنزل على إرادتكم، وأقبل الرجل الذي اخترتموه بطيب نفس، وإخلاص

كامل؛ لأن غايتي وغايتكم واحدة، تلك الغاية التي تتمثل في خدمة البلاد وخير الشعب».

وبعد أن انتهى الملك من إلقاء خطابه، ترك المجلس منعقدًا، وخرج وترك أعضاء المجلس يتشاورون، وبعد نقاش قليل اتفقت كلمة المجلس على اختيار (راما) وليًا للعهد خلفًا لأبيه، ونائبًا عن الملك في حياته على أن يكون خلفا لوالده في الملك شريطة أن يسير سيرة والده في الحكم.

ولما بُلِّغَ الملك (ساراتها) بقرار المجلس، عاد إلى المجلس وبه جميع أعضائه، ومعه ابنه (راما) وخاطب الملك ابنه راما أمام المجلس قائلاً له: «لقد وقع اختيار مجلس الشعب عليك لتكون ولي عهدي، ونائبي في الحكم، وخلفي في الملك بعد مماتي، وحيث إنك ابني الأكبر من زوجتي الأولى التي هي كفاء لي في العز والمجد، فأنت أحق أولادي بالشرف الذي رآك المجلس أهلاً له، وأخلاقك ومعارفك تجعلك أهلاً لتخدم شعبك، فعليك أن تخفض جناحك للصغير من رعيتك، وأن تكون متواضعاً مع الجميع، ويجب عليك أن تكون عادلاً مع شعبك، وأن تسهر على راحة الجميع، وأن ترعى الصغير والكبير، وأن يكون الصغير والكبير عندك سواء، واحذر أن تخلد إلى الراحة وتهمل مصالح الشعب، وليكن همك الوحيد، وهدفك الأسمى هو راحة الشعب حتى تفوز برضاه واعلم أن الملك لا بد أن يكون محبوباً لدى شعبه، وإنما يكون ذلك حين يسعى في إسعاد شعبه وتوفير العيش الرغيد، واعلم - كذلك - أن أشقى الناس وأنحسهم هو الملك الذي تمقته رعيته؛ لأن من يمقته

خلق الله؛ يمقته الله».

وبعد أن انتهى الملك (ساراتها) من خطابه الذي وجهه إلى ابنه أمام أعضاء المجلس، ترك المنبر لابنه وجلس في مكانه، وجاء ابنه واعتلى منصة الخطابة في المجلس وخاطب أعضاء المجلس قائلاً:

«قبل أن أبدأ مسئولياتي الثقيلة أحب أن أتوجه إليكم بهذه الكلمات: لا يوجد العدل إلا بالصدق، ولا يكون الصدق إلا أن يكون صريحاً وواضحاً وصافياً، لا تداخله شوائب النفاق، أو الكذب، وهذا ما أدعو إليه أعضاء المجلس المحترم، ولأن أعضاء المجلس الذين يعرفون الحق ثم يظلون صامتين بينما الباطل ينتشر ويسود، هؤلاء هم أكثر الناس شراً وكذباً، والذين يسكتون عن الحق نظراً لمصالحهم الشخصية ومنافعهم الذاتية، أو خوفاً من الأقوياء هم المجرمون الذين يخلدون في نار جهنم».

إلى هنا انتهى هذا الجزء من كتاب (راما يانا) الذي كان في جملته عبارة عن ثلاثة خطابات، أو ثلاث خطب، كل منها موجه إلى مخاطب بعينه، والثلاث خطب منها خطبة موجهة إلى المجلس الشعبي لمنطقة من الهند معينة، والخطبة موجهة من الملك إلى مجلس شعبه، وذلك لمناسبة معينة، ثم خطبة ثانية من الملك إلى ابنه وولي عهده، لنفس المناسبة، ثم خطبة موجهة إلى المجلس من ولي العهد بمناسبة اختيار المجلس إياه ولياً للعهد ونائباً للملك.



البَابُ الثَّالِثُ

العبادات والشرائع في الديانة الهندوسية

تمهيد.

الفصل الأول: عبادة الصيام في الديانة الهندوسية.

الفصل الثاني: متفرقات من عبادات الديانة الهندوسية وشرائعها.

تمهيد

في الديانة الهندوسية - مثل أي دين - أحكام تشريعية تتناول جميع مناحي الحياة الدينية والدنيوية التي تخص الهندوسي رجلاً أو امرأة، فهناك الأحكام الشرعية الخاصة بالعبادات، وأهمها عندهم الصيام، ثم الصلوات والدعاء، كذلك عندهم أحكام الزواج وما يتصل به إلى آخر هذه التشريعات التي وردت بها كتبهم المقدسة، ونسقتها ونظمها ووضعها (مانو) في مواد قانونية جعلت من اليسير معرفتها ودراستها وتطبيقها.

وفيما يلي نتناول - بحوله تعالى - أهم الأحكام التشريعية التي وردت بها الهندوسية، مع ملاحظة أمرين هامين يجعلان تناولنا هذه الأحكام مختلفاً عن مثيله في ديننا الحنيف، بل وفي اليهودية والنصرانية - كذلك - هذان الأمران هما: الأمر الأول: أن الكثير من الأحكام الشرعية في الهندوسية يحيط بها الغموض والإبهام من جانب، ومن جانب آخر نجد كثيراً من جوانب الحياة خارج نطاق تلك الأحكام إضافة إلى جانب ثالث له أهميته وأثره ذلكم أن أحكام الشريعة الهندوسية ليست حاسمة، ولا محددة تحديداً دقيقاً في قضايا كثيرة، ويترك توصيف القضية، ثم معالجتها طقسياً، أو دينياً لاختيار الشخص، أو - في الغالب - لاختيار الـ (براهمن) رجل الدين.

الأمر الثاني: أن ترتيب القضايا الشرعية من حيث الأهمية يختلف في

الهندوسية عنه في الإسلام، بل في الأديان الكتابية جملةً، فالصلاة عندنا تحتل
المنزلة الأولى، ثم الزكاة، ثم الصيام، بينما في الهندوسية يحتل الصيام المرتبة
الأولى، وهكذا، وقد نبَّهنا إلى ذلك حتى لا يقول قائل: كيف ترك الكلام عن
الصلاة وتكلم عن الصيام، وسوف نبين - بحوله تعالى - السبب الذي جعل
الهندوسية تهتم بالصيام فوق اهتمامها بالصلاة وغيرها.



الفصل الأول

عبادة الصيام في الديانة الهندوسية

تمهيد

المبحث الأول: صيام رجال الدين الهندوس، وأنواعه

المبحث الثاني: صيام عوام الهندوس، وأنواعه

تَهْنِئَةٌ

الصيام في الهندوسية هو الفريضة الأعم والأهم، وهو أنواع كثيرة، منها ما هو خاص برجال الدين (البراهمن)، ومنها ما هو عام لجميع الهندوس، كذلك من الصيام ما هو فرض، ومنه ما هو نفل.

ولعل الظروف الاجتماعية والاقتصادية في المجتمع الهندي هي التي فرضت على المشرعين الهندوس الاهتمام الكبير بشعيرة الصيام، وتقديمها على الصلاة، بل وجعلهم الصيام هو عماد الهندوسية، وهو أهم شرائعها وعباداتها.

يوضح ذلك: أن المجتمعات الهندية التي تدين بالهندوسية هي مجتمعات فقيرة، يضرب الفقر بجذوره فيها، والنسبة الأكبر من هذه المجتمعات لا تكاد تجد ما يسد رمقها، ويشبع جوعها؛ لذلك كان الطعام له المنزلة الأكبر، والتأثير الأعظم عند الشعوب الهندية، وكان الحرمان منه لعدم وجوده أمرًا معتادًا عند الهنود، وكان الحصول عليه مطلبًا عزيزًا، وهدفًا غاليًا، وكان الجميع يسعون في جهد للحصول على الطعام، والذي يجده ينكبُّ عليه معتبراً نفسه ذا حظ عظيم، من هنا كان الحرمان منه مع وجوده، والتعفف عنه مع توفره عقوبة شديدة، ومطلبًا صعبًا قاسيًا، من هنا تقدم الصيام، جميع العبادات، وتسَنَّم أحكام الدين وقرباته، وكان هدف المشرع الهندوسي حين أراد أن يختبر ولاء أتباعه

بحرمانهم من عزيز، أو أعز ما لديهم، لم يجد أعز من الطعام يختبر ولاء أتباعه بالحرمان منه.

والصيام كما ذكرنا آنفاً أنواعٌ نشير إلى أهمها فيما يلي - بحوله تعالى.



المبحث الأول

صيام رجال الدين الهندوس، وأنواعه

طبعي أن يكون الصيام لدى رجال الدين البراهمن هو الصورة المثلى لذلك النوع من العبادة، والمراد بكونها (مثلى) أن تكون في أشد صورها وأقساها، كذلك أن تكون فريضة لازمة وليست نفلاً، أو اختياراً، ولذلك كان صيام رجال الدين أنواعاً، وكله فريضة عليهم إلا ما ينص عليه فيما يأتي.. وأنواعه:

١- صوم أيام الاعتدالين والانقلابين، والمراد بذلك أوائل الفصول الأربعة: الشتاء، والصيف، والخريف، والربيع، فالיום الأول من كل فصل من هذه الفصول واجب صومه على رجال الدين.

٢- كذلك يجب صوم اليوم الأول واليوم الرابع عشر من كل شهر قمري، ويراد بذلك اليوم الذي يظهر فيه الهلال، ثم اليوم الرابع عشر حين يصير الهلال بدرًا، وهذا من الصّوم الواجب.

٣- أثناء الكسوف يجب على رجال الدين أن يصوموا ذلك الوقت، ومحرم عليهم أن يمسوا شيئاً من الأطعمة والأشربة التي في بيوتهم وقت الكسوف، ويجب عليهم أن يتصدقوا بما كان في بيوتهم من أطعمة وأشربة وقت الكسوف على غير أفراد طبقتهم وطبقة الكاشترية، كما يجب عليهم أن يحطموا الأواني التي كان فيها الطعام والشراب، حتى لا يتفعوا بها هم أو غيرهم.

٤- وهناك صوم من نوع خاص يشمل الطعام والشراب والجنس والنوم والسفر، وذلك كل يوم من غروب الشمس حتى غروب الشفق الأحمر، وذلك الصوم هو خاص بكبار رجال الدين من البراهمن، ويطلق على هذه الطبقة من كبار رجال الدين اسم (سيناتا Sinata)، وهذا النظام يدل على أن هذه الطبقة كانت تتعبد للشمس، وكما ذكرنا قبلاً أن اسمها الذي يدل على جماع وظائفها عند قدماء الهنود: (براجباتي)، أو (براياباتي)، وتعبدتها للشمس كما ذكرنا يتطلب منها مراقبة الشمس منذ غروبها، حتى غروب آخر آثارها وهو الشفق الأحمر^(١).

٥- وهذا النوع الذي ذكرناه عن صيام رجال الدين الهندوس، إنما هو الواجب، أو المفروض عليهم فرضاً لازماً.

أما عن الصيام الذي هو تطوع، أو نفل، ولا يدخل في باب الفرائض، فذلك النوع من الصيام مفتوح لا حدود له، فرجال الدين في الهندوسية لا يكادون يأكلون شيئاً إلا ما يمسك أودهم، أو المفروض كذلك، سواء نفذوه فعلاً، أو تظاهروا بتنفيذه أمام الناس، لكن رجال الدين الهندوسي يحرصون على

(١) انظر: «تحقيق ما للهند من مقولة»، للبيروني (ص ١٢٨ - ١٣٢)، وانظر كذلك: الصوم والأضحية، د علي عبد الواحد وافي (ص ٢٠ - ٢١)، وانظر: الأسفار المقدسة قبل الإسلام (ص ١٨٨ - ١٩٣).

إضعاف شهواتهم بإضعاف الجسد الذي هو مطية الشهوات، وبضعف الجسد تضعف الشهوة وتقوى النفس، وهذا هو ما يسعى إليه رجال الدين الهندوس، والصيام عن الطعام والشراب والجنس هو أنجع الوسائل في تحقيق ذلك. لا جرم التزمه رجال الدين الهندوس المعروفون بالبراهمن، وكبارهم (السيناتا - Sinata).



المبحث الثاني

صيام عوام الهندوس، وأنواعه

الهندوسي العادي الذي ليس من رجال الدين له قسمان من الصيام: القسم الأول: صيام هو فرض لازم، والقسم الثاني: تطوع، أو نفل، وفيما يلي نبين القسمين - بحوله تعالى:

القسم الأول: صيام الفرض، أو الصيام الواجب:

وهذا النوع سبق وتكلمنا عنه عند حديثنا عن صيام رجال الدين، ونعني به: الصيام وقت كسوف الشمس، فهذا النوع فرض على عامة الهندوس، فإذا كسفت الشمس حرم على الهندوسي الطعام والشراب والاتصال الجنسي طوال وقت الكسوف.

القسم الثاني: الصيام التطوعي:

وهذا الصيام هو كل ما عدا الحالة التي ذكرناها آنفا أعني: صوم الكسوف - فكل أنواع الصوم عند عامة الهندوس هو صوم تطوعي ليس منه نوع هو فرض، أو واجب، فهو يرجع إلى رغبة الهندوسي الشخصية ومدى ما يتصف به من صلاح وتقوى تدفعه للتقرب إلى الآلهة بالصيام تطوعاً، وإذا لم يصم فلا شيء عليه، وقد قال البيروني - عن صوم العوام في الهندوسية: «إن الصوم عندهم

تطوع ونوافل، وليس شيء منه مفروضاً»^(١).

صور الصيام عند الهندوس، وأنواعه:

وللصوم عند الهندوس صور كثيرة وأنواع عديدة، وطبعي أن تختلف جميع تلك الأنواع مع صيامنا نحن المسلمين، كما يختلف عنا صيام النصارى وغيرهم، ومن المقرر: أن لكل دين عباداته التي لا تتفق مع عبادات الأديان الأخرى، وذلك الاختلاف في العبادات فرع عن الاختلاف في العقيدة، فإذا كانت العقيدة مختلفةً، فالشريعة مختلفة حتمًا، بل إذا كان الاختلاف قائمًا بين أهل الكتاب والمسلمين عقيدة وشريعة؛ فأن يكون ذلك الاختلاف واقعًا بين الإسلام وأصحاب الأديان الوضعية من باب أولى؛ لذلك كله كان الصيام بأنواعه عند الهندوس مختلفًا عن الصيام عندنا شكلاً وموضوعاً، أو أصلاً وفروعاً، وقد يتضح ذلك الاختلاف من ذكر أهم أنواعه عندهم، والتي نبينها - بحوله تعالى - فيما يلي:

النوع الأول: الصوم العادي:

ونعني بالعادي: الذي يقوم به الهندوس جميعاً دون طقوس، أو شروط معينة، ولا يستثنى من ذلك سوى الأثرياء المرفهين، بل إن كثيرين منهم يتعاطون هذا

(١) «تحقيق ما للهند من مقولة» (ص ٩٧ - ٩٩)، وانظر كذلك: «قصة الزواج والعزوبة في العالم»

(ص ٩ - ١٠)، د. علي عبد الواحد وافي.

النوع من الصيام وربما كانوا أكثر وأولى بإطلاق اسم (الصائمين) عليهم، من أولئك الفقراء الذين يزاولون هذه العبادة لفقرهم؛ ولأنهم لا يجدون ما يطعمون.

وهذا النوع من الصيام ليس له وقت ابتداء أو وقت انتهاء، بل ينحصر في الامتناع عن الأكل والشرب والجنس، بل والسكون التام دون حركة إلا لضرورة ماسة، بل إن الصيام عن الحركات، حتى عن (الهرش)، أو حك جلده حين يؤلمه، وقد تكون ثيابه مليئة بالحشرات التي تستمر في إيذائه وقرصه وإيلامه، لكنه يتحمل كل ذلك ويعاني، بل ومنهم من يتلذذ بهذه المعاناة ويراهها من القربات؛ لأنه لا يؤذي الحشرات التي بثيابه، ولا يمنعها من قرصه ومص دمه، ولا يحجر عليها، وهذا من أفضل أنواع الصيام عندهم، والذي هو متاح للجميع، ولا يخصصونه باسم معين.

النوع الثاني: (أوب باس):

وهذا النوع من الصيام يبدأ بالنية التي تكون في اليوم السابق على يوم الصيام، والنية هنا تعني: تحديد الجهة، أو الإله، أو الشخص الذي يصوم له، ومن ديانتهم: أن الهندوسي يمكن أن يصوم تقرباً إلى أي كائن يريد، فيمكن أن يصوم لبراهما، أو سيفا، أو فشنو، أو للبقرة، أو لنهر الجانج، أو لحقله الذي يزرعه أرزاً، أو قمحاً كي ينتج كثيراً، ويمكن أن يصوم لأبيه، أو جده الميت، فهذه كلها جهات يجوز أن ينوي الصيام لها، ثم هي في النهاية ترضي الآلهة، وتجعل صاحبها من الصالحين.

أما كيفية الصيام: فتبدأ بتعيين اليوم الذي سوف يصومه غداً، أو بعد غد، أو أي يوم قادم، والصوم عندهم يبدأ من وقت الظهر، ثم ينظف جسمه، ويستاك، ثم يأكل عند الظهر ويبدأ منذ ذلك صومه، فإذا أصبح اغتسل واستاك وامتنع عن الطعام والشراب والجنس، وظل كذلك حتى صباح الغد، وبذلك يكون صومه استمر يوماً ونصف اليوم، فإذا طلعت الشمس كان بالخيار: إما أن يفطر، وإما أن يؤخر الإفطار إلى وقت الظهيرة، وبذلك يكون قد أكمل صوم يومين كاملين. ومن شروط ذلك النوع من الصيام: أن الصائم في يوم صومه يمتنع عن الكلام إلا لضرورة، وأن يأخذ بيده ماء ويرمي به في الجهات الأربع، وأن يكرر النية لمن يصوم له.

النوع الثالث: (كُزَجَر):

وهذا النوع من الصيام يستمر أربعة أيام متوالية، ويكون الطعام فيها على نظام معين، أما كيفية ذلك النوع، فيبدأ بالنية لتحديد من يصوم له، أو من أجل ماذا يصوم، ثم يأكل طعامه وقت الظهيرة، ثم يظل بلا طعام حتى وقت العتمة من اليوم الثاني فيأكل في ذلك الوقت، ثم يظل صائماً فلا يأكل في اليوم الثالث إلا ما يأتي من الصدقات دون أن يطلبه، ثم يصوم اليوم الرابع كاملاً.

النوع الرابع: (براك):

وهذا النوع يستغرق تسعة أيام كاملة، كل ثلاثة أيام منها ذات نظام في الطعام

خاص.

ففي الثلاثة الأيام الأولى يبدأها فيستاك وينظف نفسه، ثم يأكل طعامه عند الظهر، ثم يجعل طعامه في الثلاثة أيام التالية عند العتمة بعد أن تغيب الشمس، ثم يصوم الثلاثة أيام التالية صومًا لا يأكل البتة حتى تنتهي بالعتمة من اليوم الثالث، ولا ينبغي أن نعجب من صيام أحدهم ثلاثة أيام متتالية دون طعام قط، فذلك أمر عادي بالنسبة إلى الهنود، وبخاصة الفقراء منهم، فهم دون صيام يجلس الواحد منهم لا يأكل ولا يشرب يومًا، أو يومين ولا يشعر بتعب، ويعينهم على فعل ذلك - إضافة إلى أن ذلك عادة لهم - أنهم يجلسون دون أن يبذلوا جهدًا ولا حركة وربما أمسكوا عن الكلام.

النوع الخامس: (جند راين):

وهذا النوع من الصوم خاص بأوقات فلكية تتصل ببداية ظهور الهلال، حتى يصير بدرًا، ثم يعود إلى المحاق آخر الشهر ليبدأ استقباله من جديد. وكيفية ذلك الصيام: أن يبدأ عند الظهر من (يوم الاستقبال)، فيتناول من الطعام قدر مضغة؛ أي: قدر ما يملأ الفم مرة واحدة، فيأكلها، ثم يمسك حتى وقت الظهر من اليوم التالي فيضاعف ذلك القدر؛ أي: يأكل قدر مضغتين، بقدر ما يملأ الفم مرتين، أو لقمتين، ثم في اليوم الثالث يأكل ثلاث لقعات، أو مضغات، وهكذا يضاعف في كل يوم حتى يصل إلى (يوم الاجتماع)، ولعل المراد به: يوم يصير القمر بدرًا، وعند ذلك يبدأ الهندوسي الصائم بالتراجع عكس ما كان أولًا، فينقص كل يوم مضغة، أو لقمة حتى يصل إلى يوم

الاستقبال مرة ثانية، فيكون قد رجع إلى أكل لقمة، أو مضغعة واحدة، وبهذا ينتهي صومه.

النوع السادس: (ماسواس):

وهذا النوع هو أصعب الصيام كله، وقد لا يتصور حدوثه، لكنه عند هؤلاء القوم أمر عادي، أو شبه عادي، وقد يستعينون على أدائه بنوع من الحيلة كأن يأتيهم طعام من مقدمة، أو قربان أحد الآلهة عندهم فلا يرفضون، وهو في نفس الوقت لا يفسد صومهم المتواصل.

وكيفية صيام هذا النوع - ماسواس - بسيطة وليس فيها تفاصيل مشكلة، فصيام ذلك النوع يتمثل في صوم (أيام شهر كامل) صيامًا متواليًا متصلًا لا يفطر فيها على شيء البتة، وهو ما يسمى: (صوم الوصال).

وقد ذكرت آنفًا أنه قد لا يتصور وقوع صيام كهذا يظل فيه الإنسان صائمًا لمدة شهر كامل دون طعام البتة، ونذكر هنا بما قلناه آنفًا بأن هذا ليس غريبًا عند قوم يزعم الواحد منهم أنه يعيش على حبة أرز واحدة ليوم كامل، ثم إن لديهم من الحيل والوسائل المصطنعة ما يعينهم على أداء هذا النوع من الصيام.

النوع السابع: طقوس غريبة:

من الأمور التي ينبغي التنبيه إليها حتى لا يختل الميزان عند القارئ أن العبادات عند أهل الأديان هي صورة من عقيدتهم، فكل ذي دين تتأثر أحكام شريعته بعقيدته، وعقيدة الهندوس ليست بدعًا من هذه القاعدة، فأحكام

الشرعة عند الهندوس متأثرة بالعقائد الوثنية التي يدين بها هؤلاء، وأهم هذه العقائد تقديسهم البقرة، والتبرك بها، وبكل ما يخرج منها من أرواث وأبوال، ومن أوضح الأمثلة على ذلك بعض صور الصيام عند الهندوس.

وقد ذكر أبو الريحان البيروني رَحِمَهُ اللهُ بعض طقوس غريبة يقوم بها الصائمون من الهندوس، منها:

- ١ - أن الصائم يلوث نفسه بأخثاء البقر وأبوالها.
- ٢ - أنه يفطر كل يوم مرة واحدة، ويفطر على أبوال البقرة وأخثائها ولبنها.
- ٣ - أنه ينام على الأرض دون فراش ودون سرير ودون غطاء مهما كان البرد شديداً.
- ٤ - أنه مع حرصه على أن يأكل أرواث البقر ويشرب أبوالها يتجنب اللحم والسّمك والحلوى^(١).



(١) انظر في ذلك: «تحقيق ما للهند من مقولة» (ص ١٢٨ - ١٣٥)، وانظر: «الأسفار المقدسة قبل الإسلام» (ص ٨٨ - ١٩١)، وانظر: «غرائب النظم والتقاليد والعادات» (١/ ٦٧) د. علي عبد الواحد وافي.

الفصل الثاني

متفرقات من عبادات

الديانة الهندوسية وشرائعها

تمهيد

المبحث الأول: الصلوات والقرايين في الديانة الهندوسية

المبحث الثاني: مكانة المرأة في الديانة الهندوسية

المبحث الثالث: شرائع الزواج في الديانة الهندوسية

○ المطلب الأول: مكانة الزواج في الديانة الهندوسية

○ المطلب الثاني: الخطبة ومقدمات الزواج

في الديانة الهندوسية

○ المطلب الثالث: المرأة هي التي تدفع المهر

في الديانة الهندوسية

○ المطلب الرابع: غرائب الزواج في الديانة الهندوسية

المبحث الأول

الصلوات والقرايين في الديانة الهندوسية

من أهم العبادات عند الهندوس الصلاة، والصلاة عندهم شعيرة عامة تشمل تحتها شرائع كثيرة، وعبادات متنوعة، والصلاة عند الهندوس أقرب إلى معناها في لغتنا العربية، أي: هي (الدعاء)، وتشتمل على أذكار وتسابيح وابتهالات ودعوات، يغلف كل هذا وضع الجسم على هيئة التذلل والمسكنة والخضوع والانكسار، مع مسح الوجه واليدين في الأرض... إلى آخر ما يمكن للعابد الهندوسي أن يصنعه مدللًا على مهانته وهوانه وانكساره وتذللِهِ. والصلوات عندهم تتناول أذكارًا كثيرة، وتصحب جميع أنواع العبادات الأخرى، وتحديدًا تقديم القرايين للآلهة، وتقديم القرايين للآلهة يتطلب بالضرورة - أعمالًا قلبية وجسمية تسبق الدخول على الآلهة معابدها والوقوف في حضرتها، وأهم هذه الأعمال: «تقويم النية، وترك التعاضم، والتواضع، والتزام الهدوء والتأني، وجمع الحواس - بمعنى تركيزها - مع انشراح الصدر»^(١).

والهندوسي يدخل إلى المعبد وقد أعد نفسه بالنية الصادقة، والتواضع والتذلل، وقد أعد جسمه بتنظيف بدنه، وتنظيف فمه وأسنانه، ولبس أفضل ما عنده، وقد نوى التقرب للآلهة، ثم خدمة الملائكة، وتعظيم رجال الدين، ثم يبدأ بتلاوة الأوراد والأذكار، وعند تقديم القرايين يرفع رجال الدين أصواتهم

(١) تحقيق ما للهند من مقولة (ص ٧٤).

بالترتيل مع جموع الموجودين من المصلين، والقرايين تشتمل على كل خيرات الأرض التي منحها الآلهة للهندوسي.

يقول البيروني: «وتشمل القرايين التي تحت الفيدا على تقديمها للآلهة أنواعًا كثيرة، منها: اللبن والحبوب، والسمن واللحوم والفواكه، وعصيرها، والنباتات، وفي أثناء تقديم القرايين يرتل الهنود الأناشيد الدينية والأدعية المأثورة في الفيدا، ويؤدون رقصات وحركات تعبيرية تعبّدية مصحوبة - أحيانًا - بالموسيقى، والرقصُ عندهم عنصر أساسي من الشعائر الدينية، وكان يتمثل في حركات تعبيرية، ثم تتدرّج إلى الأسلوب القصصي الرمزي، يقص الحقائق والوقائع، ويرمز إلى مظاهر الحياة، والموسيقى الدينية كانت تؤدّي كذلك مصحوبة بحركات تعبيرية، ثم تطورت هي وحركاتها إلى الأسلوب القصصي الرمزي كما تطور الرقص الديني»^(١).

فالصلاة عندهم تعني: الدعاء، والتراتيل الدينية المصاحبة لزيارة المعبد، وتعني التنظيف البدني والتطهر لزيارة الآلهة، وتعني تقديم القرايين من الحبوب واللحوم والنباتات وغيرها، وهم في مصطلحاتهم الدينية لا يفضلون الصلاة عن كل هذا الذي ذكرناه، حيث الصلاة عندهم تشتمل كل هذا، وقد تزيد على ذلك فيطلقونها على أنواع من العبادات ليس هنا محل ذكرها، وإن كانت ترجع إلى بعض ما ذكرنا، ومن ذلك الذي لم نُعَنَ بذكره أذكار الحصاد فعندما يحصد الهندوسي زَرْعَهُ فإنه يتلو أورادًا وأذكارًا يسمونها - أيضًا - صلاة الحقل، أو

(١) «تحقيق ماللهند من مقولة» (ص ٧٥)، وانظر: «الأسفار المقدسة» (ص ١٩٢).

صلاة الزرع.

وهناك - كذلك - صلاة، أو أورداد وأذكار الاحتفال بالمواليد، والاحتفال - قبل ذلك - بالزواج، إلى غير ذلك، وكلها تسمى صلاة، فالصلاة عندهم تطلق على جميع القربات والعبادات التي يتقربون بها إلى الآلهة، يستوي في ذلك أن تكون عبادات منظمة ومحددة، أو عبادات عامة متروكة لكل هندوسي أن يزاولها حسبما يشعر، أو يحس في مناسباته الخاصة.

ولقد رأينا كثيرًا من عباداتهم وصلواتهم داخل معابدهم بالهند، وقد يقدم الهندوسي الطعام والشراب من أفضل ما يجد، ورجال الدين يأخذون ذلك ويضعونه في خِزَانَات ذات أبواب زجاجية، فيرى الزائرون هذه الأطعمة والأشربة داخل هذه الخزانات على الأرفف، وقد دخلت إلى أحد المعابد ومعني ثلاثة من الزملاء، ثم انتهزت فرصة فراغ المكان - نسبيًا - فسألت رجل الدين - البراهمن - بكل أدب واحترام عن مصير هذه الأطعمة والعصائر، وهل توزع على الفقراء؟ نظر إليّ الرجل شذرًا، ثم أشار بيده - بكل استهانة - إلى الخارج، أي: أمرني والذين معي بالخروج من المعبد، فخرجنا؛ ونحن نعلم يقينًا أن هذا الطعام والشراب إنما هو حق خالص لرجال الدين البراهمن، وأنهم يأكلونه ويحملونه إلى أبياتهم، وبخاصة ما كان لحمًا، أو سمناً.



المبحث الثاني

مكانة المرأة في الديانة الهندوسية

تحتل المرأة في الديانة الهندوسية منزلةً متدنيةً جدًا إلى حد أنها تقترب أن تكون مجرد خادمة في البيت الذي تعيش فيه، بل إن الخادמות لهن الحرية فيما يملكون من مال، أو متاع، ولهن حق التصرف بحرية فيما يأخذن، أو يدعن، لكن المرأة الهندوسية مجردة عن القيمة الإنسانية، وعن سائر حقوق الأهلية في الديانة الهندوسية وفي المجتمع الهندي الذي يدين بها.

وقد نصّت على ذلك كُتُبُ الهندوسية المقدسة، نعى: الفيدا، والأوضح منها والأظهر: (قوانين مانو)، وقد حددت قوانين مانو (الكتاب الثالث من تلك القوانين للكلام على نظم الأسرة والزواج، ويشتمل ذلك الكتاب على ٢٨٦ ست وثمانين ومائتي مادة) كلها تتكلم عن المرأة ومكانتها في الهندوسية، فالمادتان - ١٤٧، ١٤٨ - تضع المرأة تحت سيطرة الرجل وتحت مسئوليته في مختلف مراحل حياتها.

فالمادة ١٤٧ تقرر: «لا يحق للمرأة في أية مرحلة من مراحل حياتها أن تجري أي أمر وفق مشيئتها وإرادتها، حتى ولو كان ذلك الأمر من الأمور الخاصة بشخصها، أو الخاصة ببيتها».

كما تقرر المادة: ١٤٨ من قوانين مانو: «تعيش المرأة وليس لها خيار، أو إرادة في شأن من شئونها سواء كانت بنتًا صغيرة، أو شابة، أو عجوزًا، وسواء كانت متزوجة، أو غير متزوجة، فالمرأة في مرحلة طفولتها تتبع والدها وتكون

في خياره وتحت إرادته، وفي مرحلة شبابها تابعة لزوجها، وتحت خياره، فإذا مات زوجها انتقلت الولاية عليها إلى أبنائها، فإن لم يكن لها أبناء انتقلت الولاية عليها إلى أقرب رجل إليها من رجال عشيرته الأقربين، فإن لم يكن له أقرباء انتقلت الولاية عليها إلى والدها- إن كان موجودًا- أو إلى عمومته، فإن لم يكن لها رجال عمومة انتقلت الولاية عليها إلى الحاكم، فليس للمرأة في أية مرحلة من مراحل حياتها حق الحرية، أو الاستقلال، أو التملك، أو التصرف وفق ما تشاء».

وتقرر (قوانين مانو): «أن المرأة يجب أن تكون مطيعةً لزوجها طاعة كاملة حتى لو ظلمها، أو قَصَّرَ في حقها، وإن وجدت زوجها يكرهها ولا يهتم بها، أو وجدته يحب امرأة غيرها وجب عليها أن تخلص في خدمته، ولا تقصر في رعايته، وتتفانى في حبه ولا يجوز لها أن تغضب منه لذلك، أو تحقد عليه، بل عليها أن تجتهد لنيل مرضاته، حيث إن نجاتها في الدنيا، وسعادتها بعد الموت الأخير مرهونتان برضا زوجها، فلا تفعل شيئًا لا يرضاه زوجها».

وصايا (مانو) بالنساء:

ولأن المرأة أسيرة رغبات الرجال، وليس لها إرادة مستقلة- كما ذكرنا آنفًا- فقد عُنِيَ (مانو) بأن يوصي الرجال بها، واهتم بأن يضع في قوانينه ما يرهب الرجال ويردعهم عن أن يتخذوا المرأة غرضًا لأهوائهم، وأن يسخروها لجلب المال ويتاجروا بها، أو يظلموها ويسوموها الخسف؛ لذلك كثرت تلك القوانين والنصائح التي سجلها مانو في قوانينه حماية للمرأة وحفاظًا عليها، ونشير هنا إلى أهم الوصايا التي أوردتها (قوانين مانو) خاصة بالمرأة:

- ١- يجب على الزوج أن يحب زوجته، وليعلم أن زوجته تلده في صورة ابنه منها، فهي خليفة بحب زوجها وعطفه ورعايته.
- ٢- المرأة سيدة بيتها فعلى الرجل أن يسلمها مقاليد البيت، وواجباتها أن تلد وأن تربي أولادها، وتدبر أمور منزلها.
- ٣- الأسرة التي تحترم المرأة فإن الآلهة تخصصها بعطفها، أما الأسرة التي تُحتقر فيها المرأة فإن حسنها تذهب سُدى.
- ٤- ليس لوالد المرأة أن ينال شيئاً من المال، أو المتاع عند تزويجها، فإن من يفعل ذلك فكأنه باع ابنته.
- ٥- الذي قال لرجل آخر: إني أزوجك ابنتي، فلا يحل له أن يرجع عن قوله، ويخلف وعده؛ لأنه إن فعل ذلك فإنه يبوء بإثم من قتل ألف نفس بريئة.
- ٦- لتعلم المرأة أن عظمتها منوطة بعظمة زوجها، فلتقم بحقه، وليقابل هو ذلك بالحب والتقدير حتى يكون جديراً بما تقوم به لأجله.
- ٧- يجب أن يعيش الزوجان بالحب والوفاء؛ لأنهما لم يقرنا على اسم الآلهة ليفترقا، أو يتباغضا، وحتى تكون الآلهة بجانبهما وراضية عنهما.



المبحث الثالث

شرائع الزواج في الديانة الهندوسية

من الأمور ذات الأهمية في شريعة الهندوسية: النظم المتعلقة بالزواج، وذلك أمر طبيعي، فلا يوجد مجتمع بشري إلا والزواج أساس فيه لعمارته واستمراره واستقراره وتماثله وتعاضده وتآلفه وتماسكه، وهذه أمورٌ معلومةٌ من الاجتماع البشري بالضرورة، ومن المعلوم ضرورة- أيضًا- أن نظم الزواج لا تتماثل ولا تتطابق في المجتمعات البشرية، نتيجة اختلاف هذه المجتمعات في العادات والأعراف والتقاليد، ومن قبل ذلك ومن بعده في الأديان التي تدين بها.

لذلك كانت نُظم الزواج وإقامة الأسر في الهندوسية قضيةً أصيلةً من هذه الديانة، وإن نحن وجدنا في هذه النظم ما هو غريب وعجيب، فيجب علينا أن نتذكر أن نظمنا في الزواج لو عرضت على الهندوس لوجدوا فيها ما هو أعجب وأغرب- من وجهة أنظارهم- وفيما يلي نستعرض- بحوله تعالى- موضوعات نراها هامة من نظم الزواج في الهندوسية، من خلال المطالب التالية:

المطلب الأول

مكانة الزواج في الديانة الهندوسية

تعتبر الهندوسية الزواج من الأمور ذات الأهمية القصوى في بناء المجتمع وقوامه واستقراره والقضاء على أسباب القلق والاضطراب بين أفرادهِ؛ لذلك كان الزواج في الهندوسية من الأمور الواجبة على كل قادر عليه متى بلغ السن المؤهلة له، والذي يقوم بذلك الواجب محترم مقدر في المجتمع، أما الذي يعيش أعزب، ويرفض الزواج وهو في سنه وقادر عليه فإن البراهمة رجال الدين، بل والمجتمع كله ينظر إليه باعتباره عضوًا شاذًا، وعنصرًا فاسدًا مضرًا في المجتمع الهندوسي، لذلك كان الذي يسعى إلى الزواج وتكوين أسرة هو مُعَانٌ من المجتمع، يساعده أهله وأقاربه وأصدقاؤه، أما الراض للزواج فهو ممقوت من المجتمع، مرفوض من المقربين منه، يتجنبونه ويخشونه على أَسْرِهِم وبناتهم وأزواجهم.

ولقد اهتم رجال الدين الهندوسي بوضع تشريعات وأحكام لهؤلاء الذين يرفضون الزواج وهم مُؤَهَّلُونَ له، فالهندوسية ورجالها يرون أن راض الزواج:

١- عنصر فاسد ضار، يضر بنفسه وبالمجتمع، وهو مظنة الاعتداء على حرّامات وأعراض الآخرين.

٢- هو مسخ مشوه، ومخلوق غير طَبْعِيٍّ، وكائن عجيب، خرج على مقتضى

الطبيعة التي استجاب لها ولمقتضياتها جميعُ الخلق، حتى الحيوانات والطيور.

٣- الذي لم يتزوج، أو تزوج ولم يعقب حين يموت تتخبَّط نفسه بعد أن تخرج من جسده كمن مسه جن، أو تقمَّصه شيطان، أو كمن لزمه دين ثقيل عجز عن الوفاء به^(١).

لذلك كان الهندوسي إذا ما أضحي مؤهلاً للزواج يسعى إلى الوفاء بذلك المطلب الضروري دينياً واجتماعياً، وكان محل المساعدة من الأهل والأصدقاء، وسوف نرى من آثار الحرص على الوفاء بهذا المطلب الهام الكثير من الأمور العجيبة والغريبة - بحوله تعالى.



(١) «تحقيق ما للهند من مقولة» (ص ٩٥-٩٦)، وانظر: «قصة الزواج والعزوبة في العالم» (ص ٩-١٠).

المطلب الثاني

الخطبة ومقدمات الزواج في الديانة الهندوسية

قلنا: إن الزواج في الشريعة الهندوسية أمر واجب على كل من تأهل له، ولم تكن هنالك عوائق تمنعه؛ لذلك كان الزواج أمرًا مقدرًا، وقدرًا حتميًا عند الهندوسي لا مفر منه، ولما كان الأمر كذلك كان من عادة الأسر الهندوسية أن تسعى في تزويج أبنائها وبناتها، وتعينهم على ذلك، وكان من الأمور المقررة والعادات الثابتة أن الأولاد لا يخرجون على رغبات الآباء، أو الأمهات في اختيار الزوجة للرجل، أو الزوج للمرأة، فهما - إذن - أمران ساعدا على قيام الأسرة الهندوسية باختيار شريك الحياة للشاب، أو الشابة دونما أدنى مشكلة:

الأمر الأول: أن الزواج أمر مقرر وواجب لا مفر منه، ولا خروج عليه، بل ولا سبيل إلى تأخيره.

الأمر الثاني: أن عمل الأسرة - الآباء والأمهات والأخ الأكبر - في ذلك واجب القبول والتنفيذ من الشاب، أو الشابة دون أي اعتراض، فالابن، أو الابنة يجب عليهما قبول اختيار الوالد، أو الوالدة، ولا يحق لهما الاعتراض فضلًا عن الرفض.

لذلك؛ كان من العادات الغريبة والعجيبة في الهند أن تخطب الأسرة لابنها، أو ابنتها طفلًا، أو طفلة في سن الرابعة، أو أقل من ذلك، وتقام الاحتفالات بهذه

الخطبة، ثم يعقب ذلك حفل الزواج الذي يُدعى إليه العشرات، أو المئات، حسب مكانة الأسرة وإمكاناتها المادية.

ولقد درَجَ على ذلك المجتمع الهندي، بل إن مثل هذا التصرف يعتبر في الهند نوعاً من الالتزام بعبادات الآباء والأجداد يثير الاحترام ويبعث على التقدير والتعظيم بالنسبة لمن يقومون بهذا.

لكن من الحق أن ننبه إلى أن هذه العادة، أو هذا التقليد لا ينبع من الهندوسية كدين، ولكنه ينبع من المجتمع الهندي باعتباره تقليدًا ينظر إليه باحترام وتقدير، والفرق بين الأمرين يتضح في أن هذا التقليد تزاوله الأسر الهندية حتى ولو لم تكن تدين بالهندوسية، فهم يزاولون هذا التقليد باعتبارهم هنودًا وليس باعتبارهم هندوسيين.



المطلب الثالث

المرأة هي التي تدفع المهر في الديانة الهندوسية

ومن الأمور الغريبة لدى الهنود: أن المرأة هي التي تدفع للرجل كي يتزوجها وليس العكس، كما هو متبع عندنا.

فالمرأة، أو وليّ أمرها، أو كبير الأسرة هو الذي يتفق مع الرجل، أو كبير أسرته على المبلغ النقدي الذي سوف تدفعه للرجل في مقابل أن يتزوجها، وهذه المبالغ المدفوعة تتفاوت تبعاً للمقدرة المالية للمرأة، أو وليّ أمرها الذي سيتولى دفع المال؛ لذلك جرت عادة الأسر أن البنت منذ تولد يبدأ ذووها بتوفير المال الذي سيدفع لها عند زواجها.

ومن عجيب الأمور أن هذه العادة قد ترسخت في عادات وتقاليد المسلمين في باكستان وبنجلاديش، وأصبحت المرأة المسلمة هي التي تدفع للرجل، وذلك أشبه بما يسمى (الدوطة) التي تدفعها المرأة في الأديان الأخرى للرجل، ولقد رأيت بنفسني أحد الشبان يرفض إتمام الزواج من امرأة لأن أباه لم يدفع لوالد الشاب كامل المبلغ المتفق عليه وخصم منه قليلاً، وكان الشاب والشابة مسلمين ومن أسرتين مسلمتين بباكستان، وكان ذلك سنة إحدى وثمانين وتسعمائة وألف.

لكن من فضل الله سبحانه أن هذه العادة التي تقوم على أن المرأة وذويها

هي التي تدفع للرجل قد بدأت تتلاشى من المجتمع الهندي، سواء لدى المسلمين بالهند وباكستان وبنجلاديش، أو بالهند غير المسلمة، وذلك لبعض العوامل التي من أهمها:

١- النهضة الإسلامية، والعودة إلى شريعة الإسلام الحقة بعد أن تخلص المسلمون في الهند وباكستان وبنجلاديش وكشمير من الآثار الضالة التي تركها الاستعمار الإنجليزي، والتي حرص أذناؤه على رعايتها ونشرها والإبقاء عليها في ديار المسلمين، لكن المسلمين استطاعوا التخلص من تلك الآثار، والعودة إلى شريعة الله الحقة -على قدر الإمكان.

٢- النهضة الاجتماعية التي أخذت بها المجتمعات الهندية في العصر الحديث، والتي كان من أثارها: المساواة بين الرجال والنساء، وبخاصة في الحقوق المادية، هذه النهضة قد كان لها أثارها في تخفيف الأعباء المالية عن المرأة، وإحساس الشباب من الرجال بوجوب المساهمة في المسؤوليات المالية للزواج.

وهذه كان لها الأثر الواضح في المجتمعات الهندية غير المسلمة أكثر مما كان لها في المجتمعات المسلمة.

ولقد لمست هذا الجانب بنفسى، حيث ذهبت سنة إحدى وثمانين وتسعمائة وألف (١٩٨١م) للعمل أستاذًا بالجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد، وكنا بضعة أساتذة أقل من أصابع اليد الواحدة، وعشنا فترة من الزمن متزاملين في بيت الضيافة (Guest House) بإسلام آباد، وعرض أحد الأساتذة

الباكستان على أحدنا أن يتزوج إحدى قريباته، وكنا جميعًا تركنا أزواجنا بمصر، ولما تردد أخونا الذي عرض عليه الزواج قيل له بالنص: لماذا تتردد وأنت لن تتكلف شيئًا ولن تدفع شيئًا، أنت تدفع نفسك فقط، والمرأة ستتكلف بكل شيء حتى (بيجامتك) - منامتك - سوف تأتي لك بها. هذا على الرغم من أنهم مسلمون ملتزمون.

لكن هذه العادة قد تغيرت قليلًا، وإن لم تكن قد ذهبت تمامًا - كما ذكرنا.



المطلب الرابع

غرائب الزواج في الديانة الهندوسية

تشتمل نظم الزواج في الهندوسية على الكثير من الصور التي نعتبرها غريبة وعجيبة والتي يرجع بعضها إلى النظم البدائية الأولى لدى القبائل التي تعيش على الهمجية والتوحش، ومن هذه الصور نذكر أدخلها في الغرابة:

الصورة الأولى: أسرُ الزوجة واختطافها والاستيلاء عليها بالقوة:

تعتبر الهندوسية أن اختطاف المرأة بالقوة، وأسرها، هو من الوسائل المشروعة للزواج، فإذا رأى رجل امرأة وأعجبته، وخطبها من أهلها فرفضوا ولم تقبل المرأة، فإذا ما أعد الرجل قوة معه من أقربائه، وقاموا باختطاف المرأة، وقتلوا أهلها وتغلبوا عليهم، ثم أخذوا المرأة إلى ديار خاطفها، كان ذلك عملاً مشروعاً للزواج من تلك المرأة، وكان عملاً نبيلًا، وباركه رجال الدين (البراهمن).

وهذه الطريقة مشهورة عندهم تحت اسم: (طريق الجبابة) في اختيار الزوجة، لكن هذه الطريقة عندهم لا تباح لجميع الطبقات، بل هي خاصة بطبقة (الكاشتريا) وهي طبقة رجال الحرب والحكام، وقد ورد في الكتاب الثالث من (قوانين مانو) وهو الكتاب الخاص بقوانين الأسرة والزواج، ورد فيه ما يلي: «إذا استولى رجل بالقوة على امرأة وسبأها من منزل أهلها وهي تبكي وتصرخ

في طلب النجدة، وانتصر على من حاولوا مقاومته وتخليصها منه فقتلهم، أو جرحهم كانت المرأة زوجة له وكانت من حقه، وطريقته هذه تسمى (طريقة الجبابرة)، وتنص المواد الثالثة والعشرون، والخامسة والعشرون، والسادسة والعشرون من هذا الكتاب من قوانين مانو على أن: طريقة الجبابرة طريقة مشروعة للزواج في طبقة الكاشتريا»^(١).

ومن الواضح: أن هذه الطريقة لا تكون من طبقة الكاشتريا إلا مع امرأة من طبقة أدنى من طبقتهم - بحيث تكون المرأة من طبقة (الويشيا) - الصناع والتجار والزراع - أو من طبقة (الشودرا) - طبقة الخدم - ولا تكون من طبقة (البراهمن) - رجال الدين - لأن هذه طبقة تفرض الكتب المقدسة، وكذلك قوانين مانو على الهندوسي احترام هذه الطبقة بل وتقديسها، من ثم لا يجرؤ أحد - ولا الحاكم نفسه - أن يعتدي على حرمة امرأة من طبقة رجال الدين (البراهمن).

كذلك لا تكون تلك المرأة من طبقة (الكاشتريا)؛ لأن فيها إهانة لهذه الطبقة، فلا ينتظر من أحد من رجال الكاشتريا أن يخطف امرأة من نساء طبقتهم، وأيضاً قد يثير هذا نزاعاً وقتالاً بين رجال الطائفة وهم أهل حرب وقتال، فينحصر خطف النساء في طبقتين هما الثالثة: (الويشيا) والرابعة (الشودرا).

(١) «تحقيق ما للهند من مقولة» (ص ٩٧ - ٩٩)، وانظر كذلك: «قصة الزواج والعزوبة في العالم»

الصورة الثانية: إلحاق نسب الولد بجده لأمه:

ومن غرائب الزواج في الهندوسية: أن الولد ينسب لجده لأمه، إذا لم يكن للجد ولد ذكر من صلبه، وإذا اشترط ذلك في عقد زواج ابنته، فإذا ما رزقت البنت من زوجها بولد ذكر فإنه ينسب إلى أبيها حسب ما هو مشروط في العقد، ولا حق لأبيه الحقيقي - زوج الابنة - في ذلك الولد، ويكون مع أمه حتى يستغني عنها فيضمه جده لأمه إليه، وتنتهي صلته بأبيه الحقيقي، وكذلك يمكن أن يلحق نسب الولد بجده لأمه إذا كان بنتاً، ولم يكن للجد بنت غير هذه التي تزوجت فيكون أبوها بحاجة إلى ابنة تعوضه فقد ابنته التي تزوجت، فيشترط في العقد أن يكون الولد الذي في بطنها - إذا حملت - هو لأبيها، ذكراً كان أو أنثى. وإلى هذا النظام يشير البيروني بقوله: «وقد يكون النسب من صلب الختن - زوج الابنة - في بطن الابنة المزفوفة لوالدها، وليس لزوجها، إذا شورط في عقد الزواج على أن يكون الولد لأبيها، فيكون ولد الابنة حينئذٍ للجد المشارط وليس للأب الزارع»^(١) - صاحب النطفة.

الصورة الثالثة: نكاح الاستبضاع:

ونكاح الاستبضاع من صور النكاح التي كانت شائعة عند كثير من الشعوب البدائية، كما أنها كانت شائعة عند العرب في الجاهلية عند عامة الناس، لكن شرفاء

(١) «تحقيق ما للهند من مقولة» (ص ٩٧ - ٩٩)، وانظر كذلك: «قصة الزواج والعزوبة في العالم»

العرب ورجالات القبائل كانوا يتنزهون عنه ويحفظون أنسابهم نقية طاهرة.
ونكاح الاستبضاع يعني: أن يجد الرجل المغمور، أو الضعيف، أو الذي لا
ينجب، رجلاً نجيباً قوياً صحيح الجسم ذكي العقل يجمع إلى ذكاء العقل صحة
الجسم ونباهة الأصل، فيرسل إليه زوجته لتنجب أولاداً من هذا الرجل الذكي
القوي، وكانت هذه العادة منتشرة بين كثيرين من السفلة من العرب، لكنهم
كانوا يخفون ذلك حياءً وخجلاً.

والاستبضاع له صور كثيرة، منها تلك الصورة التي ذكرناها عند العرب في
الجاهلية، فلما جاء الإسلام حرمها كما حرم الكثير من الفواحش، قال الله ﷻ:
﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا
لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣].

لكن ذلك الذي حرمه الإسلام على المسلمين ظل على حاله، بل وأسوأ من
حاله عند الهندوس، ونقول: أسوأ من حاله لأن نكاح الاستبضاع كان يأتيه
بعض العرب على استحياء وخجل - كما بينا آنفاً - ولكن هذا الفعل القبيح هو
مقنن عند الهندوس، وهو يطبق حسب شريعة ثابتة عند القوم، بحيث إذا لم
يزاوله البعض يكون مخالفاً لدينه وعادات قومه، ويكون منبوذاً من قومه.

أما نكاح الاستبضاع عند الهندوس - وكذلك عند الهنود جميعاً، حتى لو لم
يكن هندوسياً، بأن كان (جينيّاً)، أو (بوديّاً) - فيتمثل في أن الرجل إذا كان عقيماً
لا ينجب، فإنه يرسل زوجته إلى أخيه - إن كان له أخ ينجب - ليعاشرها أخوه؛
لكي تحمل منه وتنجب أولاداً ذكوراً وإنثاءً ينسبون إلى الزوج، وليس إلى الأخ

صاحب النطفة الحقيقي.

هذه هي الصورة الخاصة بالهنود، يضاف إليها تلك الصورة التي كانت معروفة عند العرب، ذلك أن الزوج إن وجد رجلاً قوياً نجيباً شجاعاً حسن الصورة، فإن عادة العرب تبيح له أن يرسل زوجته ليعاشرها ذاك الرجل وتنجب منه أولاداً ينسبون إلى الزوج.

وإلى هذه الصورة يشير البيروني بقوله: «وقد يكون النسب من صلب الأجنبي في بطن الزوجة؛ لأن الأرض للزوج، فيكون أولاد المرأة لزوجها إذا كانت الزراعة التي زرعها غيره في بطن المرأة برضى زوجها»^(١).

الصورة الرابعة: تعدد الأزواج للزوجة الواحدة:

تبيح الشريعة الهندوسية للزوجة الواحدة أن يشترك فيها عدد من الأزواج دون تحديد عدد معين، فقد يكون للمرأة أربعة أزواج، أو خمسة، دون حد أقصى، وتؤكد هذه العادة إذا كان الرجال إخوة، فإنهم يأتون بامرأة واحدة يتقاسمونها بينهم حسب النظام الذي يريحهم ويتفقون عليه كأن تقيم بينهم جميعاً حسب أيام الأسبوع، أو تقيم عند كل واحد أسبوعاً، وقد ورد في بعض كتبهم المقدسة أن أسرة حاكمة أتت بامرأة لخمسة إخوة أمراء وكانت المرأة تقيم عند كل واحد شهراً قمرياً، أما أولاد المرأة من الأزواج الرجال فكانت المرأة هي التي تحدد والد الذي - أو التي - في بطنها، وكان هذا حقاً خالصاً

(١) تحقيق ما للهند من مقولة (ص ٩٧).

للمرأة، إلا إذا اشترطت أم الأزواج على أن هذا الحق لها، أو لها حق الاشتراك مع الزوجة في تحديد آباء الأطفال ذكورًا أو إناثًا.

وقد ورد في أحد الكتب المقدسة عندهم، واسمه: (مهابهاراتا Mahabharata) أن أحد الحكام واسمه الملك (باندو) كان له خمسة من الأبناء، وكان أحد أبنائه الشجعان واسمه: (أرجونا) يعشق فتاة اسمها (دو بادي) واشترط عليه لكي يفوز بها أن يطلق خمسة أسهم داخل حلقة ضيقة معلقة في الهواء، فلما نجح في الاختبار وأطلق الخمسة أسهم داخل الحلقة فاز بدو بادي زوجة له لكن أمه الملكة قالت له: «إن كل شيء يجب أن يكون مشاعًا»، وهكذا اشترك الإخوة الخمسة في الفتاة زوجة لهم جميعًا، وعاشوا جميعًا في قصر واحد.

وقد ذكر البيروني نفس القصة مع اختلاف يسير عما ذكرنا يقول البيروني عن نفس القصة: «وقد كان لأولاد باندو الأربعة زوجة مشتركة فيما بينهم تقيم عند كل واحد منهم شهرًا»^(١).

وهذا النظام - وهو تعدد الأزواج للمرأة الواحدة - معمول به في مناطق عديدة بالهند، وبخاصة لدى القبائل التي تعيش في مناطق نائية عن العاصمة والحواضر، مثل القبائل التي تعيش في المناطق الجبلية الشمالية، بل إن بعض الطوائف في الهند تتمسك بهذا النظام وغيره من أنظمة الهندوسية الغربية على اعتبار أن ذلك حرص منها على الهندوسية وإحياء لشرائعها، ودفاع عنها ضد محاولات التخلص منها، أو إضعافها.

ومن القبائل التي لا تزال مستمسكة بهذه العادة قبائل مشهورة تسمى قبائل

(١) «تحقيق ما للهند من مقولة» (ص ٩٧ - ٩٩).

(جوانسواريس)، ويذكر البيروني أن كثيرًا من العادات الغربية التي كانت سائدة عند الهندوس القدامى قد ورد تحريمها على ألسنة رجال الدين الكبار فيما بعد، وأن ذلك دليلٌ على أن ديانتهم تجيز النسخ^(١)، لكن يبدو أن رجال الدين عندهم ليسوا على مستوى واحد من الفهم والوعي، فمنهم من يحرم شيئًا، ومنهم من يتمسك به ولا يجيز تحريمه، وذلك مثل هذه العادة - تعدد الأزواج للزوجة الواحدة - فمن رجال دينهم من حرّمها، ومنهم من يجيزها ويأخذ بها حتى اليوم وغداً، ومن الهندوس من يتبع هذا، ومنهم من يتبع ذاك. المهم أن هذه العادة ما تزال معمولاً بها حتى اليوم عند الكثيرين من الشعوب الهندية.

الصورة الخامسة: تعدد الزوجات:

أما تعدد الزوجات للرجل الواحد فقد أقرته جميع كتبهم المقدسة، وإنما أباحته؛ لأنه كان معمولاً به لدى الهنود قبل نشأة الهندوسية واستقرارها دينًا حوالي القرن الثامن قبل الميلاد.

وتعدد الزوجات للزوج الواحد يمكن أن يعد مناسبًا لمكانة المرأة عندهم، تلك المكانة المتدنية، أما تعدد الأزواج الرجال للزوجة الواحدة فقد يناسب مجتمعًا تكون فيه المرأة ذات مكانة سامية متميزة إلا إذا كان الرجال في الهند ينظرون إلى المرأة على أنها جارية لا رأي لها ولا اختيار، وأن الرجال يتعاورونها بينهم، إذا فرغ منها رجل أخذها آخر، كما يحدث في حالات البغاء، وذلك هو ما كان عند الهنود.

وكما أن تعدد الرجال للمرأة الواحدة لا يدل على عزة المرأة وسمو

(١) «تحقيق ما للهند من مقولة» (ص ٩٧ - ٩٩).

مكانتها، بل قد يدل على عكس ذلك؛ فإن تعدد النساء للرجل الواحد لا يدل على تدني مكانة المرأة ومهانتها في مجتمعها وهوانها على الرجال، بل قد تكون المرأة في مجتمع تتعدد فيه الزوجات للرجل الواحد، بينما هي عزيزة في مجتمعها كريمة المنزل رفيعة المكانة عند زوجها وأولادها، وذلك كله ناطقة به المجتمعات الإسلامية التي نزل فيها القرآن يأمر بتكريم المرأة، ويعلي من مكانتها، ويخلع عليها من صفات التبجيل والتكريم والبر ما لا يعطيه للرجل، وقد يوصي الله ﷻ بالوالدين، فيجمل مع الرجل ويفصل مع المرأة - قال - تعالى:

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفَصَلُّهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥].

فقد صدر الآية بالوصية بالوالدين، ثم فصل الكلام عن الأم وأجمل الكلام عن الأب ومثل ذلك في آيات أخرى، تلك التي يتضح منها العناية كاملة بالأُم تكريمًا لها، وإنزالًا لها منازل التكريم والتقدير والاحترام.

الصورة السادسة تزويج الحيوانات:

نختم كلامنا عن غرائب الزواج لدى الهندوس بهذا الحدث العجيب والغريب الذي لا نجد له مثيلاً في غير الهندوسية، ولا يمكن أن نجده إلا فيها. ونعني بذلك الحدث: ما طالعنا به الصحافة أكثر من مرة، تذكر في كل مرة أن إحدى الأسر الهندية قد عقدت زواج حيوان ذكر على أنثاه، وكانت المرة الأخيرة عن زواج حمار بأتان، وقد زينوا الحمار بأنواع الزينة التي قد لا تتوفر لكثير من بني الإنسان، ومثل ذلك، أو أكثر زينوا أنثى الحمار، والأدعى للتعجب أن رجل الدين - البراهمن - قد وقف في الحفل وقد أعد نفسه لتوثيق عقد العروسين الحمار والحمار.

ولعل ما يذهب العجب هنا أن نعرف السبب، والسبب هنا يكمن في عقيدة راسخة عند الهندوس، بل عند الهنود جميعًا، تلك العقيدة التي تقوم على أن التناسخ قائم بين نفوس البشر وأجساد الحيوانات، وأن جميع الأجساد الحيوانية إنما تسكنها نفوس بشرية، وأن الإنسان الذي يسيء العمل ويؤذي الآخرين، حينما يشيخ جسده ويغنى تخرج نفسه من الجسد الذي مات، وتحل في جسد حيوان عقوبة لها على سلوكها السيئ وأعمالها الفاسدة في الجسد السابق، وهكذا عقيدة الهندوس، أن جميع النفوس التي تحل في أجسام الحيوانات هي نفوس بشرية، أو- بمعنى آخر: إن جميع الحيوانات هي نفوس إنسانية بشرية في أجساد وصور حيوانية.

ويتبع هذه العقيدة أن بعض الهندوس إذا كان لديه حيوان عزيز يحبه، فإنه ربما خاطبه كما يخاطب إنسانًا مثله، ويعتب عليه أنه ارتكب الموبقات في حياته السابقة، وينبغي عليه أن يعمل صالحًا في تلك الحياة حتى يتخلص من جسد الحيوان الذي هو فيه، وينتقل إلى جسد إنسان من طبقة عالية.

نأتي إلى ذكر الأساس في تزويج الحيوانات عند بعض الهندوس، وإقامة حفلات للزواج وما إلى ذلك، والسبب- كما هو واضح لنا- أن الهندوس يزوجون الحيوانات معتقدين أنهم يزوجون إنسانًا في صورة حيوان، لإنسان آخر هو في صورة حيوان أنثى من نفس الفصيلة، فالزواج هنا لآدمي مع آدمي لكن في صورة حيوانية، وأنه سيأتي يوم قريب ليعود كل منهما إلى فصيلته وإنسانيته، أو آدميته.

وليس ذلك لكل حيوان، أو من كل إنسان لديه حيوان، ولكن من إنسان لديه حيوان يحبه ويوده، ويريد أن يقدم له عملاً خيرًا، ليحتفظ به إلى حين يعود إلى صورته الإنسانية ويعرف ذلك الفضل لصاحبه.

الخاتمة

الحمد لله أولاً، والحمد لله آخرًا.

ثم الحمد لله على كل حال.

أما بعد:

فهذا الذي بين يديك - قارئ الكريم - هو ما تيسر من جهد في الكتابة حول موضوع هو من أخطر الموضوعات التي تتناولها الدراسات الدينية، بل لعله أخطرها، ذلكم هو موضوع الأديان الوضعية، وبيان قسيمتها، وأخذ العبرة منها؛ لعل تلك العبرة تقودنا إلى الإخلاص في دين الله الحق، والاستقامة على طريق الله عبر دينه الإسلام.

وإننا لنسأل الله - تعالى - أن يُزكّي ما في البحث من صواب، وأن يتجاوز عما فيه من تقصير، وأن يجعله في ميزان الكاتب والقارئ، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم.

سبحانك اللهم وبحمدك - أشهد ألا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

كتبه

عبد الرحمن بن عبد العزيز

مُخْتَصَرَاتُ الْكِتَابِ

مقدمة	٥
الباب الأول: نشأة الديانة الهندوسية، والجذور الثقافية لها	١١
الفصل الأول: تاريخ الديانة الهندوسية	١٣
المبحث الأول: نشأة الهندوسية	١٥
المبحث الثاني: ما قبل الهندوسية من عقائد	١٧
المبحث الثالث: عقائد الأجداد	٢٢
الفصل الثاني: الجذور الثقافية للشعوب الهندية	٢٧
تمهيد	٢٩
المبحث الأول: السمات الثقافية للشعب الهندي	٣٥
المبحث الثاني: المعبودات القديمة للشعوب الهندية	٥٥
الباب الثاني: عقائد الديانة الهندوسية، ومصادرها المقدسة والتبعية	٥٩
الفصل الأول: عقائد الديانة الهندوسية، ومصادرها المقدسة	٦١
المبحث الأول: عقيدة الألوهية في الديانة الهندوسية	٦٣
المبحث الثاني: الذوات المقدسة في الديانة الهندوسية	٨٣

- المبحث الثالث: الهندوسية بين التوحيد، والتثليث، ووحدة الوجود ٩٧
- المطلب الأول: الهندوسية تقول بالتوحيد ٩٨
- المطلب الثاني: الهندوسية تقول بالتثليث ٩٩
- المطلب الثالث: الهندوسية تقول بوحدة الوجود ١٠٢
- المطلب الرابع: وحدة الوجود في الهندوسية الحديثة ١١٠
- المبحث الرابع: عقيدة الألوهية في واقع الهندوس ١١٥
- المبحث الخامس: عقيدة الألوهية عند الهندوسي العامي ١٢٤
- المبحث السادس: نشأة الكون في الديانة الهندوسية ١٣٣
- المبحث السابع: الفوارق الطبقة في الديانة الهندوسية ١٤١
- المبحث الثامن: عقيدة التناسخ في الديانة الهندوسية ١٦١
- المبحث التاسع: عقيدة الكارما (الجزاء) في الديانة الهندوسية ١٧٠
- المبحث العاشر: الانطلاق للاتحاد ببراهما في الديانة الهندوسية ١٧٨
- المبحث الحادي عشر: المصادر المقدسة في الديانة الهندوسية ١٨٥
- تمهيد ١٨٥
- المطلب الأول: الفيدات (Vidas) ١٨٧
- المطلب الثاني: قوانين مانو ٢٠٠
- الفصل الثاني: المصادر التبعية لعقائد الديانة الهندوسية ٢٠٣
- تمهيد ٢٠٥
- المبحث الأول: مهابارتا (Mahapharta) ٢٠٧

٢١٢	المبحث الثاني: رامايانا (Ramayana)
٢١٧	الباب الثالث: العبادات والشرائع في الديانة الهندوسية
٢١٩	تمهيد
٢٢١	الفصل الأول: عبادة الصيام في الديانة الهندوسية
٢٢٣	تمهيد
٢٢٥	المبحث الأول: صيام رجال الدين الهندوس، وأنواعه
٢٢٨	المبحث الثاني: صيام عوام الهندوس، وأنواعه
٢٣٥	الفصل الثاني: متفرقات من عبادات الديانة الهندوسية وشرائعها
٢٣٧	المبحث الأول: الصلوات والقرايين في الديانة الهندوسية
٢٤٠	المبحث الثاني: مكانة المرأة في الديانة الهندوسية
٢٤٣	المبحث الثالث: شرائع الزواج في الديانة الهندوسية
٢٤٤	المطلب الأول: مكانة الزواج في الديانة الهندوسية
٢٤٦	المطلب الثاني: الخطبة ومقدمات الزواج في الديانة الهندوسية
٢٤٨	المطلب الثالث: المرأة هي التي تدفع المهر في الديانة الهندوسية
٢٥١	المطلب الرابع: غرائب الزواج في الديانة الهندوسية
٢٦١	الخاتمة
٢٦٢	محتويات الكتاب

